

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة اليرموك

كلية الدراسات العليا

قسم اللغة العربية وآدابها

أسلوب المحاضر في القرآن الكريم عند المذنبين والصلحاء

إعداد

فؤاد رشدي عبداللطيف الحطاب

إشراف

الأستاذ الدكتور

يوسف أبو العدوس

١٤١٩هـ / ١٩٩٨



﴿رَبِّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى
وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ
وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ
الصَّالِحِينَ﴾

(النمل: ١٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَظِيمِ

الإهداء

إلى ...

روح والدتي ... صاحبة القلب الكبير ...

أنا يا والدتي .. يا حبيبتي .. لم أستطع أن أقدم لك شيئاً من أشياء
الدنيا .. لقد عجزت ... إلا من دعائي وبحثي هذا ... اللهم اجعل عملي هذا خالصاً
لوجهك الكريم ... اللهم اجعله في ميزان حسنات أمي وأبي .. اللهم تقبل .. اللهم
آمين.

ووالدي .. صاحبة القلب الكبير ...

لم يكن توفيقني إلا بفضل الله سبحانه وتعالى ودعاء أمي وأبي
في جوف الليل ..

وزوجتي الكريمة ... أم همام

وأخوتي وأخواتي:

عماد ومراد ورشاد ورائدة ومطبعة وراند ونهاية ومحمد ...

وأولادي:

همام وفاطمة الزهراء وأحمد ...

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة اليرموك

كلية الدراسات العليا

قسم اللغة العربية وآدابها

أسلوب الحصر في القرآن الكريم عند النحويين والبلاغيين

إعداد

فؤاد رشدي عبد اللطيف الحطّاب

بكالوريوس في اللغة العربية وآدابها / الجامعة الأردنية

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات نيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في جامعة اليرموك - تخصص : لغة ونحو

أعضاء لجنة المناقشة

١. الأستاذ الدكتور يوسف أبو العدوس مشرفاً ورئيساً.

٢. الدكتور عودة ابو عود عضواً.

٣. الدكتور ماجد الجعافرة عضواً.

١٩٩٨/١٤١٩ هـ

شكر وتقدير

أتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذي الدكتور يوسف أبو العدوس على
تكرمه وقبوله الإشراف على هذه الرسالة وتبنيه موضوعها.

كما وأتقدم بالشكر الجزيل أيضاً
للدكتور عودة أبو عودة،
والدكتور ماجد الجعافرة

على تفضلهما وتكرمهما بمناقشة هذا البحث.
كما و أتقدم بالشكر الجزيل لأساتذتي في قسم اللغة العربية و آدابها في كلية
الآداب-جامعة اليرموك. و أخص بالذكر الدكتور علي الحمد الذي أفاد الباحث
بصادق نصحه و إرشاداته و تشجيعه له على المضي قدماً في طريق البحث .

فهرس المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
الإهداء.	أ
أعضاء لجنة المناقشة	ب
شكر و تقدير	ج
أهمية البحث	ط
الترادف في اللغة	م
خطة البحث	ر
المقدمة:	٢
علاقة علم النحو بعلم المعاني	٢
التمهيد:	٨
الحصر في الدراسات النحوية	٨
والبلاغية.	
الفصل الأول:	١٧
تحديد مصطلح الحصر والتعريف	١٧
بأقسامه	
المبحث	١٧
الأول:	
تحديد مصطلح الحصر.	١٧
- المطلب الأول: الحصر لغةً.	١٧
- المطلب الثاني: القصر لغةً.	١٩
- المطلب الثالث: تحديد المصطلح.	٢٠

٢٣ - المطلب الرابع: الحصر اصطلاحاً

عند النحويين.

٢٤ - المطلب الخامس: الحصر

اصطلاحاً عند البلاغيين.

٢٨ أقسام الحصر.

المبحث

الثاني:

٢٩ - المطلب الأول: تقسيم الحصر من

حيث طرفاه.

٣١ - المطلب الثاني: تقسيم الحصر

باعتبار غرض المتكلم.

٣٣ - المطلب الثالث: الحصر الحقيقي.

٣٤ - الحصر الحقيقي من حيث طرفاه.

٤٣ - المطلب الرابع: الحصر الحقيقي

على سبيل الإدعاء.

٤٦ - المطلب الخامس: الحصر

الإضافي.

٥٢ - قصر القلب .

٥٨ - قصر التعيين.

٦٣ أسلوب الحصر عند النحويين

الفصل الثاني:

والبلاغيين.

٦٤ الحصر عند النحويين .

المبحث الأول:

٦٩	التركيب النحوية الدالة على الحصر	المبحث
	باعتبار ما بعد -إلا- في القرآن الكريم.	الثاني:
٧٥	طرق النفي في التركيب النحوية	المبحث
	الدالة على الحصر.	الثالث:
	علاقة النفي بأداة الحصر (إلا).	
٧٧	- المطلب الأول: النفي بـ "ما".	
٧٩	- تركيب جملة الحصر في القرآن الكريم بحسب ما بعد (ما).	
٨٤	- المطلب الثاني: النفي بـ "إن".	
٨٩	- تركيب جملة الحصر في القرآن الكريم بحسب ما بعد (إن).	
٩٢	- المطلب الثالث: النفي بـ "لا".	
٩٤	- تركيب جملة الحصر في القرآن الكريم بحسب ما بعد (لا).	
١٠١	- المطلب الرابع: النفي بـ "هل".	
١٠٣	- تركيب جملة الحصر في القرآن الكريم بحسب ما بعد (هل).	
١٠٤	- المطلب الخامس: النفي بـ "لم".	

١٠٥ - المطلب السادس: النفي بـ
"ليس".

١٠٧ - المطلب السابع: النفي بـ "لن".

١٠٩ - المطلب الثامن: النفي بـ "ألا".

١٠٩ - المطلب التاسع: النفي بـ "ماذا".

١١٠ - المطلب العاشر: النفي بـ "من".

١١١ - المطلب الحادي عشر: النفي بـ
"أمن".

١١٢ - المطلب الثاني عشر: النفي
بـ "أبى".

١١٥ الأداة على أن "إنما" و "أنما" أدوات
المبحث الرابع:
حصر.

١٢٧ التراكيب النحوية الدالة على الحصر
المبحث الخامس:
باعتبار ما بعد "إنما" و "أنما".

١٢٧ - المطلب الأول: التراكيب النحوية
الدالة على الحصر باعتبار ما بعد
"إنما".

١٣٢ - المطلب الثاني: التراكيب النحوية
الدالة على الحصر باعتبار ما بعد
"أنما".

١٣٤ أسلوبا الحصر عند البلاغيين. المبحث السادس:

١٣٤ - المطلب الأول: أسلوب الحصر
بالأداة "إلا"

١٣٦ -- من شواهد الحصر بإلا في ما
يجهله المخاطب و ينكره أو يشك
فيه.

١٤١ - المطلب الثاني: أسلوب الحصر

١٤١ بالأداة "إنما" - من شواهد الحصر
بإنما في ما لا يجله المخاطب
ولا ينكره في القرآن الكريم.

١٤٦ - المطلب الثالث: الحصر بـ "إنما"
يفيد التعريض.

١٤٩ دلالات في أسلوب الحصر الفصل الثالث:

١٥٢ مقابلة أساليب الحصر المتشابهة المبحث
من حيث أداة الحصر "إلا" ومن الأول:

حيث القصور والمقصور عليه في
سياقاتها المختلفة ومن ثم عقد
المقارنة بينها.

١٥٣ - المطلب الأول: يتمثل بعرض

معالجة علمائنا القدامى لـ "إن"
و "ما" النافيتين ضمن السياق
القرآني.

١٥٥	- المطلب الثاني: المقارنة بين	
١٥٥	أسلوبي الحصر بـ "إن" و"إلا" و	
	"ما و إلا" ضمن السياق القرآني	
	على النحو الآتي:	
	- المسألة الأولى: الدراسة	
	الإحصائية.	
١٥٦	- المسألة الثانية: دراسة القرائن	
	والجمل الممهدة لأسلوب الحصر.	
١٧٠	- المسألة الثالثة: المقارنة العملية	
	بين أسلوبي الحصر بـ "إن و إلا" و	
	"ما و إلا" ضمن السياق القرآني.	
١٧١	- الأنموذج الأول	
١٩٩	- الأنموذج الثاني	
٢١٠	- الأنموذج الثالث	
٢٢٢	- التعقيب على هذه المقارنة.	
٢٣٧	الكشف عن دقة موقعية أسلوب	المبحث
	الحصر بأداة الحصر "إنما".	الثاني:
٢٣٨	- الأنموذج الأول	
٢٤٩	- الأنموذج الثاني	

٢٥٦	نتائج البحث.
٢٥٩	ملخص البحث بالعربية.
٢٦٠	ملخص البحث بالإنجليزية.
٢٦١	قائمة المصادر و المراجع.

أهمية البحث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد أنزل الله - سبحانه وتعالى - القرآن الكريم بلسان عربي مبين، فقلل في محكم آياته: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (١٩٣، الشعراء).

وبنزول القرآن الكريم باللسان العربي "برزت إلى الوجود ظاهرة لغوية فريدة في تاريخ علم اللغات أثارت اهتمام اللغويين القدامى".^(١) "وقد أدرك اللغويون القدامى أن لغة التنزيل هي لغة الخالق العظيم. وأنها ليست كلغة العوب أهل البيان والفصاحة، وأن لها خصائص عالية اكتسبت بها صفة الإعجاز".^(٢)

ولقد أقبل الدارسون على القرآن ووجدوا في لغته أنماطاً جديدة من وجوه القول لم يهتد إليها العرب من قبل أن يتأدبوا بأدب القرآن الكريم.

وظل القرآن محور الدراسات الدينية واللغوية والنحوية والبلاغية في العالم الإسلامي. ونال من البحث والدراسة والفهم ما لم ينله أي كتاب آخر. وما يزال نبعاً مستمراً لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد.

ولهذا كله، ولأهمية القرآن الكريم، ولكونه نبعاً غنياً في اللغة والنحو فقد رأى الباحث أن تكون هذه الدراسة في أسلوب من أساليبه التي لم تبحث من قبل. وتحديداً في أسلوبين من أساليب الحصر في القرآن الكريم. الأول: أسلوب الحصر بـ "إلا"، والثاني: أسلوب الحصر بـ "إنما" عند النحويين والبلاغيين.

(١) انظر الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، ص (١٩١).

(٢) في شرف العربية، إبراهيم السامرائي، ص (٣٥).

إذ إن أسلوب الحصر في القرآن الكريم مادة غنية للدراسة العلمية نحوباً وبلاغياً لترشد الدراسات القرآنية الأسلوبية الأخرى التي تناولت أساليبه قديماً وحديثاً.

وتهدف هذه الدراسة إلى كشف أسرار أسلوب الحصر ودقائقها في القرآن الكريم. وهذا الهدف يتطلب دراسة فقه التراكيب أو فقه الدلالة أو فقه الأسلوب وتحليله، والمقصود بفقه الأسلوب دراسة المعنى الدقيق الذي يتضمنه هذا الأسلوب دراسة تتجاوز ظاهره إلى معناه.

"ومن المسلم به أن علم النحو وعلم المعاني درسا فقه التراكيب ودلالاتها. إلا أنه بالرغم من ذلك فإن كثيراً من مسائل التراكيب ما تزال دون نظر. وإن أكثر هذه المسائل لم تبحث لا في كتب النحو ولا في كتب البلاغة"^(١). ومن هذه التراكيب - على سبيل المثال - أسلوب الحصر في القرآن الكريم. فمسائل أسلوب الحصر في القرآن الكريم دقيقة ولافتة للنظر. والمتأمل في هذه المسائل يجد بينها فرقاً دقيقاً يمكن أن يلحظ من خلال دراسة هذا الأسلوب دراسة فقهية.

فمن المسائل الدقيقة المعدة للدراسة، التساؤل الآتي:
ما الفرق الدقيق بين أساليب الحصر الآتية:
﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾. (المائدة، ٧٣).
﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾. (آل عمران، ٦٢) و (ص، ٦٥).
﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾. (الصافات، ٣٢).

اللافت للنظر في هذه الأساليب أنها وإن كانت دالة على معنى التوحيد إلا أنها ليست واحدة من حيث التركيب في تأديتها ذلك المعنى بل متنوعة. وهذا التنوع هو هدف البحث.

(١) معاني النحو، فاضل السامرائي، ج ١، ص ٨.

ومن المسائل الدقيقة أيضاً الآية الآتية:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾. (طه، ٩٨).

اللافت للنظر في هذه الآية الكريمة أنها جمعت أسلوبَي حصر في آية واحدة لتحقيق معنى التوحيد؛ الأول: **﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ﴾**، والثاني: **﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾**. وهنا نتساءل: كيف جاء هذان الأسلوبان معاً في آية واحدة؟ وكيف تم الجمع بينهما؟

ومن المسائل الدقيقة أيضاً النماذج الآتية:

النموذج الأول: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. (الشعراء، ١١٥).
﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. (الأحقاف، ٩).

النموذج الثاني: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾. (ص، ٨٧).
﴿مَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾. (القلم، ٥٢).

النموذج الثالث: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. (الأنعام، ٢٥).
﴿مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. (الأحقاف، ١٧).

اللافت للنظر في هذه النماذج أن أسلوبَي الحصر بـ "إن" و "إلا" و "ما" و "إلا" متشابهان من حيث أداة الحصر والمقصود والمقصود عليه. فالفرق بين هذين الأسلوبين هو اختلاف حرف النفي في كل منهما. وهنا يتبادر إلى الذهن التساؤلات الآتية: هل يمكن لهذه الأساليب أن تتبادل المواقع في القرآن الكريم نظراً لتشابهها؟ وهل يجوز أن يحل هذا الحرف مكان هذا الحرف؟ وهذا يقودنا إلى السؤال الكبير وهو: هل تترادف أساليب الحصر في القرآن الكريم؟ وإذا كان ثمة فرق بين هذين الأسلوبين فما هو الفرق الدقيق بينهما؟

واضح أن هذه المسائل مثيرة للبحث نظراً لتشابهها، والشيء المثير فيها أن الفرق بين هذين الأسلوبين سيكشف لنا عن أمرين مهمين:

الأول: صفة إعجازية تضاف إلى القرآن من خلال أساليبه الدقيقة في الحصر. والدقة في كلام الله - سبحانه وتعالى - لا تختلف كثيراً عن الدقة في خلق السماء والأرض والشمس والقمر والكواكب، والبحار والجبال.... بل إن كل هذه الآيات المعجزة في دقتها ستدمر تدميراً... ويبقى كلام الله - سبحانه وتعالى - محفوظاً....!

والصفة الإعجازية هنا مساحتها ليست صغيرة وإنما هي كبيرة. ففرق كبير بين صفة إعجازية في "مفردة لغوية" في موضع ما من القرآن الكريم وبين "تركيب لغوي" تدور استعماله في القرآن الكريم أكثر من "١٨٠" مرة في أسلوب الحصر بـ "ما وإلا" وأكثر من "١٠٠" مرة في أسلوب الحصر بـ "إن وإلا".

الثاني: خصيصة تركيبية جديدة: وتتمثل في أن هذا التركيب له خصيصة في الأداء أو في الاستعمال يمتاز بها عن التركيب الآخر. وبهذه المزية اكتسب القرآن تلك الصفة الإعجازية.

الترادف في اللغة

"هو التتابع، والردف : الذي يركب خلف الراكب، والرديف كالردف، والردف ما تبع الشيء، وإذا تتابع شيء خلف شيء فهو الترادف (١). ويرى الباحث أن الترادف بمعنى التتابع يعني التقارب، والردف أو الرديف الذي يركب خلف الراكب يكون اقرب ما يكون من صاحبه .
اما الترادف اصطلاحاً:-

فأبكر اصطلاح يطالعنا له اصطلاح سيبويه (٢) إذ يقول فيه إنه ((اختلاف اللفظين والمعنى واحد .. مثل ذهب وانطلق)) . يمكن تسجيل الملاحظات الآتية على اصطلاح سيبويه:-

١- أي لفظين مختلفين في المبنى متحدتين في المعنى مترادفتان عنده. "فذهب" و"انطلق" بمعنى واحد، "وقعد" و"جلس" بمعنى واحد أيضاً .

٢- أي لفظين مختلفين في المبنى متحدتين في المعنى متطابقتان تطابقاً تاماً. وذلك لأن سيبويه لم يُشر إلى الفروق الدقيقة بين اللفظين .

٣- أي لفظين مختلفين في المبنى متحدتين في المعنى يمكن أن يتبادلا المواقع فيما بينهما في أي سياق .

٤- بناءً على ذلك، فسيبويه يعد من أبرز القائلين بالترادف .

وإذا انتقلنا إلى الإمام الفخر الرازي (٣) نجده قد ضبط مصطلح الترادف ضبطاً دقيقاً إذ يقول فيه هو: ((الالفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد)) .

وبلاحظ على اصطلاح الفخر الرازي أن الألفاظ المختلفة في المبنى الدالة على شيء واحد مترادفة بشرط هو: أن تكون هذه الألفاظ مفردة: وقوله مفردة، أي غير مركبة، ليست في جملة أو في سياق. فاللفظان القريبان من معنى واحد عندما يفردان يكونان مترادفين. ولكنهما عندما يركبان ويكون كل منهما سياقاً خاصاً فهما ليسا مترادفين .

(١) أنظر المقاييس في اللغة مادة ردف ، ولسان العرب، وأساس البلاغة، والقاموس المحيط، والمعجم الوسيط.

(٢) الكتاب، ج ١، ص ٢٤ .

(٣) المزهر في علوم العربية، ج ١، ص ٤٠٢ .

وقد استوقفت ظاهرة الترادف علماء العربية. وانقسمت آراؤهم بشأنها وتعددت وقد ارجع الدكتور كمال بشر (١) كل ما اتي به اللغويون في هذه الظاهرة الى أربعة آراء.

ولعل سبب انقسام آراء العلماء بشأن هذه الظاهرة هو اختلاف وجهات نظرهم فيها. ويمكن ترتيب آرائهم حسب وجهات نظرهم على النحو الآتي :-

الرأي الأول : أصحاب هذا الرأي يقولون بالترادف ويجيزونه أبرزهم سيبويه (٢) ، وقطرب (٣).

ووجهة نظرهم أن العرب أوقعت اللفظين على المعنى الواحد ، ليدلوا على اتساعهم في كلامهم .

الرأي الثاني : ينكر بعض علماء العربية وجود الترادف إنكاراً تاماً وأبرزهم أبو علي الفارسي (٤) وابن درستويه (٥) أبو هلال العسكري (٦) ووجهة نظرهم أن لكل لفظ معناه الخاص به ، فلا توجد ألفاظ مترادفة .

الرأي الثالث : أصحاب هذا الرأي يؤمنون بالترادف بمعناه العام ، أي أن هذا اللفظ قريب معناه من هذا اللفظ من حيث العموم . " فقعد " " وجلس " لفظان مترادفان من حيث المعنى العام ، ولكنها على وجه الخصوص ليسا مترادفين " فقعد " ليس " جلس " إطلاقاً . إذ إنَّ القعود لا يكون إلا عن قيام والجلوس لا يكون إلا عن اضطجاع .

وبناء على ذلك فأصحاب هذا الرأي لا يعنون بالترادف التطابق التام فسي المعنى بين الألفاظ المفردة ، وإنما يعنون به التقارب في المعنى ، فالترادف بمعناه المطلق غير موجود وأبرز أصحاب هذا الرأي ابن فارس (٧) وابن الأعرابي (٨) و ثعلب (٩) والفخر الرازي (١٠) . ووجهة نظرهم أن اللفظين قد يكونان قريبين من المعنى العام لكنهما ليسا بمعنى واحد مطلقاً .

(١) انظر دور الكلمة، ص ١٠٥.

(٢) انظر الكتاب، ج ١، ص ٢٤.

(٣) انظر المصدر السابق، ج ١، ص ٤٠٠.

(٤) انظر المزهري، ج ١، ص ٤٠٥.

(٥) انظر المصدر السابق، ج ١، ص ٣٨٤-٣٨٥.

(٦) انظر الفروق اللغوية، ص ٢٨.

(٧) انظر الصاجي في فقه اللغة، ص ٩٩٠، ٩٩٤.

(٩) انظر المصدر السابق، ج ١، ص ٤٠٣.

(٨) انظر المزهري، ج ١، ص ٣٩٩-٤٠٠.

(١٠) انظر المصدر السابق، ج ١، ص ٤٠٢.

الرأي الرابع : يقسم الدكتور كمال بشر (١) أصحاب هذا الرأي الى قسمين فيقول : يرى جماعة من العلماء أن ما يسمى بالترادف يمكن تقسيمه قسمين : قسم سمته هذه الجماعة بالترادف وعرفوه بأنه " إقامة لفظ مقام لفظ آخر في معنى عام واحد يجمعها جميعاً - وأمثلتهم على ذلك : " لَمَّ الشَّعْثُ ، ورتَّقَ الفتق ، وأصلح الفاسد " (٢) .

ويعلق الدكتور كمال بشر (٣) على تعريفهم فيقول : " وهذه الأمثلة تدلنا على أن المراد بالألفاظ في التعريف الذي ساقوه إنما هي العبارات والجمل لا الكلمات المفردة . ويؤخذ من كلامهم أيضاً أن الترادف عندهم يقابل ما يمكن أن يسمى عندنا بالجمل التفسيرية أو البيانية " .

أما القسم الثاني : فيسمونه بالمتوارد (٤) : وذلك يتحقق حين تضع أكثر من اسم للذات الواحدة والشيء الواحد ، كأن تسمي الأسد بالسبع والهزبر والليث ، وواضح من هذه الأمثلة أن ما يسمي بالمتوارد عندهم يقابل المترادف عند غيرهم .

أما المحدثون من علماء العربية فقد استوقفتهم ظاهرة الترادف ، وانطلقوا في بحثهم هذه الظاهرة من أساس : أن الاختلاف في المبنى يقتضي اختلافاً في المعنى ، واللفظ وإن كان قريباً في المعنى من لفظ آخر ، فلا بد من فروق بينهما مهما خفيت ، لأن دلالة الألفاظ ومعانيها لا ينظر لها من زاوية واحدة ، هي زاوية المعجم ، بل ينظر لمعنى اللفظ من زوايا أخرى تحيط به كالمعنى الاجتماعي ، والنفسي الإيحائي ، والسياقي الاستعمالي .

(١) دور الكلمة، ص ١٠٥ .

(٢) انظر الألفاظ الكتابية، ص ١٣-١٤ ، ودور الكلمة، ص ١٠٥ .

(٣) دور الكلمة، ص ١٠٥ .

(٤) المصدر السابق، ص ١٠٥ .

وأبرز هؤلاء المحدثين : علي الجارم (١) ، وأحمد أمين (٢) ، وإبراهيم أنيس (٣) وعائشة عبد الرحمن (٤) -بنت الشاطئ- وأحمد مختار عمر (٥) ، ومن أبرز المستشرقين واللغويين الغربيين: ستيفين أولمان (٦) الذي يقول: "الترادف هو ألفاظ متحدة المعنى وقابلة للتبادل فيما بينهما في أي سياق "

ويمكن القول: إن آراء المحدثين تتفق مع الرأي الثالث لعلماء اللغة القدامى السذي ذكرناه سابقاً، وإن رأي أولمان يتفق مع الفخر الرازي (٧) الذي يرى الترادف هو "الألفاظ المفردة الدالة على شئ واحد باعتبار واحد".

وقد كان لآراء المحدثين من علماء العربية صدى في مجمع اللغة العربية في القاهرة. فقد قرر في شأن المترادفات " أن يعني كل العناية بتبيان الفروق الدلالية بين الكلمات ما أمكن، بحيث يتحدد المعنى الدقيق لكل كلمة، وبذلك يتم توضيح دائرة المترادفات " (٨). وبعد هذا العرض الموجز لظاهرة الترادف قديماً وحديثاً نأتي إلى الغرض الذي من أجله سقنا هذا الموضوع . وهو : هل هناك ترادف في الألفاظ في القرآن الكريم ؟ وهل هناك ترادف في أساليبه اللغوية ؟

من أبرز القائلين بالترادف في القرآن الكريم الدكتور إبراهيم أنيس (٩). ((إذ يرى أن الترادف لا يكاد يوجد في اللهجات العربية القديمة، وإنما يمكن أن يلتمس في اللغة النموذجية الأدبية. وقد مثل للغة النموذجية الأدبية بالقرآن الكريم حيث يقول (١٠) ((ففي القرآن الكريم نرى الترادف في بعض الألفاظ)).

(١) انظر الترادف، ج ٨، ص ٣٠٤-٣٣١.

(٢) انظر جمع اللغة العربية، ص ٢١١.

(٣) انظر، في اللهجات العربية، ص ١٧٨-١٧٩.

(٤) انظر الإعجاز البياني، ص ٢٣٢.

(٥) انظر ظاهرة الترادف، ص ١٩-٢٠.

(٦) دور الكلمة، ص ٩٨.

(٧) المزهري، ج ١، ص ٤٠٢.

(٨) كتاب في أصول اللغة، ص ٧٢.

(٩) انظر في اللهجات العربية، ص ١٥.

(١٠) المصدر السابق، ص ١٦.

ويسوق الدكتور إبراهيم أنيس (١) بعض الآيات التي يبرهن فيها على وقوع الترادف في بعض الالفاظ في القرآن الكريم وهي :-

١- حضر و جاء . ويمثلها قوله تعالى: ((حتى إذا حضر أحدهم الموت)) (النساء، ١٨)

و ((حتى إذا جاء أحدكم الموت)) (الأنعام، ٦١)

٢- النار و الجحيم . ويمثلها قوله تعالى: ((ومأواهم النار وبئس مَثْوًى الظالمين)) (آل عمران، ١٥١)

و ((فإن الجحيم هي المأوى)) (النازعات، ٣٩)

٣- أقسم و حلف . ويمثلها قوله تعالى: ((واقسموا بالله جهد أيمانهم)) (الأنعام، ١٠٩)

و ((ثم جاءوا يخلفون بالله)) (النساء، ٦٢)

وقد اعترض الدكتور عودة أبو عودة (٢) على رأي الدكتور إبراهيم أنيس وأمثله التي عرضها من جهتين :-

الأولى: من حيث العموم، وذلك من خلال دراسة له يقول فيها: ((تبيّن لي أن كثيراً مما كان يعد في الشعر الجاهلي من المترادفات لم يعد له وجود في القرآن الكريم. وقد اجتهدت في ذكر كثير من الأمثلة من الآيات القرآنية التي تدل دلالة واضحة على أن كل كلمة في القرآن الكريم تحمل معنى غير الذي تحمله الكلمات الأخرى التي يظن أنها مرادفة لها، وقد اعتمدت في ذلك على إجماع الآيات القرآنية الكريمة التي تورد المادة اللغوية للمعنى المعين)). ويرى الباحث أن نتيجة الدكتور عودة قيمة إذ تعني أن القرآن الكريم أكسب اللغة العربية دقة في تحديد معاني ألفاظها. مما منع من انتشار الفوضى اللغوية في هذه الألفاظ، وهو ما تنبّه إليه علماء اللغة المحدثون .

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٦.

(٢) الترادف في اللغة، ص ١٧٣-١٧٤.

الثانية: من حيث الخصوص. إذ يَرُدُّ على الأمثلة التي ساقها الدكتور إبراهيم أنيس ويقول فيها بإيجاز: ((إن في جاء الموت معنى ليس في مصطلح حضر الموت. فالمصطلح الأول: يعني موت الفجاءة الذي لا يملك الإنسان معه شيئاً، أو هو السكنة القلبية كما يقال اليوم، أما تعبير حضر الموت فهو الموت البطئ الذي يملك الإنسان معه نفسه فيستطيع أن يوصي أصحابه وأهله، وإن يتدبر أمره، وأن يستغفر عن ذنوبه، وإن يتوب إن شاء، ويعتدل من سيرته)) (١).

((وإما النار فهي الاسم العلم على مقر العذاب الذي أعده الله لمن اعرض عن عبادته ولمن أشرك به، وقد وردت صفات للنار مثل جهنم والجحيم والسعير وسقر ولظى والهاوية والحطمة والغاشية . والجحيم مأخوذة من جَحِمَت النار إذا اضطربت ، والنار الجاحمة هي الشديدة المضطربة ، فهي إذن تصور شدة الحرارة وهول الإضراب في النار اللاهبة " (٢).

" وقد فرّق القرآن الكريم بين الحلف والقسم في الدلالة — فقد استعمل فعل " حلف " وما يشتق منه في معرض اليمين الكاذب الذي يصدر عن أناس منافقين أو غير ملتزمين بإيمانهم ، بينما لم ترد مادة " أقسم " في القرآن الكريم إلا في معرض الصدق الصراح ، وغالباً ما أسند القسم إلى الله عز وجل " (٣) ويُدلل الدكتور عودة (٤) بأيات من القرآن الكريم نذكر منها قوله تعالى : فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم " (المائدة ، ٨٩) " ولا تطع كل حلاف مهين " (القلم ، ١٠)

" فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسام لو تعلمون عظيم " (الواقعة ، ٧٥-٧٩) " فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون " (الحاقة ، ٣٨-٣٩)

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٧٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٧٣.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٧٣.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ١٧٣.

ويصل الدكتور عودة أبو عودة الى نتيجة مفادها : أن الترادف في القرآن الكريم غير موجود بلا شروط وبلا حدود ، إذ يقول (١) "ليس في القرآن الكريم ترادف أبداً ، إن لكل كلمة في القرآن الكريم معناها المحدد ودورها المرسوم في إكمال بناء الإعجاز القرآني لفظاً ومعنى . فالكلمة في القرآن الكريم يراد لفظها ومعناها في وحدة واحدة لا تنقسم أبداً "

وإلى مثل هذه النتيجة توصل أحد الباحثين في بحثه الألفاظ العسكرية المتقاربة في المعنى في القرآن الكريم فقال (٢): " لا ترادف في القرآن الكريم ، إذ إن القرآن الكريم ينتخب ألفاظه انتخاباً وينتقيها انتقاءً بحيث لا نستطيع مطلقاً أن نضع لفظه مكان أخرى مما نحسب أنها تماثلها ، لما لكل لفظه من خصوصية في الدلالة والاستعمال والاشتقاق ، والأصل اللغوي ، والموسيقى ، والإيحاء ، والبيئة التي نشأت فيها ، والعصر الذي استعملت فيه " .

وبعد ذلك كله ، فالدراسات التي بحثت ألفاظ القرآن الكريم بحثاً دلاليّاً أثبتت في أبرز نتائجها أن الألفاظ المتقاربة في المعنى لا تترادف في القرآن الكريم .
و الباحث في بحثه أسلوب الحصر يريد أن يجيب عن السؤال الذي طرحه في معرض حديثه عن أهمية البحث و هو: هل تترادف أساليب الحصر في القرآن الكريم نظراً لتشابهها ؟

(١) الترادف في اللغة، ص ١٧٢.

(٢) الألفاظ العسكرية، القرآن الكريم ، خالد فراج ، ص ١٨٩.

خطة البحث

وقد اعتمدت هذه الدراسة على استيفاء مادتها من طريقين:

الأول: القرآن الكريم: إذ يتطلب ذلك قراءة آياته واستخراج أسلوبه الحصري منها ورصدها وتبويبها.

الثاني: ويتمثل في المحاور الأربعة الآتية:

المحور الأول: أمهات مصادر اللغة والنحو العربي؛ من معاجم لغوية، وكتب النحو وشروحها وحواشيها، وكتب الحروف ومعانيها.

المحور الثاني: مصادر البلاغة القديمة؛ من كتبها وشروحها وحواشيها ومختصراتها.

المحور الثالث: كتب إعراب القرآن الكريم وتفسيره وقراءاته وعلومه ومعانيه وإعجازه.

المحور الرابع: الدراسات القرآنية الحديثة، وما يتعلق منها بدراسة أساليب القرآن الكريم.

وقد انتظمت هذه الدراسة في هيكل تنظيمي قائم على مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول. حاولت المقدمة بحث العلاقة بين علم النحو وعلم المعاني بهدف توثيق الصلة بين علم النحو وعلم المعاني، وبيان أن العلمين كالجسد والروح. فلا يمكن بحال فصل أحدهما عن الآخر. فالنحو أو التركيب كالجسد وعلم المعاني هو الروح التي تحيي هذا الجسد. فمثلاً سيبويه أمام النحويين عندما بحث تركيب الحصر لم يغفل عن المعنى الذي يؤديه هذا التركيب، وهذه دلالة على أن النحو درس فقه التركيب.

وتناول التمهيد الحصر في الدراسات النحوية والبلاغية السابقة بهدف تتبع تطور مفهوم الحصر في بيئتي النحويين والبلاغيين. والغرض من بحث هذا التطور الربط بين النحويين والبلاغيين في النظر إلى مفهوم الحصر. وعدم اقتصار هذا المفهوم على هذه البيئة دون الأخرى، لأن في هذا الاقتصار تضيقاً

لمفهوم الحصر وتجميداً لفهم تراكيبه التي تتضمن مسائل كثيرة غنية بالمعاني الدقيقة.

وحاول الفصل الأول تحقيق الأهداف الآتية:

الأول: تحديد مصطلح الحصر؛ لأن هذا الأسلوب يتميز بوفرة مصطلحاته. إذ تتراحم في كتب النحو والبلاغة العربية ثلاثة ألفاظ تدور في هذا الأسلوب وهي الحصر، والقصر، والاختصاص أو التخصيص. أما الحصر فاشتهر في بيئة النحويين. وأما القصر والاختصاص فاشتهر في بيئة البلاغيين.

والغرض من تحديد المصطلح ليس انتصاراً لمصطلح النحويين أو لمصطلح البلاغيين. وإنما الغرض منه تصحيح مسار البحث في أسلوب الحصر.

الثاني: التعريف الاصطلاحي للحصر عند النحويين والبلاغيين إذ إن هذا التعريف يمثل الأساس الذي اشتق منه البلاغيون أقسام الحصر.

الثالث: التعريف بأقسام الحصر من الوجهة البلاغية: وأقسام الحصر هذه مشتقة من التعريف الاصطلاحي، وهذا التعريف أصله نحوي. إلا أن البلاغيين تناولوا المفهوم النحوي للحصر، ووضعوه في إطار تعريفي فني، ومنه اشتقوا له أقساماً وأطرافاً. ولم يكتفوا بذلك بل جروا في تقسيمه باعتبارات تصل إلى حد التعقيد والإملال. إذ إن التوسع في هذا التقسيم لم يضيف شيئاً جديداً ذا بال إلى البلاغة العربية، بقدر ما كان جرياً وراء النزعة المنطقية في تحصيل المصطلحات الجديدة لهذا العلم. والهدف من بحث أقسام الحصر الوقوف على ما قاله البلاغيون قديماً وحديثاً بشأن هذه الأقسام التي لم يكن غرضهم منها سوى تصنيف أساليب الحصر في الكلام العربي ضمن هذه الأقسام. والباحث وإن كان سيورد أمثلة قرآنية من أساليب الحصر، وتمثيلها في هذه الأقسام. إلا أن مثل هذا الغرض ليس جوهرياً لدى الباحث.

وحاول الفصل الثاني بحث أسلوبي الحصر عند النحويين والبلاغيين.

ففي بحثه أسلوب الحصر عند النحويين يهدف إلى تأصيل أداة الحصر "إلا"
المسبوقة بنفي أو شبهه، وعرض الأدلة على أن "إنما" و "أنما" أداتا حصر، ومن
ثم عرض التراكيب النحوية الدالة على الحصر في القرآن الكريم بمختلف
أنواعها وتراكيبها على النحو الآتي :

- باعتبار ما بعد "إلا".

- باعتبار طرق النفي في التراكيب النحوية الدالة على الحصر بالأداة "إلا".

- باعتبار ما بعد "إنما" و "أنما".

وكما هو واضح فمن شأن بحث أسلوب الحصر عند النحويين توسيع
دائرة التراكيب النحوية الداخلة ضمن هذا الأسلوب.

أمّا في بحثه أسلوب الحصر عند البلاغيين فيهدف إلى عرضهما بما
قرره البلاغيون على رأسهم شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني من اعتبار "لحال
المخاطب" وذلك من خلال أمثلة من القرآن الكريم.

وجوهر البحث أو ما يمثل الجدة فيه يتجسد في الفصل الثالث الذي
تناول دقائق في أسلوب الحصر، وهذه الدقائق تمثل مسائل من تراكيب الحصر
التي سبق عرضها في هذا الملخص.

ومنهج الباحث في هذه الدراسة يقوم على الوصف المقترن بالتحليل.
فقد قام الباحث بتحديد الظاهرة المدروسة أولاً ووصفها وتحليلها.

فمثلاً في الفصل الثالث في دراسة الفرق بين أسلوب الحصر بـ "إن
وإلا" و "ما وإلا" اتبع الباحث الخطوات المنهجية الآتية:

أولاً: معالجة علمائنا القدامى لأسلوب الحصر بـ "إن وإلا" و "ما وإلا".

ثانياً: الدراسة الإحصائية المتمثلة بالسؤال الآتي: أي حرفي النفي كان أكثر
اقتراناً بأداة الحصر "إلا" "إن" أم "ما"؟

ثالثاً: دلالة السياق وتتمثل في الآتي:

- دراسة ما يعقب جملة الحصر.

- دراسة انتظام جملة الحصر مع بناء السورة بشكل عام.

واضح أن هذه المسائل مثيرة للبحث نظراً لتشابهها، والشيء المثير فيها أن الفرق بين هذين الأسلوبين سيكشف لنا عن أمرين مهمين:

الأول: صفة إعجازية تضاف إلى القرآن من خلال أساليبه الدقيقة في الحصر، والدقة في كلام الله - سبحانه وتعالى - لا تختلف كثيراً عن الدقة في خلق السماء والأرض والشمس والقمر والكواكب، والبحار والجبال.... بل إن كل هذه الآيات المعجزة في دقتها ستدمر تدميراً ... ويبقى كلام الله - سبحانه وتعالى - محفوظاً...!

والصفة الإعجازية هنا مساحتها ليست صغيرة وإنما هي كبيرة. ففرق كبير بين صفة إعجازية في "مفردة لغوية" في موضع ما من القرآن الكريم وبين "تركيب لغوي" تداور استعماله في القرآن الكريم أكثر من "١٨٠" مرة في أسلوب الحصر بـ "ما وإلا" وأكثر من "١٠٠" مرة في أسلوب الحصر بـ "إن وإلا".

الثاني: خصيصة تركيبية جديدة: وتتمثل في أن هذا التركيب له خصيصة في الأداء أو في الاستعمال يمتاز بها عن التركيب الآخر. وبهذه المزية اكتسب القرآن تلك الصفة الإعجازية.

رابعاً: الصيغة: سواء أكانت اسماً أم فعلاً أم حرفاً. فمثال "الاسم": في قوله تعالى: ﴿لَمَّا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (يوسف، ٣١) فاسم الإشارة كما يقتضيه السياق يفيد تعظيم المشار إليه، ومثال "الفعل" في قوله تعالى: ﴿تَجَاوَزُوا عَلَىٰ مَلْأَيْنِ مِنَ الْإِنسَانِ إِنْ لَرَبِّكَ لَا بَصِيرَةٌ﴾ (النساء، ٦٢) فالفعل "يحفون" دال على القسم. والقسم يفيد القوة والتوكيد للحكم. ومثال "الحرف" في قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ (آل عمران، ٦٢) فمن الاستغرافية أفادت أيضاً التأكيد لـ "ما" النافية.

خامساً: طبيعة المقصور عليه في جملة الحصر تحدد معناها بدقة: فمثلاً في قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (الصافات، ٣٢) وفي كل آيات التوحيد المسبوقة بـ "لا" النافية. كان المقصور عليه أو المحصور فيه موصوف (اسم ذات) متمثلاً بلفظ الجلالة "الله" ولم يكن صفة ولو كان صفة لاختل معنى أسلوب الحصر في تأدية معنى التوحيد.

سادساً: أسباب النزول، أو الجو العام للآية التي وردت فيها جملة الحصر. ومحاولة تحديد الحال التي يكون عليها المخاطب. وقد حاول الباحث في تحليل جمل الحصر ربطها ما أمكن بالواقع المعاصر.

ولا يزعم الباحث أنه بلغ كثيراً مما تطمح إليه نفسه في هذه الدراسة، ولكن حسبه أنه بذل جهده ولم يدخر منه شيئاً، وكله أمل أن يكون لتوجيه أساتذته من علماء لغة القرآن الكريم ونحوها التوجيه والسداد، لاستدراك ما قد يفوت الباحث بهدف تطوير الدراسة وتحسينها إلى ما هو أفضل إن شاء الله تعالى.

وكعادة الباحثين يرى الباحث أن يتحدث عن الصعوبات التي

اعترضته في أثناء بحثه وسيذكرها بإيجاز للأسباب ثلاثة :

الأول : حتى يبقى متذكراً لفضل الله ونعمته عليه .

الثاني : تسلياً للباحثين وذلك حتى لا ييأسوا من مواصلة البحث

العلمي .

الثالث : أذكرها على سبيل الطرافة .

وأبرز هذه الصعوبات الآتي: -

أولاً : استقالة مشرفي من الجامعة وتركه لنا بعد سبعة أشهر أو أكثر .
ثانياً : انني لما هيات نفسي في عطلة الربيع " ومدتها أسبوعان " لأتفرغ
تفرغاً كاملاً للبحث والدراسة ثم اعتقالي لأمر لا تتعلق بي وإنما تتعلق
بغيري فقضيت العطلة كاملةً موقوفاً ، وبعد جلسات عديدة في المحكمة
حصلت على البراءة .

ونجم عن ذلك أنني تأخرت في التسجيل مما أدى إلى فقدانني مقعدي
الجامعي .

ثالثاً : مرض والدتي مرض الموت ثم وفاتها بعد شهرين تقريباً .
رابعاً : قبل أسبوعين تقريباً دخل عمي في غيبوبة بين الحياة والموت
استمرت أسبوعاً توفي بعدها وما له إلا ولدان أحدهما في اليابان والآخر
بأمريكا .

خامساً : وقبل ثلاثة أيام من وصولي إلى هذه المناقشة فجعت زوجتي
ب وفاة أمها ، وكانت تنتظر مثل هذا اليوم بصبر نافذ .
وبفضل الله سبحانه وتعالى وتعاون مشرفي فقد تذلل لي كل هذه
المصاعب لأصل إلى هذا اليوم .

فالיום أصل من الزحام لمناقشة هذا البحث عبر طريق وعرة ، تغص
بالآلام والأحزان . لأمسح هذه الغيمة الحزينة التي تغشت بيتنا فشردت
أرواحنا . ولأضيء شمعة فرح ساطعة تبديد هذه الأحزان وتمحوها ، إذ
من شأنها أن تكسبنا عزيمة أمضي وإصراراً أشد على المضي قدماً في
دروب الحياة ومنعطفاتها المعقدة .

وختاماً ، أتقدم من أستاذي الأستاذ الدكتور يوسف أبو العدوس -حفظه الله-
بالشكر الجزيل على تكريمه وقبوله الإشراف على هذه الرسالة وتبنيه
موضوعها، ولم يبخل عليّ بصادق نصحه وتوجيهه، وإرشاداته وتشجيعه
لي على المضي قدماً في طريق البحث.

وأنة لشرف عظيم أن يشارك في تقويم هذه الرسالة وتصويب ما وقع فيها من أخطاء علم بارز من علماء العربية وعلومها، الدكتور عودة أبو عودة وهو أحد المختصين بدراسة الإعجاز القرآني، وأتقدم من الدكتور ماجد الجعافرة بالشكر والتقدير؛ لتكرمه بمناقشة هذا البحث. وأشكر زملائي الذين شجعوني على المضي قدما في هذه الدراسة، وأخص بالذكر الأستاذ خالد فراج.

**وأطلي وأسلم على سيدنا محمد وعلى
آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن
الحمد لله رب العالمين**

بسم الله الرحمن الرحيم

أهمية البحث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد أنزل الله - سبحانه وتعالى - القرآن الكريم بلسان عربي مبين، فقال في محكم آياته: ﴿وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (١٩٣، الشعراء).

وبنزول القرآن الكريم باللسان العربي "برزت إلى الوجود ظاهرة لغوية فريدة في تاريخ علم اللغات أثارت اهتمام اللغويين القدامى".^(١) "وقد أدرك اللغويون القدامى أن لغة التنزيل هي لغة الخالق العظيم. وأنها ليست كلغة العوب أهل البيان والفصاحة، وأن لها خصائص عالية اكتسبت بها صفة الإعجاز".^(٢) ولقد أقبل الدارسون على القرآن ووجدوا في لغته أنماطاً جديدة من وجوه القول لم يهتد إليها العرب من قبل أن يتأدبوا بأدب القرآن الكريم.

وظل القرآن محور الدراسات الدينية واللغوية والنحوية والبلاغية في العالم الإسلامي. ونال من البحث والدراسة والفهم ما لم ينله أي كتاب آخر. وما يزال نبعاً مستمراً لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد.

ولهذا كله، ولأهمية القرآن الكريم، ولكونه نبعاً غنياً في اللغة والنحو فقد رأى الباحث أن تكون هذه الدراسة في أسلوب من أساليبه التي لم تبحث من قبل. وتحديدًا في أسلوبين من أساليب الحصر في القرآن الكريم. الأول: أسلوب الحصر بـ "إلا"، والثاني: أسلوب الحصر بـ "إنما" عند النحويين والبلاغيين.

(١) انظر الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، ص (١٩١).

(٢) في شرف العريضة، إبراهيم السامرائي، ص (٣٥).

إذ إن أسلوب الحصر في القرآن الكريم مادة غنية للدراسة العلمية نحويًا وبلاغيًا لترشد الدراسات القرآنية الأسلوبية الأخرى التي تناولت أساليبه قديماً وحديثاً.

وتهدف هذه الدراسة إلى كشف أسرار أسلوب الحصر ودقائقهما في القرآن الكريم. وهذا الهدف يتطلب دراسة فقه التراكيب أو فقه الدلالة أو فقه الأسلوب وتحليله، والمقصود بفقه الأسلوب دراسة المعنى الدقيق الذي يتضمنه هذا الأسلوب دراسة تتجاوز ظاهره إلى معناه.

"ومن المسلم به أن علم النحو وعلم المعاني درسا فقه التراكيب ودلالاتها. إلا أنه بالرغم من ذلك فإن كثيراً من مسائل التراكيب ما تزال دون نظر. وإن أكثر هذه المسائل لم تبحث لا في كتب النحو ولا في كتب البلاغة"^(١). ومن هذه التراكيب - على سبيل المثال - أسلوب الحصر في القرآن الكريم. فمسائل أسلوب الحصر في القرآن الكريم دقيقة ولافتة للنظر. والمتأمل في هذه المسائل يجد بينها فرقاً دقيقاً يمكن أن يلحظ من خلال دراسة هذا الأسلوب دراسة فقهية.

فمن المسائل الدقيقة المعدة للدراسة، التساؤل الآتي:

ما الفرق الدقيق بين أساليب الحصر الآتية:

﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾. (المائدة، ٧٣).

﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾. (آل عمران، ٦٢) و (ص، ٦٥).

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾. (الصافات، ٣٢).

اللافت للنظر في هذه الأساليب أنها وإن كانت دالة على معنى التوحيد إلا أنها ليست واحدة من حيث التركيب في تأديتها ذلك المعنى بل متنوعة. وهذا التنوع هو هدف البحث.

^(١) معاني النحو، فاضل السامرائي، ج ١، ص ٨.

ومن المسائل الدقيقة أيضاً الآية الآتية:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾. (طه، ٩٨).

اللافت للنظر في هذه الآية الكريمة أنها جمعت أسلوبين حصر في آية واحدة لتحقيق معنى التوحيد؛ الأول: **إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ** ، والثاني: **لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**. وهنا نتساءل: كيف جاء هذان الأسلوبان معاً في آية واحدة؟ وكيف تم الجمع بينهما؟

ومن المسائل الدقيقة أيضاً النماذج الآتية:

النموذج الأول: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. (الشعراء، ١١٥).

﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. (الأحقاف، ٩)

النموذج الثاني: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾. (ص، ٨٧).

﴿مَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾. (القلم، ٥٢).

النموذج الثالث: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. (الأنعام، ٢٥).

﴿مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. (الأحقاف، ١٧).

اللافت للنظر في هذه النماذج أن أسلوبين الحصر بـ "إن" و "إلا" و "ما" و "إلا" متشابهان من حيث أداة الحصر والمقصود والمقصود عليه. فالفرق بين هذين الأسلوبين هو اختلاف حرف النفي في كل منهما. وهنا يتبادر إلى الذهن التساؤلات الآتية: هل يمكن لهذه الأساليب أن تتبادل المواقع في القرآن الكريم نظراً لتشابهها؟ وهل يجوز أن يحل هذا الحرف مكان هذا الحرف؟ وهذا يقودنا إلى السؤال الكبير وهو: هل تترادف أساليب الحصر في القرآن الكريم؟ وإذا كان ثمة فرق بين هذين الأسلوبين فما هو الفرق الدقيق بينهما؟

الترادف في اللغة

"هو التتابع، والردف : الذي يركب خلف الراكب، والرديف كالردف، والردف ما تبع الشيء، وإذا تتابع شيء خلف شيء فهو الترادف (١). ويرى الباحث أن الترادف بمعنى التتابع يعني التقارب، والردف أو الرديف الذي يركب خلف الراكب يكون اقرب ما يكون من صاحبه .
اما الترادف اصطلاحاً:-

فأبكر اصطلاح يطالعنا له اصطلاح سيبويه (٢) إذ يقول فيه إنه ((اختلاف اللفظين والمعنى واحد .. مثل ذهب وانطلق)) . يمكن تسجيل الملاحظات الآتية على اصطلاح سيبويه:-

- ١- أي لفظين مختلفين في المبنى متحدتين في المعنى مترادفتان عنده. "فذهب" وانطلق" بمعنى واحد، "وقعد" و"جلس" بمعنى واحد أيضاً .
 - ٢- أي لفظين مختلفين في المبنى متحدتين في المعنى متطابقتان تطابقاً تاماً. وذلك لأن سيبويه لم يُشر إلى الفروق الدقيقة بين اللفظين .
 - ٣- أي لفظين مختلفين في المبنى متحدتين في المعنى يمكن أن يتبادلا المواقع فيما بينهما في أي سياق .
 - ٤- بناءً على ذلك، فسيبويه يعد من أبرز القائلين بالترادف .
- وإذا انتقلنا إلى الإمام الفخر الرازي (٣) نجده قد ضبط مصطلح الترادف ضبطاً دقيقاً إذ يقول فيه هو: ((الالفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد)) .
- ويلاحظ على اصطلاح الفخر الرازي أن الألفاظ المختلفة في المبنى الدالة على شيء واحد مترادفة بشرط هو: أن تكون هذه الألفاظ مفردة: وقوله مفردة، أي غير مركبة، ليست في جملة أو في سياق. فاللفظان القريبان من معنى واحد عندما يفردان يكونان مترادفين. ولكنهما عندما يركبان ويكون كل منهما سياقاً خاصاً فهما ليسا مترادفين .

(١) انظر المقاييس في اللغة مادة ردف ، ولسان العرب، وأساس البلاغة، والقاموس المحيط، والمعجم الوسيط.

(٢) للكتاب، ج ١، ص ٢٤.

(٣) المزهر في علوم العربية، ج ١، ص ٤٠٢.

وقد استوقفت ظاهرة الترادف علماء العربية. وانقسمت آراؤهم بشأنها وتعددت وقد ارجع الدكتور كمال بشر (١) كل ما اتي به اللغويون في هذه الظاهرة الى أربعة آراء.

ولعل سبب انقسام آراء العلماء بشأن هذه الظاهرة هو اختلاف وجهات نظرهم فيها. ويمكن ترتيب آرائهم حسب وجهات نظرهم على النحو الآتي :-

الرأي الأول : أصحاب هذا الرأي يقولون بالترادف ويجيزونه أبرزهم سيبويه (٢) ، وقطرب (٣).

ووجهة نظرهم أن العرب أوقعت اللفظين على المعنى الواحد ، ليدلوا على اتساعهم في كلامهم .

الرأي الثاني : ينكر بعض علماء العربية وجود الترادف إنكاراً تاماً وأبرزهم أبو علي الفارسي (٤) وابن درستويه (٥) أبو هلال العسكري (٦) ووجهة نظرهم أن لكل لفظ معناه الخاص به ، فلا توجد ألفاظ مترادفة .

الرأي الثالث : أصحاب هذا الرأي يؤمنون بالترادف بمعناه العام ، أي أن هذا اللفظ قريب معناه من هذا اللفظ من حيث العموم . " فقعد " و "جلس" لفظان مترادفان من حيث المعنى العام ، ولكنها على وجه الخصوص ليسا مترادفين " فقعد " ليس "جلس" إطلاقاً . إذ إن القعود لا يكون إلا عن قيام والجلوس لا يكون إلا عن اضطجاع .

وبناء على ذلك فأصحاب هذا الرأي لا يعنون بالترادف التطابق التام في المعنى بين الألفاظ المفردة ، وإنما يعنون به التقارب في المعنى ، فالترادف بمعناه المطلق غير موجود وأبرز أصحاب هذا الرأي ابن فارس (٧) وابن الأعرابي (٨) و ثعلب (٩) والفخر الرازي (١٠) . ووجهة نظرهم أن اللفظين قد يكونان قريبين من المعنى العام لكنهما ليسا بمعنى واحد مطلقاً .

(١) انظر دور الكلمة، ص ١٠٥.

(٢) انظر الكتاب، ج ١، ص ٢٤.

(٣) انظر المصدر السابق، ج ١، ص ٤٠٠.

(٤) انظر المزهري، ج ١، ص ٤٠٥.

(٥) انظر المصدر السابق، ج ١، ص ٣٨٤-٣٨٥.

(٦) انظر الفروق اللغوية، ص ٢٨.

(٧) انظر الصحاح في لغة اللغة، ص ٩٩، ٤٤.

(٩) انظر المصدر السابق، ج ١، ص ٤٠٣.

(٨) انظر المزهري، ج ١، ص ٣٩٩-٤٠٠.

(١٠) انظر المصدر السابق، ج ١، ص ٤٠٢.

الرأي الرابع : يقسم الدكتور كمال بشر (١) أصحاب هذا الرأي الى قسمين فيقول : يرى جماعة من العلماء أن ما يسمى بالترادف يمكن تقسيمه قسمين : قسم سمته هذه الجماعة بالترادف وعرفوه بأنه " إقامة لفظ مقام لفظ آخر في معنى عام واحد يجمعها جميعاً - وأمثلتهم على ذلك : " لم الشعث ، ورتق الفتق ، وأصلح الفاسد" (٢) .

ويعلق الدكتور كمال بشر (٣) على تعريفهم فيقول : " وهذه الأمثلة تدلنا على أن المراد بالألفاظ في التعريف الذي ساقوه إنما هي العبارات والجمل لا الكلمات المفردة . ويؤخذ من كلامهم أيضاً أن الترادف عندهم يقابل ما يمكن أن يسمى عندنا بالجمل التفسيرية أو البيانية " .

أما القسم الثاني : فيسمونه بالمتوارد (٤)؛ وذلك يتحقق حين تضع أكثر من اسم للذات الواحدة والشيء الواحد ، كأن تسمي الأسد بالسبع والهزبر والليث ، وواضح من هذه الأمثلة أن ما يسمى بالمتوارد عندهم يقابل المترادف عند غيرهم .

أما المحدثون من علماء العربية فقد استوقفهم ظاهرة الترادف ، وانطلقوا في بحثهم هذه الظاهرة من أساس : أن الاختلاف في المبنى يقتضي اختلافاً في المعنى ، واللفظ وإن كان قريباً في المعنى من لفظ آخر ، فلا بد من فروق بينهما مهما خفيت ، لأن دلالة الألفاظ ومعانيها لا ينظر لها من زاوية واحدة ، هي زاوية المعجم ، بل ينظر لمعنى اللفظ من زوايا أخرى تحيط به كالمعنى الاجتماعي ، والنفسي الإيحائي ، والسياقي الاستعمالي .

(١) دور الكلمة، ص ١٠٥ .

(٢) انظر الألفاظ الكتابية، ص ١٣-١٤، ودور الكلمة، ص ١٠٥ .

(٣) دور الكلمة، ص ١٠٥ .

(٤) المصدر السابق، ص ١٠٥ .

وأبرز هؤلاء المحدثين : علي الجارم (١) ، وأحمد أمين (٢) ، وإبراهيم أنيس (٣) وعائشة عبد الرحمن (٤) -بنت الشاطي- وأحمد مختار عمر (٥) ، ومن أبرز المستشرقين واللغويين الغربيين : ستيفين أولمان (٦) الذي يقول : "الترادف هو ألفاظ متحدة المعنى وقابلة للتبادل فيما بينهما في أي سياق "

ويمكن القول : إن آراء المحدثين تتفق مع الرأي الثالث لعلماء اللغة القدامى الذي ذكرناه سابقاً ، وإن رأي أولمان يتفق مع الفخر الرازي (٧) الذي يرى الترادف هو "الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد".

وقد كان لآراء المحدثين من علماء العربية صدى في مجمع اللغة العربية في القاهرة. فقد قرر في شأن المترادفات " أن يعني كل العناية بتبيان الفروق الدلالية بين الكلمات ما أمكن ، بحيث يتحدد المعنى الدقيق لكل كلمة ، وبذلك يتم تضيق دائرة المترادفات " (٨). وبعد هذا العرض الموجز لظاهرة الترادف قديماً وحديثاً نأتى إلى الغرض الذي من أجله سقنا هذا الموضوع . وهو : هل هناك ترادف في الألفاظ في القرآن الكريم ؟ وهل هناك ترادف في أساليبه اللغوية ؟

من أبرز القائلين بالترادف في القرآن الكريم الدكتور إبراهيم أنيس (٩). ((إذ يرى أن الترادف لا يكاد يوجد في اللهجات العربية القديمة ، وإنما يمكن أن يلتمس في اللغة النموذجية الأدبية. وقد مثل للغة النموذجية الأدبية بالقرآن الكريم حيث يقول (١٠) ((ففي القرآن الكريم نرى الترادف في بعض الألفاظ)).

(١) انظر الترادف، ج ٨، ص ٣٠٤-٣٣١.

(٢) انظر جمع اللغة العربية، ص ٢١١.

(٣) انظر، في اللهجات العربية، ص ١٧٨-١٧٩.

(٤) انظر الإعجاز البياني، ص ٢٣٢.

(٥) انظر ظاهرة الترادف، ص ١٩-٢٠.

(٦) دور الكلمة، ص ٩٨.

(٧) المزهج، ج ١، ص ٤٠٢.

(٨) كتاب في أصول اللغة، ص ٧٢.

(٩) انظر في اللهجات العربية، ص ١٥.

(١٠) المصدر السابق، ص ١٦.

ويسوق الدكتور إبراهيم أنيس (١) بعض الآيات التي يبرهن فيها على وقوع الترادف في بعض الالفاظ في القرآن الكريم وهي :-
١- حضر و جاء . ويمثلها قوله تعالى: ((**حتى إذا حضر أحدهم الموت**))
(النساء، ١٨)

و((**حتى إذا جاء أحدكم الموت**)) (الأنعام، ٦١)
٢- النار و الجحيم . ويمثلها قوله تعالى: ((**ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين**)) (آل عمران، ١٥١)

و((**فإن الجحيم هي المأوى**)) (النازعات، ٣٩)
٣- أقسم و حلف . ويمثلها قوله تعالى: ((**واقسموا بالله جهد أيمانهم**))
(الأنعام، ١٠٩)

و((**ثم جاءوا يملفون بالله**)) (النساء، ٦٢)
وقد اعترض الدكتور عودة أبو عودة (٢) على رأي الدكتور إبراهيم أنيس وأمثله التي عرضها من جهتين :-

الأولى: من حيث العموم، وذلك من خلال دراسة له يقول فيها: ((تبيّن لسي أن كثيراً مما كان يعد في الشعر الجاهلي من المترادفات لم يعد له وجود في القرآن الكريم. وقد اجتهدت في ذكر كثير من الأمثلة من الآيات القرآنية التي تدل دلالة واضحة على أن كل كلمة في القرآن الكريم تحمل معنى غير الذي تحمله الكلمات الأخرى التي يظن أنها مرادفة لها، وقد اعتمدت في ذلك على إجماع الآيات القرآنية الكريمة التي تورد المادة اللغوية للمعني المعين)).
ويرى الباحث أن نتيجة الدكتور عودة قيمة إذ تعني أن القرآن الكريم أكسب اللغة العربية دقة في تحديد معاني ألفاظها. مما منع من انتشار الفوضى اللغوية في هذه الألفاظ، وهو ما تنبّه إليه علماء اللغة المحدثون .

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٦.

(٢) الترادف في اللغة، ص ١٧٣-١٧٤.

الثانية: من حيث الخصوص. إذ يَرُدُّ على الأمثلة التي ساقها الدكتور إبراهيم أنيس ويقول فيها بإيجاز: ((إن في جاء الموت معنى ليس في مصطلح حضر الموت. فالمصطلح الأول: يعني موت الفجاءة الذي لا يملك الإنسان معه شيئاً، أو هو السكنة القلبية كما يقال اليوم، أما تعبير حضر الموت فهو الموت البطئ الذي يملك الإنسان معه نفسه فيستطيع أن يوصي أصحابه وأهله، وإن يتدبر أمره، وأن يستغفر عن ذنوبه، وإن يتوب إن شاء، ويعذل من سيرته)) (١).

((وإما النار فهي الاسم العلم على مقر العذاب الذي أعده الله لمن اعرض عن عبادته ولمن أشرك به، وقد وردت صفات للنار مثل جهنم والجحيم والسعير وسقر ولظى والهوية والحطمة والغاشية .

والجحيم مأخوذة من جَحُمَت النار إذا اضطربت ، والنار الجاحمة هي الشديدة المضطربة ، فهي إذن تصور شدة الحرارة وهول الإضراب في النار اللاهبة " (٢).

" وقد فرّق القرآن الكريم بين الحلف والقسم في الدلالة — فقد استعمل فعل " حلف " وما يشتق منه في معرض اليمين الكاذب الذي يصدر عن أناس منافقين أو غير ملتزمين بإيمانهم ، بينما لم ترد مادة " أقسم " في القرآن الكريم إلا في معرض الصدق الصّراح ، وغالباً ما أسند القسم إلى الله عز وجل" (٣) ويُدلّل الدكتور عودة (٤) بآيات من القرآن الكريم نذكر منها قوله تعالى : فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة إيمانكم إذا حلفتم " (المائدة ، ٨٩)

" ولا تطع كل حلاف مهين " (القلم ، ١٠)

" فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسيم لو تعلمون عظيم " (الواقعة ، ٧٥-٧٩)

" فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون " (الحاقة ، ٣٨-٣٩)

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٧٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٧٣.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٧٣.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ١٧٣.

ويصل الدكتور عودة أبو عودة الى نتيجة مفادها : أن الترادف في القرآن الكريم غير موجود بلا شروط وبلا حدود ، إذ يقول (١) "ليس في القرآن الكريم ترادف أبداً ، إن لكل كلمة في القرآن الكريم معناها المحدد ودورها المرسوم فسي إكمال بناء الإعجاز القرآني لفظاً ومعنى . فالكلمة في القرآن الكريم يراد لفظها ومعناها في وحدة واحدة لا تنقسم أبداً "

وإلى مثل هذه النتيجة توصل أحد الباحثين في بحثه الألفاظ العسكرية المتقاربة في المعنى في القرآن الكريم فقال(٢): " لا ترادف في القرآن الكريم ، إذ إن القرآن الكريم ينتخب ألفاظه انتخاباً وينتقيها انتقاءً بحيث لا نستطيع إطلاقاً أن نضع لفظه مكان أخرى مما نحسب أنها تماثلها ، لما لكل لفظه من خصوصية في الدلالة والاستعمال والاشتقاق ، والأصل اللغوي ، والموسيقى ، والإيحاء ، والبيئة التي نشأت فيها ، والعصر الذي استعملت فيه " .

وبعد ذلك كله ، فالدراسات التي بحثت ألفاظ القرآن الكريم بحثاً دلاليًا أثبتت في أبرز نتائجها أن الألفاظ المتقاربة في المعنى لا تترادف في القرآن الكريم . و الباحث في بحثه أسلوب الحصر يريد أن يجيب عن السؤال الذي طرحه في معرض حديثه عن أهمية البحث و هو: هل تترادف أساليب الحصر في القرآن الكريم نظراً لتشابهها ؟

(١) الترادف في اللغة، ص ١٧٢.

(٢) الألفاظ العسكرية، القرآن الكريم ، خالد فراج ، ص ١٨٩.

خطة البحث

وقد اعتمدت هذه الدراسة على استيفاء مادتها من طريقتين:

الأول: القرآن الكريم: إذ يتطلب ذلك قراءة آياته واستخراج أسلوبه الحصري منها ورصدها وتبويبها.

الثاني: ويتمثل في المحاور الأربعة الآتية:

المحور الأول: أمهات مصادر اللغة والنحو العربي؛ من معاجم لغوية، وكتب النحو وشروحاتها وحواشيها، وكتب الحروف ومعانيها.

المحور الثاني: مصادر البلاغة القديمة؛ من كتبها وشروحاتها وحواشيها ومختصراتها.

المحور الثالث: كتب إعراب القرآن الكريم وتفسيره وقراءاته وعلومه ومعانيه وإعجازه.

المحور الرابع: الدراسات القرآنية الحديثة، وما يتعلق منسها بدراسة أساليب القرآن الكريم.

وقد انتظمت هذه الدراسة في هيكل تنظيمي قائم على مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول. حاولت المقدمة بحث العلاقة بين علم النحو وعلم المعاني بهدف توثيق الصلة بين علم النحو وعلم المعاني، وبيان أن العلمين كالجسد والروح. فلا يمكن بحال فصل أحدهما عن الآخر. فالنحو أو التركيب كالجسد وعلم المعاني هو الروح التي تحيي هذا الجسد. فمثلاً سيبيويه أمام النحويين عندما بحث تركيب الحصر لم يغفل عن المعنى الذي يؤديه هذا التركيب، وهذه دلالة على أن النحو درس فقه التركيب.

وتناول التمهيد الحصر في الدراسات النحوية والبلاغية السابقة بهدف تتبع تطور مفهوم الحصر في بيتي النحويين والبلاغيين. والغرض من بحث هذا التطور الربط بين النحويين والبلاغيين في النظر إلى مفهوم الحصر. وعدم اقتصار هذا المفهوم على هذه البيئة دون الأخرى، لأن في هذا الاقتصار تضيقاً

لمفهوم الحصر وتجميداً لفهم تراكيبه التي تتضمن مسائل كثيرة غنية بالمعاني الدقيقة.

وحاول الفصل الأول تحقيق الأهداف الآتية:

الأول: تحديد مصطلح الحصر؛ لأن هذا الأسلوب يتميز بوفرة مصطلحاته. إذ تتراحم في كتب النحو والبلاغة العربية ثلاثة ألفاظ تدور في هذا الأسلوب وهي الحصر، والقصر، والاختصاص أو التخصيص. أمّا الحصر فاشتهر في بيئة النحويين. وأما القصر والاختصاص فاشتهر في بيئة البلاغيين.

والغرض من تحديد المصطلح ليس انتصاراً لمصطلح النحويين أو لمصطلح البلاغيين. وإنما الغرض منه تصحيح مسار البحث في أسلوب الحصر.

الثاني: التعريف الاصطلاحي للحصر عند النحويين والبلاغيين إذ إن هذا التعريف يمثل الأساس الذي اشتق منه البلاغيون أقسام الحصر.

الثالث: التعريف بأقسام الحصر من الوجهة البلاغية: وأقسام الحصر هذه مشتقة من التعريف الاصطلاحي، وهذا التعريف أصله نحوي. إلا أن البلاغيين تناولوا المفهوم النحوي للحصر، ووضعوه في إطار تعريفي فني، ومنه اشتقوا له أقساماً وأطرافاً. ولم يكتفوا بذلك بل جروا في تقسيمه باعتبارات تصل إلى حد التعقيد والإملاط. إذ إن التوسع في هذا التقسيم لم يضيف شيئاً جديداً ذا بال إلى البلاغة العربية، بقدر ما كان جرياً وراء النزعة المنطقية في تحصيل المصطلحات الجديدة لهذا العلم. والهدف من بحث أقسام الحصر الوقوف على ما قاله البلاغيون قديماً وحديثاً بشأن هذه الأقسام التي لم يكن غرضهم منها سوى تصنيف أساليب الحصر في الكلام العربي ضمن هذه الأقسام. والباحث وإن كان سيورد أمثلة قرآنية من أساليب الحصر، وتمثيلها في هذه الأقسام. إلا أن مثل هذا الغرض ليس جوهرياً لدى الباحث.

وحاول الفصل الثاني بحث أسلوب الحصر عند النحويين والبلاغيين.

ففي بحثه أسلوبي الحصر عند النحويين يهدف إلى تأصيل أداة الحصر "إلا"
المسبوقة بنفي أو شبهه، وعرض الأدلة على أن "إنما" و "أنما" أداتا حصر، ومن
ثم عرض التراكيب النحوية الدالة على الحصر في القرآن الكريم بمختلف
أنواعها وتراكيبها على النحو الآتي :

- باعتبار ما بعد "إلا".

- باعتبار طرق النفي في التراكيب النحوية الدالة على الحصر بالأداة "إلا".

- باعتبار ما بعد "إنما" و "أنما".

وكما هو واضح فمن شأن بحث أسلوبي الحصر عند النحويين توسيع
دائرة التراكيب النحوية الداخلة ضمن هذا الأسلوب.

أمّا في بحثه أسلوبي الحصر عند البلاغيين فيهدف إلى عرضهما بما
قرره البلاغيون على رأسهم شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني من اعتبار "لحال
المخاطب" وذلك من خلال أمثلة من القرآن الكريم.

وجوهر البحث أو ما يمثل الجدة فيه يتجسد في الفصل الثالث الذي
تناول دقائق في أسلوب الحصر، وهذه الدقائق تمثل مسائل من تراكيب الحصر
التي سبق عرضها في هذا الملخص.

ومنهج الباحث في هذه الدراسة يقوم على الوصف المقترن بالتحليل.
فقد قام الباحث بتحديد الظاهرة المدروسة أولاً ووصفها وتحليلها.
فمثلاً في الفصل الثالث في دراسة الفرق بين أسلوبي الحصر بـ "إن
وإلا" و "ما وإلا" اتبع الباحث الخطوات المنهجية الآتية:

أولاً: معالجة علمائنا القدامى لأسلوبي الحصر بـ "إن وإلا" و "ما وإلا".

ثانياً: الدراسة الإحصائية المتمثلة بالسؤال الآتي: أي حرفي النفي كان أكثر
اقتراناً بأداة الحصر "إلا" "إن" أم "ما"؟

ثالثاً: دلالة السياق وتتمثل في الآتي:

- دراسة ما يعقب جملة الحصر.

- دراسة انتظام جملة الحصر مع بناء السورة بشكل عام.

رابعاً: الصيغة: سواء أكانت اسماً أم فعلاً أم حرفاً. فمثال "الاسم": في قوله تعالى: ﴿لَمَّا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (يوسف، ٣١) فاسم الإشارة كما يقتضيه السياق يفيد تعظيم المشار إليه، ومثال "الفعل" في قوله تعالى: ﴿لَجَآؤُوكُمْ يُخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ (النساء، ٦٢) فالفعل "يخلفون" دال على القسم. والقسم يفيد القوة والتوكيد للحكم. ومثال "الحرف" في قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ (آل عمران، ٦٢) فمن الاستغراقية أفادت أيضاً التأكيد لـ "ما" النافية.

خامساً: طبيعة المقصور عليه في جملة الحصر تحدد معناها بدقة: فمثلاً في قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (الصفافات، ٣٢) وفي كل آيات التوحيد المسبوقة بـ "لا" النافية. كان المقصور عليه أو المحصور فيه موصوف (اسم ذات) متمثلاً بلفظ الجلالة "الله" ولم يكن صفة ولو كان صفة لاختل معنى أسلوب الحصر في تأدية معنى التوحيد.

سادساً: أسباب النزول، أو الجو العام للآية التي وردت فيها جملة الحصر. ومحاولة تحديد الحال التي يكون عليها المخاطب. وقد حاول الباحث في تحليل جمل الحصر ربطها ما أمكن بالواقع المعاصر.

ولا يزعم الباحث أنه بلغ كثيراً مما تطمح إليه نفسه في هذه الدراسة، ولكن حسبه أنه بذل جهده ولم يدخر منه شيئاً، وكله أمل أن يكون لتوجيه أساتذته من علماء لغة القرآن الكريم ونحوها التوجيه والسداد، لاستدراك ما قد يفوت الباحث بهدف تطوير الدراسة وتحسينها إلى ما هو أفضل إن شاء الله تعالى.

وكعادة الباحثين: يرى الباحث أن يتحدث عن الصعوبات التي اعترضته في أثناء بحثه وسيذكرها بإيجاز للأسباب ثلاثة :

الأول : حتى يبقى متذكراً لفضل الله ونعمته عليه .

الثاني : تسلياً للباحثين وذلك حتى لا يياسوا من مواصلة البحث

العلمي .

الثالث : أذكرها على سبيل الطرافة .

وأبرز هذه الصعوبات الآتي: -

أولاً : استقالة مشرفي من الجامعة وتركه لنا بعد سبعة أشهر أو أكثر .
ثانياً : انني لما هيات نفسي في عطلة الربيع " ومدتها أسبوعان " لأتفرغ
تفرغاً كاملاً للبحث والدراسة تم اعتقالي لأمر لا تتعلق بي وإنما تتعلق
بغيري فقضيت العطلة كاملة موقوفاً ، وبعد جلسات عديدة في المحكمة
حصلت على البراءة .

ونجم عن ذلك أنني تأخرت في التسجيل مما أدى إلى فقدانني مقعدي
الجامعي .

ثالثاً : مرض والدتي مرض الموت ثم وفاتها بعد شهرين تقريباً .
رابعاً : قبل أسبوعين تقريباً دخل عمي في غيبوبة بين الحياة والموت
استمرت أسبوعاً توفي بعدها وما له إلا ولدان أحدهما في اليابان والآخر
بأمريكا .

خامساً : وقبل ثلاثة أيام من وصولي إلى هذه المناقشة فجعت زوجتي
ب وفاة أمها ، وكانت تنتظر مثل هذا اليوم بصبر نافذ .
وبفضل الله سبحانه وتعالى وتعاون مشرفي فقد تذلل لي كل هذه
المصاعب لأصل إلى هذا اليوم .

فالיום أصل من الزحام لمناقشة هذا البحث عبر طريق وعرة ، تغص
بالآلام والأحزان . لأمسح هذه الغيمة الحزينة التي تغشت ببيتنا فشردت
أرواحنا . ولأضيء شمعة فرح ساطعة تبدد هذه الأحزان وتمحوها ، إذ
من شأنها أن تكسبنا عزيمة أمضي وإصراراً أشد على المضي قدماً فسي
دروب الحياة ومنعطقاتها المعقدة .

وختاماً ، أتقدم من أستاذي الأستاذ الدكتور يوسف أبو العدوس -حفظه الله-
بالشكر الجزيل على تكريمه وقبوله الإشراف على هذه الرسالة وتبنيه
موضوعها، ولم ييخل علي بصادق نصحه وتوجيهه، وإرشاداته وتشجيعه
لي على المضي قدماً في طريق البحث.

وأنه لشرف عظيم أن يشارك في تقويم هذه الرسالة وتصويب ما
وقع فيها من أخطاء علم بارز من علماء العربية وعلومها،
الدكتور عودة أبو عودة وهو أحد المختصين بدراسة الإعجاز
القرآني، وأتقدم من الدكتور ماجد الجعافرة بالشكر والتقدير؛
لتكرمه بمناقشة هذا البحث، وأشكر زملائي الذين شجعوني على
المضي قدما في هذه الدراسة، وأخص بالذكر الأستاذ خالد فراج.

وأصلي وأسلم على سيدنا محمد وعلى
آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن
الحمد لله رب العالمين

علاقة النحو بعلم المعاني

من أبرز التعريفات لعلم النحو تعريف ابن جني إذ يقول ^(١). فيه: "هو انتحاء سمت ^(*) كلام العرب، في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية، والجمع، والتحقيق ^(**)، والتكسير، والإضافة، والنسب، والتركيب وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها من الفصاحة، فينطق بها وإن لم يكن منهم؛ وإن شذ بعضهم عنها ردّ به إليها".

يلحظ أن ابن جني عرّف الجانب العملي للنحو وهو بذلك تجاوز الجانب العلمي النظري له، ولعله يرى أن الهدف من النحو ليس نظرياً في قواعد تحفظ إنما هو عملي تطبيقي يتمثل في انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره....

ويلحظ في تعريف ابن جني أن النحو ينقسم إلى قسمين:
الأول: الإعراب: وقد أطلق على "النحو" ^(٢)، ويعني "اختلاف أواخر الكلم للإبانة عن معانيها" ^(٣) وقد مثل له ابن جني بقوله: "هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره...".

الثاني: الصرف: "وهو تغيير خاص في بنية الكلمة لغرض معنوي أو لفظي" ^(٤). وقد مثل له ابن جني بقوله: "التثنية، والجمع، والتحقيق، والتكسير، والإضافة والنسب...".

(١) الخصائص: ابن جني، ج ١، ص (٣٤).

(*) السمت: الطريق: القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ص ١٩٧.

(**) التحقيق: التصغير. قال ابن يعيش: "اعلم أن التصغير والتحقيق واحد... وتصغير الاسم دليل على صغر مسماه...". شرح المفصل، ابن يعيش، ج ٥، ص (١١٣).

(٢) انظر شرح المفصل، ابن يعيش، ج ١، ص (١١) و (١٧): وانظر من المحدثين جامع الدروس العربية، الشيخ مصطفى الغلاييني، ج ١، ص ٩.

(٣) شرح المفصل، ابن يعيش، ج ١، ص (١١).

(٤) شرح التصريح، الشيخ خالد الأزهرى ج ٢، ص ٣٥٦.

واضح أن ابن جني جمع علمي النحو (أو ما يسمى بعلم الإعراب) والصرف في علم واحد أسماء "النحو"، وهما في حقيقة الأمر مختلفان من حيث البحث في الكلام العربي، فالنحو يبحث التغير في أواخر الكلم بينما يبحث الصرف التغير في بنية الكلمة. وكان من الطبيعي والحال هذه أن يفصل العلمان أحدهما عن الآخر، ويستقل كل منهما عن الآخر ويظهر ذلك جلياً في تعريف النحويين المتأخرين. إلا أنه بقي يجمع علمي الصرف والنحو اسم واحد وهو النحو وفي ذلك يقول الشيخ الغلاييني^(١) في تعريف علوم العربية: والصرف والإعراب وجميعهما اسم النحو،...

والنحو - علماً مستقلاً - كما عرفه النحويون "علم يبحث فيه عن أحوال أواخر الكلم إعراباً وبناءاً"^(٢)، أي: "من حيث ما يعرض لها في حال تركيبها، فبه تعرف ما يجب عليه أن يكون آخر الكلمة من رفع، أو نصب، أو جر، أو جزم، أو لزوم حالة واحدة بعد انتظامها في الجملة"^(٣). أو كما يقول السيد أحمد الهاشمي^(٤): "هو قواعد يعرف بها أحوال أواخر الكلمات العربية التي حصلت بتركيب بعضها مع بعض من إعراب وبناء...".

واضح أن النحو قانون يختص بدراسة تأليف الكلام وتركيبه، وهذا القانون مستمد من كلام العرب.

وفي غاية النحو: يقول ابن جني^(٥): "... ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها من الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم؛ وإن شذ بعضهم عنها ردّ به إليها" نلاحظ أن النحو عند ابن جني قانون نستطيع من خلاله أن نعرف الفصيح من الشاذ في كلام ممن يريد اللحاق بأهل اللغة العربية فينطق بها. وتتضح هذه الغاية عند السيوطي في تعريفه للنحو إذ يقول^(٦) فيه بأنه: "صناعة علمية يعرف

(١) جامع الدروس العربية، الشيخ مصطفى الغلاييني، ج ١، ص ٨.

(٢) حاشية الصبان على شرح الأشموني، ج ١، ص ١٦.

(٣) جامع الدروس العربية، الشيخ مصطفى الغلاييني، ج ١، ص ٩.

(٤) القواعد الأساسية للغة العربية، ص ٦.

(٥) الخصائص، ابن جني، ج ١، ص ٣٤.

(٦) الاقتراح في علم أصول النحو، ص ٦.

بها أحوال كلام العرب من جهة ما يصح وما يفسد في التأليف، ليعرف الصحيح من الفاسد".

نخلص من ذلك كله إلى أن النحو علم يختص بدراسة تأليف الكلام وتركيبه من حيث الصحة والفساد.

أمّا علم المعاني : فقد اطلق هذا المصطلح على الموضوعات التي سماها عبدالقاهر الجرجاني "النظم" او "معاني النحو"

وقد عرف الجرجاني "النظم" بأنه : "تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض"^(١)، أو "هو توخي معاني النحو"^(٢).

وقد أرسى عبدالقاهر الجرجاني بالنظم اصول "علم المعاني" ، يتضح ذلك في قوله^(٣): "واعلم ان ليس النظم الا ان تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل عى قوانينه، واصلوه وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشي منها".

وقد فصل عبدالقاهر الجرجاني موضوعات "علم المعاني" كالفصل والفصل، والتعريف والتذكير، والتقديم والتأخير، والحذف والتكرار، والاضمار والاطهار.

وعندما جاء السكاكي^(٤) وضع في "المفتاح" حدود هذا العلم، وسمّاه "علم المعاني". وهكذا تطور علم النظم ليصبح علم المعاني. وجاء في تحديد السكاكي له بأنه: "هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، يتحرز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره .

(١) دلائل، عبدالقاهر الجرجاني، ص(٣٨)

(٢) دلائل الاعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، ص(٢٥٥)

(٣) المصدر السابق ، ص (٢٥٥)

(٤) مفتاح العلوم السكاكي ، ص (٧٠)

وبعد السكاكي شاع مصطلح "علم المعاني" وانتشر إلى يومنا هذا في مجال البحث البلاغي وبقي ضمن تحديد عبدالقاهر الجرجاني والسكاكي. فمثلاً: يعرف الشيخ أحمد المراغي^(١) "علم المعاني" فيقول: "هو قواعد يعرف بها كيفية مطابقة الكلام مقتضى الحال حتى يكون وفق الغرض الذي سيق له، فيه تحترز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد، فنعرف السبب الذي يدعو إلى التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والإيجاز حيناً والإطناب آخر، والفصل والوصل إلى غير ذلك".

أمّا الغاية من علم المعاني فهي التفريق بين جيد الكلام وريئه، أو دراسة التراكيب من حيث الحسن والقبح^(٢).

وبعد هذا التعريف لكل من علمي النحو والمعاني نجد أن هناك صلة وثيقة بين العلمين، تتضح هذه الصلة بتعريف عبدالقاهر الجرجاني للنظم - أو ما سُمي في ما بعد بعلم المعاني - بأنه أن تضع الكلام الوضع الذي يقتضيه علم النحو^(٣)، أو هو توخي معاني النحو^(٤).

والمقصود بذلك أن علم النحو أساس علم المعاني، أو هو الأرضية التي نطلق منها لفهم علم المعاني. إذ إن فهم علم المعاني يسبق فهم علم النحو، أو أن فهم المعنى مرتبط بفهم التركيب أولاً - وإن كان المعنى في الذهن أو في النفس أسبق من التركيب الذي يحتويه إلا أننا نتحدث عن التركيب كعلم - وعلى هذا الأساس يصبح العلمان كالجسد والروح إذ لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر. فالنحو أو التركيب هو الجسد، وعلم المعاني هو الروح الذي يحيي هذا الجسد.

(١) علوم البلاغة، أحمد المراغي، ص (٤٢)

(٢) انظر: جواهر البلاغة، السيد أحمد الهاشمي، ص (٤٧)، وعلوم البلاغة، أحمد المراغي، ص (٤٢-٤٣)

(٣) دلائل الأعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، ص (٥٥)

(٤) دلائل الأعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، ص (٢٥٥)

وعلى الرغم من شدة الصلة والقرب بين العلمين فإنهما مختلفان في طريقة البحث، فعلم المعاني وإن كان قريباً من النحو أو هو توحي معاني النحو فإنه يختلف عن علم النحو في معالجة الموضوعات

ولو افترضنا أن نحوياً وبلاغياً وقفنا أمام قوله تعالى ﴿ **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ وَكُنْتُمْ أَهْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّنْكُمْ ثُمَّ يَحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ (البقرة، ٢٨)

فالنحوي يحكم بأن : **كَيْفَ** : اسم استفهام مبني على الفتح ، في محل نصب حال ...، ولو قرأ أحدهم قوله تعالى : **تَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ كَيْفَ** ؟. هنا يتدخل النحوي ويحكم بأن جملة : **تَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ كَيْفَ** ؟. قد خالفت نظام التركيب في الجملة العربية ؛ إذ يتعين أن نتقدم الحال وجوباً على عاملها ؛ لأنها تمثلت باسم استفهام من حقه صدارة الجملة .

أما البلاغي فلا يبحث في ذلك : أي لا يبحث في نظام التركيب في الجملة العربية ، ولا في أعرابها . وإنما يبحث في ما يخرج إليه هذا التركيب من معنى . ففي قوله تعالى : **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ..؟** يرى البلاغي أن الاستفهام في **كَيْفَ** ليس حقيقياً ؛ أي لم يستفهم بـ **كَيْفَ** للحصول على معلومة ما ، أو طلب الفهم ، أو الاستخبار عن شيء . وإنما استفهام بلاغي خرج عن الحقيقة ، إلى معنى شديد التعلق بالمخاطب . فالبلاغي يرى أن الاستفهام في **كَيْفَ** استفهام توبيخي الغرض منه توبيخ المخاطب ، والتعجب من فعلته القبيحة ؛ إذ كيف يكفر بالله ؟ وهذه أنعم الله بادية عليه .!!!

هذا هو منهج كل من ؛ النحوي والبلاغي . النحوي يدرس التركيب ، والبلاغي يدرس المعنى . ولكن هذا لا يعني بحال أن النحوي لم يدرس معاني التراكيب أو معاني النحو ، ولا يعني أيضاً أن البلاغي قد استوعب معاني النحو .

"فمن المسلم به ان علم النحو وعلم المعاني درسا فقه التراكيب ودلالاتها. الا انه وبالرغم من ذلك؛ فان كثيرا من مسائل التراكيب ما تزال دون نظر، وان اكثر هذه المسائل لم تبحث لا في كتب النحو ولا في كتب البلاغة"^(١)
ومن هذه التراكيب — على سبيل المثال — اسلوب الحصري في القرآن الكريم
فمسائل اسلوب الحصري في القرآن الكريم دقيقة ولافتة للنظر.

(١) انظر معاني النحو، فاضل السامرائي، ج. ١، ص ٨

تمهيد

الحصر في الدراسات النحوية والبلاغية

تحدث سيبويه عن الحصر بـ "إلا" من حيث مفهوم الحصر وكان حديثه عنه واضحاً جلياً، وإن لم يصطلح عليه بلفظ "الحصر" إذ يقول^(١): "فأما الوجه الذي يكون فيه الاسم بمنزلته قبل أن تلحق "إلا" فهو أن تدخل الاسم في شيء تنفي عنه سواء، وذلك قوله: ما أتاني إلا زيد، وما لقيت إلا زيدا، وما مررت إلا بزيد، تجري الاسم مجراه إذا قلت: ما أتاني زيد، وما لقيت زيدا، وما مررت بزيد، ولكنك أدخلت "إلا" لتوجب الأفعال لهذه الأسماء ولتنفي ما سواها، فصارت هذه الأسماء مستثناة".

واضح تماماً أن سيبويه هنا وضع حجر الأساس للمعنى الاصطلاحي للحصر بقوله: "... فهو أن تدخل الاسم في شيء تنفي عنه ما سواه...، وسيبويه هنا يتحدث عن المسألة العملية التطبيقية لبناء جملة الحصر. فهو يقول: "... أن تدخل الاسم في شيء" وفي قوله هذا يلحظ أن سيبويه هنا تحدث عن إدخال "الاسم" (المسند إليه)، وليس "الفعل" (المسند) مما يدل أن الأصل لديه هو "الاسم". ولعله يرى أن الاسم (المسند إليه) هو أساس الجملة الاسمية. إذ إن الحديث عنه أعم وأشمل من "المسند" إذ إن "المسند" قد يكون اسماً أو فعلاً بينما "المسند إليه" الأصل فيه أن يكون اسماً. وقوله: "أن تدخل الاسم في شيء": أي: أن تتركب جملة من مسند ومسند إليه. وقوله: "تنفي عنه ما سواه" يعني: إثبات المسند للمسند إليه. ويتم ذلك نحو قولك: "ما أتاني إلا زيد، وما لقيت إلا زيدا، وما مررت إلا بزيد" وبهذه الطريقة تبنى جملة الحصر عند سيبويه.

إلا أن سيبويه يفترض أن أصل جمل الحصر تلك: ما أتاني زيد، وما لقيت زيدا، وما مررت بزيد. ثم يبين أنه عندما دخلت (إلا) عليها أفادتھا

(١) الكتاب، سيبويه، ج ٢، ص ٣١٠.

الحصر. ويعبر سيبويه عن إفادتها الحصر بوضوح إذ يقول^(١): "ولكنك أدخلت
 "إلا" لتوجب الأفعال لهذه الأسماء ولتتفي ما سواها، فصارت هذه الأسماء مستثناة".
 وإذا كان البلاغيون^(٢) قد عرفوا الحصر باصطلاحهم عليه "أنه
 تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص" فإن سيبويه^(٣) كان قد سبقهم إلى هذا
 المعنى الاصطلاحي. إذ إنه خصص ما قبل (إلا) بما بعدها ونفي ما سواه.
 وتحدث -كما ذكرنا آنفاً- بكل وضوح عن أداة الحصر "إلا" ولم يغفل عما تفيد
 من معنى الحصر. إذ ذكره كاملاً. إلا أن الذي لم يذكره هو لفظة الحصر.
 أمّا حديثه عن "إنما" فهو وإن كان قد أفرد لها باباً إلا أنه لم يتحدث عن
 إفادتها للحصر.

أمّا الفراء^(٤) فقد تحدث عن الحصر بـ "إلا" و "إنما". وكان حديثه عن
 معنى هاتين الأداتين، أي: كان حديثه عن فقه دلالتهما. فهما عنده لا يأتيان في
 الكلام ابتداءً، وإنما يكونان رداً على كلام سابق. كما أنه يخطئ من يظن أن إنما
 لا تأتي إلا لإفادة التحقير فهي في بعض المواضع وفي القرآن الكريم قد أتت
 للتعظيم، ويؤيد الفراء في هذا القول ابن فارس^(٥). ويشرح لنا الفراء كيف يتأتى
 الحصر، وكيف يتفاوت المعنى، ويختلف المحصور والمحصور فيه أو المقصور
 والمقصور عليه بحسب وضعه في الكلام. "فإذا قلت: إنما قمت. فقد نفيت عن
 نفسك كل فعل إلا القيام، وإذا قلت: إنما قام أنا. فإنك نفيت القيام عن كل أحد
 وأثبتته لنفسك.

قال الفراء^(٦): يقولون: "ما أنت إلا أخي". فيدخل في هذا الكلام الافراد:
 (أي افراد صفة واحدة من الأوصاف) كأنه ادعى أنه أخ ومولى وغير الأخوة،
 فنفي بذلك ما سواها. قال: وكذلك إذا قال: "إنما أنت أخي". قال: لا يكونان أبداً
 إلا رداً على آخر كأنه ادعى أنه أخ ومولى وأشياء أخرى فنفاها وافر له بالأخوة،

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) شروح التلخيص، ج ٢، ص ١٦٦.

(٣) أنظر الكتاب، سيبويه، ج ٣، ص ١٢٩-١٣١.

(٤) أنظر الصحابي في فقه اللغة، ابن فارس، ص ١٣٣-١٣٤.

(٥) أنظر المصدر السابق نفسه. (٦) أنظر المصدر السابق نفسه.

أو زعم زاعم أنه كانت منك أشياء سوى القيام، فنفيتهما ما خلا القيام. وقال قوم: "إنما" معناه التحقير تقول: "إنما أنا بشر". محقراً لنفسك وهذا ليس بشيء قال الله جل ثناؤه: "إنما الله إله واحد" فأين التحقير هاو هنا؟ ويعقب ابن فارس^(١) على ما قاله الفراء بقوله: والذي قاله الفراء صحيح، وحجته قوله صلى الله عليه وسلم: "إنما الولاء لمن أعتق"^(٢).

واضح هنا أن الفراء تحدث عن مفهوم الحصر، وفائدته بالأداتين: "إلا" و "إنما" فمن خلالهما ذكر بوضوح المعنى الاصطلاحي للحصر. من أنه إثبات ونفي. ويصرح بذلك بقوله: "إنما قام أنا" فيقول في معنى هذا التركيب: فإنك نفيت القيام عن كل أحد وأثبتته لنفسك. ويصرح بذلك أيضاً بقوله: "ما أنت إلا أخي" ويقول في هذا التركيب أيضاً: "إنك أقررت له بالأخوة ونفيت ما سواها. وهنا نقول: إن الحصر بـ "إلا" و "إنما" فيه إثبات ونفي، والإثبات والنفي دال على مطلق التخصيص إذ إن معنى التخصيص كما ذكر البلاغيون فيه إثبات ونفي -كما سنرى- إثبات الشيء للمذكور ونفيه عما سواه.

ويتضح هنا أيضاً أن الفراء استدرك على سببويه إغفاله أداة الحصر "إنما". فكما هو واضح فإن الفراء ذكرها أداة للحصر، وجعلها مع "إلا" بمعنى واحد من حيث المفهوم.

ويلاحظ أن الفراء تحدث عن الأداتين "إلا" و "إنما" حديثاً بلاغياً أيضاً، وهو بذلك تجاوز معنى التركيب الدال على الحصر الغرض الذي يخرج إليه ذلك التركيب من حيث توجهه إلى المخاطب ففي قوله: "ما أنت إلا أخي" و "إنما أنت أخي" يبين أن الأداتين "إلا" و "إنما" لا يأتیان في الكلام ابتداءً. وإنما يكونان رداً على كلام سابق... والذي يريد أن يقوله الفراء: أن "إلا" و "إنما" أتيتا للرد على من ينكر الأخوة الخالصة له. فمكرها يعتقد أن فيه صفات ثلاثاً وهي أنه: أخ، ومولى، وغير الأخوة عبد مثلاً. فجمله الحصر أنت لتفرد إحدى هذه الصفات

(١) أنظر: الصحابي في فقه اللغة، ابن فارس، ص ١٣٤.

(٢) صحيح مسلم، الإمام مسلم، ج ٥، ص ٣٩٧-٤٠٦.

وتثبتها، وتنفي الصفتين الآخرين. أي تثبت الاخوة له وتنفي صفة المولى وغير الاخوة عنه.

نخلص مما قاله سيبويه والفراء إلى أن "إلا" و "إنما" أداتا حصر بنصهما على ذلك إلا أن الفراء لما جعل "إنما" بمنزلة "ما" و "إلا" من حيث المفهوم أشكل ذلك على العلماء فيما بعد. والذي أشكل عليهم هو وصف "ما" في "إنما" هل هي نافية أم كافة أم زائدة أم نكرة مبهمة...؟

فمثلاً زعم ابن درستويه^(*) وبعض الكوفيين أن "ما" مع هذه الحروف اسم مبهم بمنزلة ضمير الشأن في التخييم، والابهام، وفي أن الجملة بعده مفسرة له، ومُخْبَرٌ بها عنه. ويرد على زعم ابن درستويه: أنها (أي: "ما") لا تصلح للابتداء بها^(١)، وزعم أبو علي الفارسي أنها نافية، واستدل بأنها أفادت معنى الحصر نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (النساء، ١٧١) كإفادة النفي والاثبات بـ "إلا"^(٢).

وسنرى عند الحديث عن الحصر بـ "إنما" أن الرأي الراجح الذي يتفق مع مفهوم الحصر أن تكون "ما" كافة زائدة، وأنها لما دخلت على "إن" زادتها تأكيداً فصارت فيها معنى الحصر.

بعد ذلك كله يمكن القول إن البحث في أداتي الحصر "إلا" و "إنما" انطلقت أسسهما وبنيت قواعدهما عند النحويين -كما رأينا-. ثم تلقفهما بعد ذلك شيخ البلاغة العربية عبد القاهر الجرجاني وأصل قواعدهما، وأفاض في الحديث عنهما، وكشف عن دقائقهما.

وعبد القاهر الجرجاني عندما تحدث عن الحصر استهله بقول النحويين كأبي علي الفارسي، وأبي اسحق الزجاج. وهذا يؤكد لنا العلاقة الوثيقة بين علمي النحو والمعاني من جهة، ويؤكد لنا أيضاً التزام الجرجاني بالمنهج الذي اختطه من أن النظم أو علم المعاني ما هو إلا توخي معاني النحو.

(*) عبدالله بن جعفر بن درستويه، صنف: الإرشاد في النحو، وشرح الفصيح، والمقصود، والممدود، مات سنة (٣٤٧هـ)، انظر: بغية الوعاة، السيوطي، ج ٢، ص ٣٦.

(١) مغني اللبيب، ابن هشام، ص ٤٠٤، وانظر مع الهوامع، السيوطي، ج ٢، ص ١٩١.

(٢) مع الهوامع، السيوطي، ج ٢، ص ١٩١.

ويستهل الجرجاني الحديث عن "إنما" وما يقوله النحويون من أنها بمعنى "ما" و "إلا"، وأنهما بمنزلة واحدة. ويعترض الجرجاني هنا على النحويين بأسلوب مهذب مخالفاً لهم إذ يقول^(١): "واعلم أنهم لم يعنوا بذلك أن المعنى في هذا هو المعنى في ذلك بعينه". فهما ليسا سواء. وفرق بين أن يكون في الشيء معنى الشيء وبين أن يكون الشيء للشيء على الإطلاق". والذي يريد أن يقوله الجرجاني إنهما ليستا مترادفتين. فليس كل كلام يصلح فيه "ما" و "إلا" يصلح فيه "إنما" -كما يقول-.

ويأخذ الجرجاني^(٢) في بيان الفروق بين الأداتين، وأول فرق يذكره هو أن "إنما" لا تتضمن معنى النفي بخلاف "ما" و "إلا". والفرق الثاني "أن "إنما" تجيء لخبر معلوم لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته أو لما ينزل منزلته مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ (الأنعام، ٦). فهذا أمر ثابت معلوم. وذلك أن كل عاقل يعلم أنه لا تكون استجابة إلا ممن يسمع ويعقل ما يقال له، ويدعى إليه. وأن من لم يسمع ولم يعقل لم يستجب. وأما "ما" و "إلا" فيأتيان في خبر ينكره المخاطب ويشك فيه. كقولك إذا رأيت شخصاً من بعيد فقلت: ما هو إلا زيد. لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد، وأنه إنسان آخر، ويجد في الإنكار أن يكون زيداً".

وفرق ثالث: "هو أن "إنما" تفيد إيجاب الفعل للشيء ونفيه عن غيره، فإذا قلت: "إنما جاءني زيد" عُلّ منه أنك أردت أن تنفي أن يكون الجاني غيره. فكانك قلت: جاءني زيد لا عمرو".

وقد أفرد الجرجاني حديثاً مطولاً عن "إنما" و "ما" و "إلا" في كتابه دلائل الإعجاز. وبالرغم من استيعابه الدقيق لبيان الفروق بين القصر بـ "إنما" و "ما" و "إلا" إلا أنه لم يطلق مصطلح القصر أو الحصر عليهما، وإنما استعمل مصطلح الاختصاص للدلالة على القصر والحصر معاً

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص ٢٥٣.

(٢) أنظر دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص ٢٥٣-٢٥٤، و ٢٥٧.

فتراه يقول^(١) مثلاً: "ما جاءني إلا زيد؛ أنك تريد اختصاص زيد بالمجيء، وأن تنفيه عن عداه"، وكذلك بقوله^(٢): "إنما هذا لك". فيكون الاختصاص في "لك" بدلالة أنك تقول إنما هذا لك لا لغيرك".

وبعد أن أفاض عبدالقاهر الجرجاني في الحديث عن القصر وعن أداتيهِ "ما" و "إلا"، و "إنما" نرى الزمخشري يقف كثيراً بإزاء "إنما" إذ يقول^(٣) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا: إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (البقرة، ١١): "إنما لقصر الحكم على شيء"، كقولك: "إنما ينطلق زيد"، أو لقصر الشيء على حكم كقولك: "إنما زيد كاتب"، ومعنى "إنما نحن مصلحون" أن صفة المصلحين خلصت لهم، وتمحضت من غير شائبة تقدر فيها من وجه من وجوه الفساد^(٤). ويحدد المقصور عليه في "إنما" إذ يكون متأخراً، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ. وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة، ٦٠) إذ يقول^(٥) في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾: قصر لجنس الصدقات على الأصناف المعدودة، وأنها مختصة بها، لا تتجاوزها إلى غيرها، كأنه قيل: إنما هي لهم لا لغيرهم، ونحو ذلك قولك: إنما الخلافة لقریش، تريد لا تتعداهم ولا تكون لغيرهم،...

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ: إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ؟﴾ (الأنبياء، ١٠٨). يقول^(٦): "إنما لقصر الحكم على شيء أو لقصر الشيء على حكم". أي قصر صفة على موصوف، وقصر موصوف على صفة كقولك: إنما زيد قائم، وإنما يقوم زيد، وقد اجتمع المثالان في هذه الآية؛ لأن ﴿إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ﴾ مع فاعله بمنزله إنما يقوم زيد، و ﴿إِنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ

(١) دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني ص ٢٥٨.

(٢) دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني ص ٢٦٣.

(٣) الكشف، الزمخشري، ج ٢، ص ٢٧٣.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) الكشف، الزمخشري، ج ٢، ص ٢٧٣.

(٦) الكشف، الزمخشري، ج ٣، ص ١٣٦.

واحد بمنزلة إنما زيد قائم. وفائدة اجتماعهما للدلالة على أن الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصور على استئثار الله بالوحدانية.(١)

ويلاحظ هنا أن الزمخشري الحق "إنما" المفتوحة السهمزة بـ "إنما" المكسورة بأنها تفيد الحصر؛ لأنها فرع وما ثبت للأصل ثبت للفرع. ويلاحظ أيضاً أن الزمخشري استعمل مصطلحات "القصر" و "الحصر" و "الاختصاص" أيضاً في موضع سابق للدلالة على معنى واحد.

أمّا الإمام فخر الدين الرازي ففي كتابه "تهاية الإيجاز في دراية الإعجاز" نراه يعقد الباب الخامس منه للحديث عن أداتي الحصر "إنما" و "ما" و "إلا". ويوجز ما ذكره عبد القاهر الجرجاني من استعمالتهما ومن الفروق بينهما.

وقد أفاد الإمام الرازي^(٢) من كتابه ذاك في تفسيره المسمى "التفسير

الكبير" ينضح ذلك في تعليقه على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ

وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ...﴾ (البقرة، ١٧٣) بأن "إنما" للحصر، وهي عنده مركبة من

"إن" للإثبات و "ما" للنفي، وباجتماعهما يبقيان على أصليهما وعلى ذلك تفيضان

ثبوت المذكور ونفي غير المذكور. وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْوَاحِدُ﴾ (١٧١)

(وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ...﴾ (المائدة، ٥٥) وقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ...﴾ (التوبة، ٦٠) يقول^(٣): إنما هنا للحصر.

وجاء السكاكي^(٤) فوضع كتابه "مفتاح العلوم" وهو أول من أطلق

مصطلح "علم المعاني" على ما أسماه الجرجاني "النظم"، وهو أول من فصل

موضوعاته. وإذا ما أتينا إلى موضوع "القصر" نجد أنه أخذ مصطلح القصر من

الزمخشري، وأطلقه على جملة مباحثه.

(١) المصدر السابق ج ٣، ص ٣٦

(٢) انظر التفسير الكبير، الفخر الرازي، مج ٥، ص ٢٢

(٣) انظر التفسير الكبير، الفخر الرازي، مج ٥، ص ٢٢، مج ٦، ص ١٢، ص ٢٩.

(٤) مفتاح العلوم السكاكي ص ٢٨٨

وفي حديثه عن المعنى الاصطلاحي للقصر قال^(١) إنه: "راجع السى تخصيص الموصوف بوصف دون ثان"، وتحدث عن القصر باعتبار حال المخاطب وقسمه قسمين: "قصر أفراد، وقصر قلب فمثال قصر الأفراد قولك: "ما شاعر إلا زيد" لمن يرى الشعر لزيد ولعمرو. ومثال قصر القلب: قولك: "ما شاعر إلا زيد" لمن يرى أن "زيداً ليس بشاعر"^(٢).

وقد ضبط معنى الحصر في الأداتين "ما" و "إلا"، و "إنما". فمعنى الحصر في "ما" و "إلا" يوضحه من خلال قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ (ال عمران، ١٤٤)، فقال^(٣): "فمعناه محمد مقصور على الرسالة لا يتجاوزها إلى البعد عن الهلاك: نزل المخاطبون لاستعظامهم اللدبقي لهم منزل المبعدين لهلاكه". وفي معنى الحصر في "إنما" يقول السكاكي^(٤): والسبب في إفادة "إنما" معنى القصر، هو تضمينه معنى "ما" و "إلا".

ويعد السكاكي أول من أصل لموضوع القصر فبين أقسامه وأطرافه وطرائقه ووضحها والذين جاءوا من بعده لم يزدوا على ما قاله إلا النزر القليل في الحواشي والشروح على هذا الموضوع. إذ لم يكونوا إلا شارحين أو موضحين أو مختصرين لما ذكر.

وجاء الخطيب القزويني لخص "مفتاح" السكاكي، وكان أوضح منهجاً منه. فقد تحدث الخطيب في "تلخيصه"، وفي كتاب آخر له كالشرح لتلخيصه، سماه "الإيضاح، عن أقسام القصر: الحقيقي وغير الحقيقي (أي الإضافي). ففي القصر الحقيقي تحدث عن قصر الصفة عن الموصوف وقصر الموصوف على الصفة، وفرق بينهما، وتحدث عن القصر الحقيقي بقصد المبالغة، ثم ينتقل بعد ذلك للحديث عن شروط القصر، واعتراضه على إهمال السكاكي القصر الحقيقي. ثم ينتقل بعد ذلك للحديث عن طرق القصر الأربعة

(١) مفتاح العلوم، السكاكي، ص ٢٨٨.

(٢) مفتاح العلوم، السكاكي، ص ٢٩٠.

(٣) مفتاح العلوم، السكاكي، ص ٢٨٩.

(٤) مفتاح العلوم، السكاكي، ص ٢٩١.

التي ذكرها السكاكي وهي العطف، والنفي والاستثناء أي "بما" و "إلا"، و "إنما"،
والتقديم.

وفي حديثه عن أداتي الحصر "ما" و "إلا" و "إنما" نراه ينقل ما قاله
السكاكي عنهما ولكن بشكل مرتب منظم واضح. وبعد ذلك كله يتحدث عن
الفروق بين طرق القصر.

وصار كتاب "التلخيص" فيما بعد المحور الذي يدور حوله الكاتبون،
وانبرى العلماء لكتاب "التلخيص" يلخصونه أو يشرحونه، فشرحه ابن السبكي
شرحاً مزج فيه بين البلاغة، وعلم الكلام، وأصول الفقه، والنحو، والمنطق،
والفلسفة.

الفصل الأول

تحديد مصطلح الحصر والتعريف بأقسامه

المبحث الأول

المطلب الأول: الحصر لغةً

الحصر في اللغة: الحبس^(١)، نقول: حصرتهم حصراً: أي حبستهم.
والله حاصر الأرواح في الأجسام. وحصر في الشيء وأحصرني: أي حبسني:
ومنه قول^(٢) ابن ميادة^(٣):

وما هجر ليلى أن تكون تباعدت عليك، ولا أحصرتك شغول
أي حبستك شغول. وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ
حَصِيرًا﴾ (الإسراء: ٨) قال القرطبي^(٤): أي محبساً وسجناً من الحصر وهو الحبس،
ويقال للذي يفتش حصير، لحصر بعضه على بعض بالنسج، والحصير: الملك؛
لأنه محبوب قال لبيد^(٥):

ومقامة غلب الرقاب كأنهم جن لدى باب الحصير قيام
لدى باب الحصير: أي باب الملك.

والحصار^(٦): "المحبس كالحصير، وهو الموضع الذي يحصر فيه
الإنسان. نقول: حصروه حصراً وحاصروه ومنه قول رؤبة:
مدحة محصور تشكى الحصار،
ويعني بالمحصور المحبوس".

(١) مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، مادة (حصر) وانظر أساس البلاغة للزمخشري، ج ١، (١٧٧)، ولسان
العرب، مج ٤، (١٩٤-١٩٥)، والقاموس المحيط، الفيروز أبادي، ص ٤٨٠.
(٢) شعر ابن ميادة ص ١٨٧.

(٣) ابن ميادة، الرماح بن أبرد بن ثوبان، شاعر مجيد من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، مات في
خلافة المنصور، سنة ١٤٦ هـ، معجم الأدباء، ج ٣، ص ١٣٠٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مج ٥، ص ٢٠٢، وانظر المصدر نفسه، مج ٢، ج ٤، ص ٧٣.

(٥) شرح ديوان لبيد ص ٢٩٠، ويروى قماقم غلب، ويروى على باب الحصير والحصير هنا الملك والمقامة
الجماعة يجتمعون في مجلس وغلب الرقاب: غلاظها، جمع أغلب، والسادة يوصفون بغلظ الرقبة وطولها.

(٦) لسان العرب، مادة حصر.

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ (البقرة، ١٩٦) قال الزمخشري^(١): أي إذا حُبِسوا بمرض أو خوف أو غيرهما.

وفي قوله تعالى: ﴿... إِنْ اللَّهَ يَبْشُرُكُمْ بِحَيٍّ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (ال عمران، ٣٩) قال القرطبي^(٢): "والحصور الذي لا يأتي النساء كأنه مخجم عنهن! كما يقال: رجل حصور وحصير إذا حَبَس رِفده ولم يُخرجه الندامى. يقال شرب القوم فحصر عليهم فلان أي بخل". قال الأخطل^(٣):

وشارب مُرَبِّجٍ بالكأس نادمني لا بالحصور ولا فيها بسوار
لا بالحصور: أي ليس بالبخل، ويقول القرطبي^(٤) في تفسير "حصور":
"فالمعنى أنه يحصر نفسه عن الشهوات. والذي أراد أن يقوله القرطبي هو أن سيدنا يحيى عليه السلام يستطيع أن يأتي الشهوة لكنه حصر نفسه وحبسها عنها اجتهداً وإدارة منه في إزالتها.

والحصير: العبيء كأن الكلام حُبِس عنه ومنع منه^(٥).
فالحصر لغة هو الحبس. إلا أنه يلحظ من المعنى اللغوي أن الحبس هنا بمعنى السجن في الشيء أو الحجز. وهذا يعني ضمناً عدم تجاوز الشيء. فالله حاصر الأرواح في الأجسام: أي ساجنها فيها، فهي مسجونة لا تتجاوز تلك الأجسام. ولعل الحصر بهذا المعنى يتضمن حكيم: إثبات منصوص عليه، ونفي متضمن في هذا الإثبات.

(١) أساس البلاغة، الزمخشري، مادة (حصر)، وانظر القرطبي، مج ١، ج ٢، ص ٣٤٦-٣٤٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مج ٢، ج ٤، ص ٧٣.

(٣) شعر الأخطل، ص ١١٦، المُرَبِّج: الذي ينحر لصنوفه الرُبْح وهي الفصلان، والحصور: الضيق البخل، والسوار: المعرَّب الوثاب.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مج ٢، ج ٤، ص ٧٣.

(٥) مقاييس اللغة أحمد بن فارس، مادة (حصر)، وانظر أساس البلاغة الزمخشري، ولسان العرب، مادة (الحصر).

المطلب الثاني: القصر لغة

القصر في اللغة: الحبس، يقال: قَصَرْتُهُ، إذا حبستَه، وهو مقصور أي محبوس، ويقال قصرت نفسي على الشيء إذا حبستها عليه وألزمته إياه^(١). وقد وردت هذه اللفظة بمعناها اللغوي في القرآن الكريم في أربعة مواضع، في قوله تعالى:

﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطُّرُفِ عَيْنٌ﴾ (الصافات/٤٨) وفي قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطُّرُفِ أَتْرَابٌ﴾ (ص/٥٢)، وفي قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطُّرُفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ أُنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾ (الرحمن/٥٦).

ويرى المفسرون^(٢) في الآيات الثلاث أنها وصف لنساء أهل الجنة بأنهن يقصرن طرقهن على أزواجهن فلا ينظرن إلى غيرهم. ويقول ابن فارس في معنى "إمراة قاصرة الطرف: أي لا تمدّه إلى غير بعْلِها، كأنها تحبسه حبساً"^(٣). أما في قوله تعالى: ﴿أَحْجُورَ مَقْصُورَاتِ فِي الْخِيَامِ﴾ (الرحمن/٧٢) فيذكر الطبري^(٤) والقرطبي^(٥) أن تفسير "مقصورات" محبوسات في الخيام، ويرى القرطبي^(٦): أن "مقصورات" أعلى وأفضل من "قاصرات الطرف"؛ لأنهن هنساك حبسن أنفسهن على أزواجهن بينما هنا حبس طرقهن عليهم فقط.

(١) مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، مادة (قصر)، وانظر أساس البلاغة، الزمخشري، ج ٢، ص ٢٥٦، ولسان العرب، ابن منظور، مج ٥، ص ٩٥-١٠٤، والقاموس المحيط للفيروز آبادي، ص ٥٩٤-٥٩٥، مؤسسة الرسالة، ط ٢، بيروت، والمعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون، ج ٢، ص ٧٣٨.

(٢) انظر جامع البيان من تأويل أي القرآن، الطبري، مج ١٢، ج ٢٣، ص ٦٧، و ص ٢٠٨، ومج ١٣، ج ٢١، ص ١٩٥، والمفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص ٤٠٥، والجامع لأحكام القرآن،

القرطبي، مج ٨، ح ١٥، ص ٧٣، و ص ١٩٦، ومج ٩، ج ١٧، ص ١٦٤.

(٣) مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، مادة (قصر).

(٤) جامع البيان، الطبري، مج ١٣، ج ٢٦، ص ٢٠٧.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مج ٢٩، ج ١٧، ص ١٧١.

(٦) المصدر السابق نفسه، مج ٩، ج ١٧، ص ١٧١.

فالقصر لغة هو الحبس، والآيات القرآنية التي مثلت المعنى اللغوي للقصر يلحظ منها معنى الاختصاص، فقاصرات الطرف خصصن أزواجهن بنظراتهن فلم يتجاوزنهم إلى غيرهم من الرجال، والمقصورات: المخصوصات لأزواجهن في الخيام وليس لأحد غيرهم.

ومن المعنى اللغوي للقصر وما يتضمنه من معنى التخصيص بنى المعنى الاصطلاحي الذي استقر عليه علماء البلاغة فيما بعد.

المطلب الثالث: تحديد المصطلح

يتميز أسلوب الحصر بوفرة مصطلحاته؛ إذ تتزاحم في كتب النحو والبلاغة العربية ثلاثة ألفاظ تدور في هذا الأسلوب وهي:

الأول: الحصر.

الثاني: القصر.

الثالث: الاختصاص أو التخصيص.

أما الحصر فاشتهر في بيئة المفسرين^(١) والنحويين^(٢). وأما القصر فاشتهر في بيئة البلاغيين^(٣)، واشتهر عند النحويين أيضاً. وأما الاختصاص أو التخصيص فقد استخدمهما عبد القاهر الجرجاني^(٤) والزمخشري^(٥) للدلالة على الحصر والقصر معاً إلا أن الاختصاص أو التخصيص بهذا المعنى مفهوم عسام، ومصطلح واسع، إذ إن معناه يستفاد من فحوى التراكم اللغوية؛ لأن هناك

(١) انظر الكشف، ج ٣، ص ١٣٦، والتفسير الكبير، مج ٣، ج ٥، ص ١٢، ومج ١٠، ج ٢٢، ص ٢٣٢، والبحر

المحيط، ج ١، ص ١٩١، ج ٥، ص ٥٢٦، ج ٦، ص ٣١٨، والجامع لأحكام القرآن، مج ١، ج ٢، ص ٢٠٢.

(٢) انظر شرح المفضل، ج ٨، ص ٥٦، الاستغناء في أحكام الاستثناء، الباب السابع عشر،

والجنى الداني، ص ٣٨٢-٣٨٣، والمغني، ص ٤٠٤، وهمع الهوامع، ج ٢، ص ١٩١.

(٣) انظر مفتاح العلوم، ص ٢٨٨، وشروح التلخيص، ج ٢، ص ١٦٦.

(٤) دلائل الإعجاز، فصل "هذا بيان آخر في إنما".

(٥) الكشف، ج ٤، ص (١١٢، ١١٣)، في سورة التغابن، الآية رقم (١).

تركيب لغوية كثيرة دالة على الاختصاص أو التخصيص بهذا المفهوم الواسع الذي يضم تركيب لغوية كثيرة غير مقصود بدراستنا.

أما مصطلحا الحصر والقصر فهما دالان على معنى واحد من حيث المعنى والمفهوم؛ فنقرأ في شروح التلخيص^(١): "القصر هو الحصر وهو تخصيص أمر بأخر بإحدى طرق الحصر.....".

أما السيوطي فيفضل لفظ الحصر في عنوان الفصل الذي عقده للحديث عنه، وينص على أنه رديف للقصر فيقول^(٢): "أما الحصر ويقال له القصر فهو تخصيص أمر بأخر بطريق مخصوص". ويرأوح السيوطي في هذا الفصل في استعمال لفظي الحصر والقصر حتى لكانهما من مادة واحدة إذ يقول^(٣): "وينقسم الحصر باعتبار آخر إلى ثلاثة أقسام: قصر أفراد، وقصر قلب، وقصر تعيين".

ومما يؤكد الترادف بين مصطلحي القصر والحصر ما ذكره التهانوي في كشف اصطلاحات الفنون إذ يقول^(٤) في القصر: "وعند أهل المعاني ويسمى بالحصر والتخصيص أيضاً جعل بعض أجزاء الكلام مخصوصاً ببعض بحيث لا يتجاوزه ولا يكون انتسابه إلا إليه".

ويقول^(٥) في الحصر أيضاً: "وعند أهل العربية هو القصر وهو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه"، ولا تميز الكتب الحديثة في النحو والبلاغة بين اللفظين. ولئن غلب أكثرها لفظ القصر وأهمل لفظ الحصر فإن بعضها قد نصص على الترادف بينهما. فقد ذكر عباس حسن ما يدل على ذلك إذ يقول^(٦): "وبين الحصر يتضح من التمثيل الآتي: إذا أردنا قصر شيء على شيء بحيث يكون أحدهما مختصاً بالآخر منقطعاً له؛ أي متفرغاً له كل التفرغ سميت هذه العملية حصراً أو قصرًا".

(١) شروح التلخيص، ج ٢، ص ١٦٦.

(٢) الاتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج ٢، ص ٦٤.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) كشف اصطلاحات الفنون، التهانوي، مج ٢، ص ١١٨٣.

(٥) كشف اصطلاحات الفنون، التهانوي، مج ١، ص ٢٩٤.

(٦) النحو الوافي، عباس حسن، ج ١، ص ٤٩٥.

يتضح مما سبق أن أهل العربية لم يتواضعوا على مصطلح واحد يضبطون به تعيين عنصر من عناصر التركيب بحيث ينتقي ما عداه. فقد استعملوا الحصر والقصر على أنهما مترادفان، واستعملوا الاختصاص وأحياناً التخصيص لأداء المعنى نفسه.

والترادف بين مصطلحي الحصر والقصر ناشئ من وضع العلماء لـه وإطلاقهم المصطلحين على مفهوم واحد لما رؤوا أنهما بمعنى "الحبس" في اللغة. ولكن إذا دققنا نجد أن هناك فرقاً بين الحصر والقصر في اللغة. فهما وإن دلاً على معنى الحبس للوهلة الأولى. فلا يعني أن الحبس في الحصر هو نفسه الحبس في القصر.

فالحبس في الحصر أكثر خصوصية من الحبس في القصر، وقد حمل معاني خاصة لم يحملها القصر، ومن هذه المعاني ١- الضيق: كما في قوله تعالى "حصرت صدورهم" النساء (٩٠) ٢- الممتنع عن النساء: كما في قوله تعالى "وسيداً وحصوراً" آل عمران (٣٩) ٣- الإحاطة: كما في قوله تعالى "واحصروهم" التوبة (٥)

ففي الآيات السابقة لا يمكن للفظه القصر أن تحمل محل الحصر، لأن القصر لا يوجد فيه معنى الضيق والإحاطة كما في الحصر، فالحصر أعمق في الدلالة وأدق من القصر.

ولما كان مثل هذا التعدد الاصطلاحي يخلق مشكلة مزعجة لدى الباحثين. فإن مقتضيات البحث تستلزم الأخذ بمصطلح واحد من تلك المصطلحات المتعددة. وعلى ذلك فإن الباحث يرى أن مصطلح الاختصاص أو التخصيص يمكن طرحه جانباً؛ لأننا اتفقنا على أنه مفهوم عام غير محدد بتركييب معينة. أمّا مصطلحا الحصر والقصر المترادفان فيرى الباحث أن يختار مصطلح الحصر للدلالة على هذا الأسلوب عنواناً عريضاً للدراسة، وذلك لأن لفظة الحصر أسبق من لفظة القصر في الإطلاق على المفهوم، ومفهوم الحصر في الأصل مفهوم نحوي قبل أن ينتقل إلى البلاغيين. فقد تحدث سيبويه عنه من الناحية التركيبية وتحدث الفراء عنه من الناحية البلاغية -كما أسلفنا-. وعبدالقاهر

الرجائي عندما تحدث عن الحصر حديثاً بلاغياً اتكأ على النحويين كأبي علي
الفارسي وأبي اسحق الزجاج مما يدل على أن المفهوم في أصله نحوي.

ولعل السبب الذي جعل السيوطي يفضل لفظة الحصر على القصر في

عنوانه فصله ما نقله عن "أبي علي الفارسي في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ
وَاحِدٌ﴾ (النساء، ١٧١) من أن "إنما" أفادت معنى الحصر" (١).

ويهدف الباحث من وراء ذلك كله إلى القول بأن الحصر موضوع
نحوي خالص كان الأصل فيه أن يبحث عند النحويين إلا أن عبدالقاهر الجرجاني
هو الذي أغرى البلاغيين من بعده ببحثه ضمن موضوعاتهم.

ومهما يكن من أمر فكون لفظي الحصر والقصر مترادفين دالين على
مفهوم واحد، فالباحث لا يرى بأساً في المراوحة بين اللفظين في طيات هذا
البحث.

المطلب الرابع: الحصر في اصطلاح النحويين

تحدث سيبويه (٢) عن مفهوم الحصر في أثناء عرضه لـ "إلا" فقال في
معنى تركيب جمل الحصر: "ما أتاني إلا زيد"، وما لقيت إلا زيدا، وما مررت
إلا بزيدا: "ولكنك أدخلت "إلا" لتوجب الأفعال لهذه الأسماء ولتتفي سواها".
وتحدث الفراء (٣) أيضاً عن مفهوم الحصر في أثناء عرضه لـ "إلا" و
"إنما" فقال في معنى تركيب جملة الحصر: ما أنت إلا أخي: "إنك أقررت له
بالأخوة ونفيت ما سواها". وقال في: "إنما قام أنا": "إنك نفيت القيام عن كل أحد
وأثبتته لنفسك".

(١) انظر مع الهوامع، ج ٢، ص ١٩١.

(٢) الكتاب: ج ٢، ص ٣١٠.

(٣) الصاحبي في فقه اللغة، ابن فارس، ص ١٠٥.

يلاحظ أن سيبويه والفراء لم يضعوا مفهوم الحصر في قالب تعريف في اصطلاحه وإن كانا قد نصا على مفردات مصطلح الحصر وهي: الإيجاب أو الإثبات لـ ...، والنفي عن سوى...

أما ابن يعيش^(١) فقد تحدث عن مفهوم الحصر الاصطلاحي صراحة في أثناء عرضه لـ "إنما" فقال: "إن فيها معنى الحصر: وهو إثبات الحكم للشيء المذكور دون غيره". ومثل لذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْوَاحِدُ﴾ (النساء، ١٧١). وفسرها بقوله: ﴿مَا إِلَهُ إِلَّا الْوَاحِدُ﴾. وتحدث عن مفهوم الحصر أيضاً في أثناء عرضه لـ "إلا" فقال في معنى تركيب جملة الحصر "ما قام إلا زيد": "إثبات القيام له، ونفيه عن سواه".

وقد ضبط مصطلح الحصر عند النحويين التهانوي^(٢) ولم يخرج عما قاله ابن يعيش في تعريفه إلا أنه أفرد كفن من الفنون التي يقتضي أن يكون لها مصطلح. فقال في اصطلاح الحصر: "... وعند أهل العربية هو القصير وهو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه".

نخلص من ذلك كله إلى أن الحصر في اصطلاح النحويين هو ما ذكره التهانوي من أن الحصر: "هو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه".

المطلب الخامس: الحصر في اصطلاح البلاغيين

يمكن القول أن نظرة البلاغيين إليه التفت على أنه: "تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص"^(٣). وفي هذا التعريف ورد لفظ "شيء" مرتين

(١) شرح المفصل، ج ٨، ص ٥٥، ٥٦.

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون، مج ٥، ص ٢٩٤.

(٣) شروح التلخيص، ج ٢، ص ١٦٦، وانظر حاشية السيد علي المطول، ص ٢٠٤.

والشيء الأول: هو المقصور، والشيء الثاني: هو المقصور عليه^(١).
والمقصور والمقصور عليه: هما طرفا القصر. والمراد من قولهم^(٢): تخصيص شيء بشيء: تخصيص موصوف بصفة، أو صفة بموصوف؛ لأن التخصيص يتضمن مطلق النسبة المستلزمة لمنسوب، ومنسوف إليه، فإن كان المخصص منسوباً فهو الصفة، وإن كان منسوباً إليه فهو الموصوف. والمراد بتخصيص الشيء بالشيء: الأخبار بثبوت الشيء الثاني للشيء الأول دون غيره.

"والقصر مطلقاً يستلزم الإثبات والنفي، وهو بذلك ينظم حكمين إثباتات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه"^(٣)، وهذا المعنى مستمد من التعريف لأن طبيعة الحكم أو النسبة في الجملة تطوي وراءها حكماً آخر أو نسبة أخرى. فتخصيص الشيء بالشيء يعني أن تجعله له والآ تجعله لغيره، وكأنك قلت: هو له وليس لغيره، ففيها إثبات ونفي، إثبات منصوص عليه، ونفي متضمن في هذا الإثبات؛ ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ﴾ (طه/٩٨) فيه: إثبات الألوهية لله سبحانه وتعالى نصاً، ونفي الألوهية عن غيره ضمناً، وقد جاء هذا النفي من طبيعة دلالة القصر؛ لأن الألوهية ما دامت مقصورة على الله سبحانه وتعالى، فإنها منفية عن غيره، وهذا اقتضاء عقلي.

والمراد بالصفة في قولهم: "تخصيص موصوف بصفة، أو صفة بموصوف" "الصفة المعنوية: وهي المعنى القائم بالغير"^(٤)، أو "المعنى الذي يقوم بغيره"؛ أي ما يحتاج إلى غيره ليقوم به. سواء دل عليه بالوصف "ككاتب" في قولك: ما زيد إلا كاتب، أو دل عليه، بغير الوصف، كالفعل في قولك: "ما زيد إلا يكتب"^(٥). وليس المراد بالصفة النعت النحوي^(٦) وهو التابع الذي يدل على معنى في متبوعه؛ "لأنه لا يقع قصر بين النعت ومنعوته. فمثلاً في قولنا: "رأيت رجلاً

(١) علم المعاني، د. درويش الجندي، ص ١٢٨.

(٢) شروح التلخيص، ج ٢، ص ١٦٦.

(٣) شروح التلخيص، ج ٢، ص ١٦٦.

(٤) شروح التلخيص، ج ٢، ص ١٦٩، وانظر حاشية السيد على المطول، ص ٢٠٥.

(٥) علم المعاني، درويش الجندي، ص ١٣٠.

(٦) شروح التلخيص، ج ٢، ص ١٦٧.

قائماً" لو أردنا أن نفصل بين النعت والمنعوت في تلك الجملة فنقول^(١): "رأيت رجلاً إنما هو قائم" فإن جملة إنما نعت؛ لأن القصر هنا إنما وقع بين مبتدأ هذه الجملة وخبرها ولم يقع بين النعت والمنعوت".

والمراد بالموصوف: كل ما قام به غيره^(٢)، والغالب أن يكون دالاً على "ذات"^(٣) كقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ (آل عمران/١٤٤) فمحمد صلى الله عليه وسلم المقصور وهو الموصوف وهو اسم ذات، والمقصور عليه الرسالة. وقد يدل في نفسه على "معنى"^(٤) قائم بغيره كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (الزمر/٣) فقد قصرت العبادة على التقريب قصر موصوف على صفة، مع أن العبادة وهي المقصور تدل في نفسها على معنى قائم بغيره^(٥).

وإذا كان كل من المقصور والمقصور عليه اسم ذات؛ نحو: ما زيد إلا أخوك، وما الباب إلا ساج*، وما هذا إلا زيد، فلا بدّ من التأويل في أحدهما، حتى يكون وصفاً، وقد قال البلاغيون^(٦) في هذه الأمثلة: إنها من باب قصر الموصوف على الصفة. فالمراد من هذه الأمثلة على الترتيب: قصر زيد على الاتصاف بكونه أخاً له، وقصر الباب على الاتصاف بكونه ساجاً. وقصر المشار إليه على الاتصاف بكونه زيداً^(٧).

(١) شروح التلخيص ج ٢، ص ١٦٧.

(٢) علم المعاني، درويش الجندي، ص ١٣٠، وانظر دلالات أبو موسى، ص ٧١، ٧٧.

(٣) علم المعاني درويش الجندي، ص ١٣٠، دلالات التراكيب، محمد أبو موسى، ص ٧١، ٧٧.

(٤) علم المعاني درويش الجندي، ص ١٣٠، دلالات التراكيب، محمد أبو موسى، ص ٧١، ٧٧، وبدائع القصر، إبراهيم داود، ص ١٢.

(٥) تفسير أبي السعود، (المسمى ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، ٢٤١/٧.

* الساج: ضرب من الشجر يعظم جداً ويذهب طولاً وعرضاً، انظر المعجم الوسيط مادة "سوج".

(٦) شروح التلخيص، ج ٢، ص ١٧١.

(٧) شروح التلخيص، ج ٢، ص ١٧١.

أما المراد بقولهم "بطريق مخصوص" ^(١) فالمقصود بذلك تقييد التعريف لكثرة الأساليب التي تفيد التخصيص. فالسيوطي ^(٢) مثلاً يسرد طرقاً كثيرة للحصر والاختصاص فيوصلها إلى أربع عشرة طريقاً. إلا أن المتفق عليه عند البلاغيين ^(٣) بقولهم "بطريق مخصوص" أربع طرق. إذ إن غير هذه الطرق خالية من اللطائف البلاغية ^(٤).

ويلاحظ أن سبب اتفاق البلاغيين على الطرق الأربع هذه هو أن كل أسلوب من أساليب الحصر هذه يتضمن إثباتاً ونفيّاً مما يجعل هذه الأساليب أقوى في دلالتها على الحصر من غيرها. وقد رتبت هذه الأساليب عند البلاغيين ^(٥) من حيث الأقوى في الدلالة على الحصر. فالعطف أقوى هذه الأساليب في الدلالة على الحصر للتصريح فيه بالإثبات والنفي، ويليه في ذلك الاستثناء من النفي، ثم إنماء، وهذه الأساليب الثلاثة دالة على الحصر بالوضع ^(٦)، أما التقديم فدلالته على الحصر بالذوق والنظر في سر التقديم حتى يفهم بالقرائن الحالية أنه التخصيص ونفي الحكم عن غير المذكور فيه ^(٧).

كما أن طرفي كل أسلوب من هذه الأساليب قد يكون أحدهما صفة والآخر موصوفاً. وهذان الطرفان أحدهما مقصور والآخر مقصور عليه ^(٨).

(١) شروح التلخيص، ج ٢، ص ١٦٦، وانظر حاشية السيد علي المطول، ص ٢٠٤، الإيضاح للقزويني، ص ٢١-٢٩.

(٢) الاتقان في علوم القرآن، السيوطي، ص ٦٤-٦٧.

(٣) مفتاح العلوم، السكاكي، ص ٢٨٨-٢٩٢، وانظر شروح التلخيص، ج ٢، ص ١٦٦، وانظر جواهر البلاغة، السيد أحمد الهاشمي، ص ١٨٠-١٨١، الإيضاح، للقزويني، ج ٣، ص ٢١-٢٩.

(٤) جواهر البلاغة، السيد أحمد الهاشمي، ص ١٨٠.

(٥) مفتاح العلوم، السكاكي، ص ٢٨٨-٢٩٢، وانظر شروح التلخيص، ج ٢، ص ١٦٦. وانظر الإيضاح للقزويني، ص ٢١-٢٩، وانظر جواهر البلاغة، الهاشمي، ص ١٨٠-١٨١، وانظر علوم البلاغة، المراغي، (١٣٦)، البلاغة العالية، عبدالمتعال الصعدي، ص ٤٨-٤٩، علم المعاني، د. درويش الجندي، ص ١٣٤-١٤٠.

(٦) البلاغة العالية، عبدالمتعال الصعدي، ص ٤٨، ٤٩.

(٧) المصدر السابق نفسه، الصفحة نفسها.

(٨) بدائع القصر، إبراهيم حسن، ص ١٤.

المبحث الثاني: أقسام الحصر

قسّم البلاغيون^(١) والدارسون المحدثون أسلوب الحصر تقسيماً قائماً

على أربعة اعتبارات وهي:

- الحصر الحقيقي والإضافي.
- اعتبار الطرفين أي "المقصور والمقصور عليه".
- الحصر الحقيقي والإدعائي.
- حال المخاطب "الحصر الإضافي".

ولم يخرج البلاغيون والدارسون المحدثون^(٢) على هذه القسمة. إلا أن

طريقة عرض أسلوب الحصر في كتبهم اختلفت من باحث إلى آخر.

وينتقد عبدالمتعال الصعيدي^(٣) هذه القسمة فيقول: "ولا يكتفي القوم هنا

بتقسيم القصر إلى هذين القسمين أي؛ الحقيقي والإضافي - بل يجرون في تقسيمه باعتبارات مختلفة إلى أن يصل بهم ذلك إلى التعقيد والإملال، فيقسمونه باعتبار المقصور إلى قصر موصوف على صفة، وقصر صفة على موصوف، وباعتبار حال المخاطب إلى قصر أفراد، وقصر قلب؛ وقصر تعيين، ولا شك أن علم البلاغة لا يستفيد شيئاً من هذه الأقسام التي أشرنا إلى بعضها وأعرضنا عن بعضها الآخر حتى لا نشوه علم البلاغة. وإنما جرى المتأخرون في ذلك وراء السكاكي ونزعتة المنطقية، وشغفه باستتباط القواعد واستقراء الجزئيات المندرجة في الكليات".

(١) انظر الإيضاح، للخطيب القزويني، ج ١، ص ٧، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٥، وشروح التلخيص، ج ٢، ص ١٦٦، ١٦٧، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، وحاشية السيد علي المطول، ص ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨.

(٢) انظر جواهر البلاغة، للسيد أحمد الهاشمي، ص ١٨٣، ١٨٤ من علوم البلاغة، لأحمد المراغي، ص ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ودلالات التراكيب، دراسة بلاغية، محمد أبو موسى، ص ٢٢، ٢٣.

(٣) البلاغة العالية، علم المعاني، عبدالمتعال الصعيدي، ص ٤٩.

ولا شك أن الصعيدي محق في قوله؛ لأنه رأى أن هدف التقسيمات المتعددة لأسلوب الحصر عند البلاغيين ما هو إلا لتحصيل مصطلحات جديدة في علم البلاغة. وقد سبب انشغالهم في التقسيمات والمصطلحات الجديدة مانعاً من التعرف إلى المعنى الدقيق الذي يتضمنه أسلوب الحصر.

لذا، فليس الهدف من دراسة أسلوب الحصر تحصيل المصطلحات الجديدة. وإنما الهدف منها هو فقه الأسلوب، وفقه الدلالة، والتعرف إلى المعنى الدقيق له. وسيحاول الباحث تحقيق هذا الهدف ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

والملاحظ على أقسام الحصر عند بعض البلاغيين أنها مقسمة تقسيماً مباشراً، أي يذكر التعريف أولاً ثم يذكر أقسام الحصر مباشرة دون ربطها بالتعريف. ومثل هذا الإجراء يجعل أقسام الحصر منفصلاً بعضها عن بعض مما يؤدي إلى خلل في وحدة الموضوع، فالأنسب في ما يراه الباحث هو ربط الحصر بالتعريف الاصطلاحي له بحيث تظهر هذه الأقسام متفرعة من أصل التعريف. وهذا ما سياخذ به الباحث إن شاء الله.

المطلب الأول: تقسم الحصر من حيث طرفاه

إذا رجعنا إلى تعريف الحصر وهو: تخصيص شيء بطريق مخصوص نجد أن طبيعة التعريف تعني جعل أحد الشئيين خاصاً بالآخر ووصفاً قائماً به، وهذا لا يفيد أن أحد الشئيين إما أن يكون صفة تقوم بشيء وهو الموصوف أو العكس. وهو ما عني به البلاغيون^(١): "تخصيص موصوف بصفة أو صفة بموصوف". وكلمة، تخصيص تعني القصر. من هنا انبثق من التعريف طرفا الحصر: وهما: قصر الموصوف على الصفة، وقصر الصفة على الموصوف. والكلام هو الذي يحدد طبيعة المقصور والمقصور عليه، من حيث كونه وصفاً يوصف به الشيء أو موصوفاً يتصف بالشيء.

(١) انظر: شروح التلخيص، ج ٢، ص ١٦٦.

فالحصر ينقسم من حيث طرفاه وهما المقصور والمقصور عليه ومن حيث كونه وصفاً أو موصوفاً إلى قسمين: الأول: قصر الموصوف على الصفة. الثاني: قصر الصفة على الموصوف.

وفيما يلي أمثلة توضح طرفي الحصر من خلال طرق الحصر الأربع المذكورة سابقاً:

أولاً: النفي والاستثناء: يقول الله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (البقرة/ ٢٥٥).

ففي هذه الآية قصرت الألوهية على الله سبحانه وتعالى "قصر صفة على موصوف". "فالألوهية" صفة وهي مقصور، و "هو الحي القيوم" موصوف وهو مقصور عليه.

ثانياً: إنما: كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ (محمد/ ٣٦) ففي هذه الآية قصرت الحياة الدنيا على اللعب واللهو. تحقيراً لأمرها، وتهويناً لشأنها، فالحياة الدنيا: موصوف وهي المقصور، واللهو واللعب: صفة وهو المقصور عليه. أي حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله عز وجل. "أي لا ثبات لها ولا اعتداد بها"^(١) وهو المنفي. وهذا قصر موصوف على صفة.

ثالثاً: تقديم ما حقه التأخير: كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة/) فالأصل في هذه الآية:

نعبدك ونستعين بك. فقدم المفعول به هنا لأجل الاختصاص. والمعنى نخصك بالعبادة، ونخصك بطلب المعونة دون سواك. أما إذا قال نعبدك ونستعين بك. فإنها لا تفيد القصر. ولا يمنع التعبير من مشاركة غيره في العبادة والاستعانة به فالمقصود عليه: إياك الأولى، والثانية. والمقصود نعبد ونستعين وهو قصر صفة على موصوف. وفي هذا من التحقير للأصنام وعابديها ما فيه^(٢).

(١) انظر تفسير أبو السعود، ج ٨، ص ١٠٢.

(٢) انظر التفسير الكبير، ج ١، ص ٢٤٦، ٢٤٧. و انظر تفسير أبو السعود، ج ١، ص ١٦، ١٧، وبدائع العصر، ١٥، ١٦.

رابعاً "العطف": كقوله تعالى: ﴿لَا تَقُولُوا لِمَن يَقْتُل فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ

أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ (البقرة/١٥٤) ففي هذه الآية يؤكد لنا المولى عز وجل أن الشهداء ليسوا أمواتاً، ولكنهم أحياء لا نشعر بحياتهم. ولتأكيد هذا الحكم قصرُوا على الحياة. قصر موصوف على صفة. وهذا القصر قلب الحكم السابق "في قولهم لمن يقتل: أموات" وأثبت عكسه "الحياة" إثباتاً مؤكداً. ووجه التأكيد أن قوله تعالى: ﴿لَا تَقُولُوا لِمَن يَقْتُل فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ﴾ نهي عن القول بذلك. وهذا إثبات للحياة وقوله: إحياء إثبات للصفة صراحة، فكأنه بذلك أثبتها مرتين. والمقصور عليه "أموات" والمقصور أحياء، إذ المقصور عليه هو المقابل لما بعد لا. أما بل ولكن. فالمقصور عليه ما بعدهما^(١).

المطلب الثاني: تقسيم الحصر باعتبار غرض المتكلم

إذا رجعنا إلى تعريف الحصر مرة أخرى: تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص^(٢)، فإننا نجد أن الحصر في التعريف ورد مطلقاً مما يستلزم الإثبات والنفي، وهو بذلك ينظم حكمين إثبات الحكم للمذكور ونفيه مما عداه^(٣)، وهذا المعنى مستمد من التعريف لأن طبيعة الحكم أو النسبة في الجملة تطوي وراءها حكماً آخر أو نسبة أخرى. فتخصيص الشيء بالشيء يعني أن تجعله له وألا تجعله لغيره، وكأنك قلت هو له وليس لغيره. ففيها إثبات ونفي، إثبات منصوص عليه، ونفي متضمن في هذا الإثبات^(٤).

(١) بدائع القصر، ص ١٦.

(٢) شروح التلخيص، ج ٢، ص ١٦٦، وانظر حاشية السيد علي المطول، ص ٢٠٤.

(٣) شروح التلخيص، ج ٢، ص ١٦٦.

(٤) دلالات التراكيب، محمد أبو موسى، ص ٢٢.

ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ

يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة/٥٥): إثبات الولاية لله

سبحانه وتعالى، وللرسول صلى الله وسلم وللذين آمنوا ونفي الولاية عن غيرهم.

وقد جاء هذا النفي من طبيعة دلالة القصر؛ لأن الولاية ما دامت مقصورة على الله

سبحانه وتعالى، والرسول صلى الله عليه وسلم، والذين آمنوا فإنها منفية عن

غيرهم. ويمكن توضيح هذه الآية كالآتي:

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ	←	إثبات صفة الولاية	←	نفي لكل الموصوفين من
ورسوله		الله والرسول والذين		الاتصاف، بصفة الولاية
والذين آمنوا)		آمنوا		ما عدا الله ورسوله
				والذين آمنوا.

فجملة الحصر - إذن - تتضمن إثباتاً ونفيًا، وهذا النفي المتضمن في

جملة الحصر يقسم الحصر إلى قسمين كلاهما ممكن، وذلك بالنظر إلى المنفي فقد

يكون عاماً، وقد يكون خاصاً.

فإذا قصد المتكلم في جملة الحصر نفي العموم كان الحصر حصراً

حقيقياً، فمثلاً: لو كان الناجح الوحيد في الامتحان محمداً، وأراد المتكلم أن يعبر

عن هذه الحقيقة بأسلوب الحصر، فإنه يقول: "ما نجح إلا محمد" ففي هذه الجملة

قرر المتكلم الحقيقة التي يعرفها المخاطبون. فأثبت النجاح لمحمد ونفاه عن

غيره. فالمتكلم هنا كان يقصد نفي العموم بحيث يشمل كل موصوف ما عدا

محمد.

أما إذا قصد المتكلم نفي الخصوص فيكون الحصر حصراً إضافياً.

ففي المثال السابق: لو اعتقد بعضهم أي "المخاطبون" أن الناجح الوحيد علي أو

عمر لا محمد. وأراد المتكلم أن يثبت العكس. أي أن يثبت النجاح الوحيد لمحمد

وينفيه عن علي أو عمر فإنه يقول - أيضاً - : "ما نجح إلا محمد" ففي هذه الجملة

قلب المتكلم اعتقاد المخاطب. فأثبت النجاح لمحمد ونفاه عن أناس مخصوصين

معينين. فالمتكلم هنا كان يقصد نفي الخصوص بحيث لا يتعدى علياً أو عمر.

نخلص من ذلك إلى أن الحصر بالنظر إلى قصد المتكلم في عموم النفي وخصوصه ينقسم إلى قسمين أساسيين:

الأول: الحصر الحقيقي

الثاني: الحصر الإضافي.

المطلب الثالث: الحصر الحقيقي

الحصر الحقيقي أت من التعريف الاصطلاحي للحصر - فكما تقدم - فالحصر في التعريف الاصطلاحي:

تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص. والتخصيص هنا ورد مطلقاً - عاماً - دون تقييد. ومطلق التخصيص ضد المشاركة، ومطلق التخصيص أيضاً يستلزم الإثبات والنفي المطلق حتى لا يتحقق المشاركة. إذ بإطلاق التخصيص يتوجه النفي إلى العموم لا إلى الخصوص. وعندما توجه النفي إلى العموم لا إلى الخصوص طابق الحقيقة والواقع ولما كان كذلك ناسب أن يسمى التعريف الاصطلاحي للحصر حصراً حقيقياً. إذ إن الأصل في الحصر أن يكون حقيقياً مما يعطي أهمية كبرى له وإلى هذا المعنى أشار السيد الشريف^(١) إذ يقول: "والظاهر أن تخصيص الشيء بالشيء على أنه لا يتجاوزه إلى غيره أصلاً إنما يسمى قصراً أو تخصيصاً حقيقياً لأنه حقيقة التخصيص المنافية للاشتراك، ولذلك يتبادر هذا المعنى عند إطلاق التخصيص وما في معناه، وأما تخصيص الشيء بآخر على معنى أنه لا يتجاوزه إلى بعض ما عداه فهو معنى مجازي للتخصيص (أي الحصر الإضافي) غير مناف للاشتراك، ولذلك يحتاج في فهمه

(١) حاشية السيد علي المطول، ص ٢٠٤.

من لفظ التخصيص إلى قرينة، ويسمى تخصيصاً غير حقيقي (أي ما يسمى بالحصر الإضافي).

نخلص من ذلك إلى أن الحصر الحقيقي: هو ما كان التخصيص فيه بحسب الحقيقة والواقع بحيث يتوجه النفي فيه إلى العموم وليس إلى الخصوص. وهذا التعريف مستمد من التعريف الاصطلاحي للحصر.

الحصر الحقيقي من حيث طرفاه

ينقسم الحصر الحقيقي باعتبار طرفيه إلى قسميه:

الأول: قصر الصفة على الموصوف

الثاني: قصر الموصوف على الصفة.

أما الأول: قصر الصفة على الموصوف قصراً حقيقياً: فيتحقق ألا تتجاوز تلك الصفة ذلك الموصوف إلى موصوف آخر، لكن يجوز أن يكون لذلك الموصوف صفات أخرى.

ومن أمثلة الحصر الحقيقي من حيث قصر الصفة على الموصوف في القرآن الكريم جميع آيات التوحيد. وذلك لأن صفة الألوهية محصورة فيه سبحانه وتعالى لا تتعداه إلى غيره. وهي صفة ثابتة لا يشاركه سبحانه فيها أحد، هذا مع وجود صفات أخرى لله تعالى: مثل؛ الرحمة والمغفرة والرافعة والعلم والسمع... ومن هذه الآيات قوله تعالى:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (الصافات، ٣٥).

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة، ١٦٣).

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (البقرة، ٢٥٥).

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام، ١٠٢).

- ﴿ لا إله إلا هو يحيي ويميت ﴾ (الأعراف، ١٥٨).
- ﴿ لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ (التوبة، ٣١).
- ﴿ لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ﴾ (الحشر، ٢٢).
- ﴿ لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ (النحل، ٢).
- ﴿ لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (الأنبياء، ٢٥).
- ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك ﴾ (الأنبياء، ٨٧).
- ﴿ اتخذوا أبنائهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ (التوبة، ٣٢).
- ﴿ الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾ (طه، ٨).
- ﴿ إنما الحكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما ﴾ (طه، ٨٩).
- ﴿ لو أُرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (الأنبياء، ٢٥).
- ﴿ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم... ﴾ (المؤمنون، ١١٦).
- ﴿ هو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴾ (القصاص، ٧٠).
- ﴿ ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾ (القصاص، ٨٨).
- ﴿ يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ﴾ (فاطر، ٣).
- ﴿ خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون ﴾ (الزمر، ٦٠).
- ﴿ هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴾ (غافر، ٦٥).
- ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم ﴾ (محمد، ١٩).

«هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار
المتكبر سبحان الله عما يشركون» (الحشر، ٢٣).

«واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا، رب المشرق ورب المغرب لا إله إلا هو
فاتخذ له وكيلًا» (المدثر، ٨، ٩).

أما ما قاله البلاغيون في القصر الحقيقي، فقد اعترض الخطيب^(١)
القزويني علي السكاكي بإهماله القصر الحقيقي. وذكر سعد الدين^(٢) التفنيزاني أن
القصر الحقيقي قليل الجدوى. وقلة الجدوى في القصر الحقيقي تعني أنه ليس
وراءه أقسام وأحوال للدراسة كما هو الحال في القصر الإضافي، فالقصر
الإضافي ينقسم إلى قلب وإفراد وتعيين - كما سنرى - وكل قسم من هذه الأقسام
له أحوال، ومجال البحث والنظر والتأمل في القصر الإضافي أكثر.

وقد قام الدكتور محمد أبو موسى بالرد على قول علماء البلاغة القدامى
من أن القصر الحقيقي قليل الجدوى، فقال^(٣): "... ولو أن القوم نظروا إلى قيمته
في الأداء والإبانة وكونه وسيلة من وسائل التعبير المحكمة في مقامات لا ينهض
فيها سواه - لذكروا أنه عظيم الجدوى، ولكن أصل تقويمهم لهذا الضرب هو
ملاحظة ما وراءه من مجالات البحث والنظر. وهو في هذا قليل الجدوى".

ويقول^(٤) في موضع آخر: "أما جدواه أي القصر الحقيقي في الإبانة
والتعبير عن الحقائق الأدبية والمعاني الشعرية فليس هناك ما يشير إلى أنه في هذا
الميدان قليل الجدوى - بل ربما كان في هذا أوسع أفقا وأشمل مجالا من القصر
الإضافي المرتبط غالبا بالأصول الخطابية، والإخبار ومجالات المجاذبات في
الاعتقاد".

ويؤيد ما ذهب إليه الباحث قول السيد الشريف - الذي أشرنا إليه من
قبل - إذ يقول: "والظاهر أن تخصيص الشيء بالشيء على معنى أنه لا يتجاوز
إلى غيره أصلا إنما يسمى قصرا وتخصيصا حقيقيا؛ لأنه حقيقة التخصيص

(١) الإيضاح، للخطيب القزويني، ج ٣، ص ٢٠.

(٢) المطول على التلخيص، سعد الدين التفنيزاني، ص ٢٠٤.

(٣) دلالات التراكيب، د. محمد أبو موسى، ص ٣١.

(٤) حاشية السيد علي المطول، ص ٢٠٤.

المنافية للاشتراك، ولذلك يتبادر - هذا المعنى عند إطلاق التخصيص وما في معناه".

فالأصل في الحصر أن يكون حقيقيا، وقوة التعبير والإبانة إنما كانت كذلك باعتبار القصر فيه قصرا حقيقيا.

ثانيا: قصر الموصوف على الصفة قصرا حقيقيا.

أوردت كتب البلاغة^(١) أن: قصر الموصوف على الصفة قصرا حقيقيا يتحقق بألا يتجاوز الموصوف هذه الصفة إلى غيرها. وقد مثلت لهذا النوع بقولهم: ما زيد إلا كاتب. وكما هو معلوم فجملة الحصر هذه ضمن مفهوم القصر الحقيقي فيها إثبات ونفي، إثبات اتصاف زيد بالكتابة ونفيه عما عداها، والنفي هنا موجه للعموم لكون القصر قصرا حقيقيا. وهذا يعني أنك نفيت اتصاف زيد بأي صفة ممكنة، إلا الكتابة، وقد عقب البلاغيون على ذلك قائلين: إن قصر الموصوف على الصفة قصرا حقيقيا يتعذر وجوده إذا كان المراد أن هذا الموصوف لا يتجاوز هذه الصفة إلى صفة أخرى.

ومن أبرز هؤلاء البلاغيين: الخطيب القزويني إذ يقول^(٢): "إن قصر الموصوف على الصفة قصرا حقيقيا تحقيقيا لا يكاد يوجد في الكلام؛ لأنه ما من مقصور إلا يكون له صفات، تتعذر الإحاطة بها أو تتعسر".

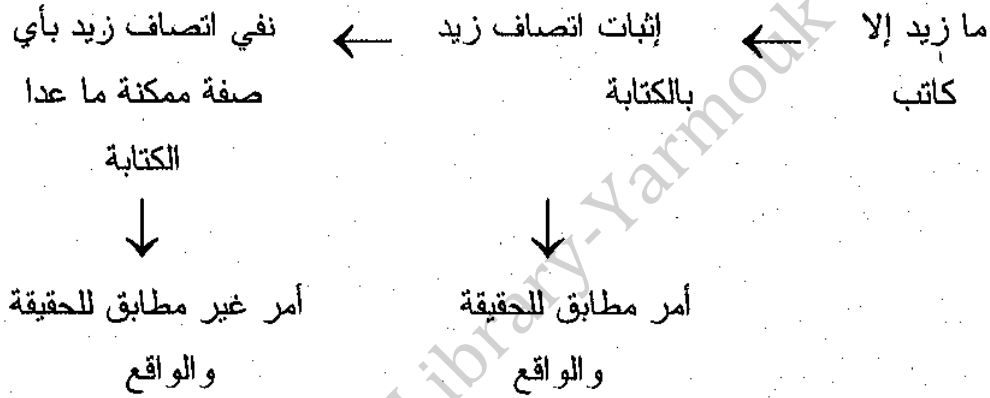
واضح من كلام الخطيب أن قصر الموصوف على الصفة قصرا حقيقيا لا يمكن أن يتحقق؛ لأنه لا يمكن أن يكون للموصوف صفة واحدة ليس له غيرها. فللموصوف صفات كثيرة، والإحاطة بها أمر متعذر، ولا يمكن لأسلوب قصر الموصوف على الصفة إثبات شيء منها ونفي ما عداها. وبناء على ذلك قال البلاغيون^(٣): وإن هذا النوع من القصر لم يقع في القرآن الكريم.

(١) الإيضاح، للخطيب القزويني، ج ٣، ص ٩، وشروح التلخيص (مواهب المفتاح)، ج ٢/١٦٨، والمطول على التلخيص، ص ٢٠٥.

(٢) الإيضاح، للخطيب القزويني، ج ٣، ص ٩.

(٣) علوم البلاغة، أحمد مصطفى المراغي، ص ١٤١.

ويمكن توضيح ما قاله الخطيب بما مثله في قوله: ما زيد إلا كاتب. فنقول: إن جملة الحصر: هذه فيها إثبات ونفي. فالقصر هنا أثبت اتصاف زيد بالكتابة، وإثبات اتصافه بالكتابة أمر مطابق للحقيقة والواقع. أما النفي فهو متضمن في ذلك الإثبات. والنفي - كما قلنا - موجه للعموم لكون القصر قصرا حقيقيا، وهذا يعني أنك نفيت اتصافه بأي صفة ممكنة إلا الكتابة، وهذا النفي غير مطابق للحقيقة والواقع. من هنا قال الخطيب إن هذا القصر لا يمكن أن يتحقق في الواقع. ويمكن توضيح المثال كما يلي:



أن المسألة لم تتوقف عند قول الخطيب بل أخذ مسار البحث فيها طابعا ذهنيا عقليا بعيدا عن الدراسة اللغوية الظاهرية يتضح ذلك من تعليق سعد الدين النفذاني إذ يقول^(١): "إن هذا النوع من القصر مفض إلى المحال؛ لأن للصفة المنفية نقيضا البتة، وهو أيضا من الصفات فإذا نفيت جميع الصفات لزم ارتفاع النقيضتين؛ مثلا: إذا قلت: "ما زيد إلا كاتب" على معنى أنه لا يتصف بغيرها لزم أن لا يتصف بالشاعرية ولا بعدمها وهو محال".

أما ابن يعقوب المغربي فقد علق على قول الخطيب بقوله^(٢): "وإنما تعذرت الإحاطة بالأوصاف لما علم أن العاقل لا يحيط بأوصاف نفسه لا سيما الباطنية والاعتبارية فكيف بأوصاف غيره؟ وقيل: إن وجود معناه محال؛ لأننا إذا أثبتنا بطريق من طرق الحصر صفة ونفيها ما سواها من الأوصاف، فتلك

(١) المطول على التلخيص، سعد الدين النفذاني، ص ٢٠٥.

(٢) شروح التلخيص (مواهب المفتاح)، ج ٢، ١٧٢.

الأوصاف المنفية لها نقيض ثبوتها، ولا بد من تحقق ذلك النفي الذي هو النقيض بأن يتقرر مع الصفة المثبتة، إذ لو رفع ذلك النفي مع رفع نقيضه وهو نفس الأوصاف المنفية لزم ارتفاع النقيضين وهو محال. فإن قلنا مثلاً: ما زيد إلا كاتب: فمعناه على القصر الحقيقي؛ أن زيداً لم يتصف بوصف آخر غير الكتابة من شعر وقيام وقعود، وغير ذلك. فهذه الأوصاف المنفية وغيرها لا بد من ثبوت نقيضها مع الكتابة وإلا لزم ارتفاعها ارتفاع نقيضها".

وقد بحث الدسوقي مسألة النقيض بحثاً فلسفياً ذهنياً، وضرب عليه مثلاً بحركة الجسم وسكونه فقال^(١): "..... إذ من الصفات الوجودية ما يستلزم نقيض إحداها عين الأخرى كحركة الجسم وسكونه، فيلزم ذلك المحال قطعاً، إذ من جملة المنفيات الحركة فيلزم ثبوت السكون عند انتقائها. ولا يتأتى نفيهما معاً لمساواة كل منهما لنقيض الآخر... أو لأن إحدى الصفتين الحركة أو السكون يجب أن تلازم الأخرى.

وهكذا فقد بحثت هذه المسألة عند البلاغيين المتأخرين بحثاً فلسفياً عقلياً بعيداً عن الدراسة اللغوية الظاهرية، وما تقتضيه الدلالة اللغوية لها. والبلاغيون لما رأوا في جملة الحصر: ما زيد إلا كاتب. أنها لا تكون قصراً حقيقياً أرادوا أن يثبتوا ذلك عقلياً وذهنياً، فذهبوا إلى أبعد مما ذهب إليه الخطيب فسلطوا النظر على الأوصاف المنفية، ولما كان النفي موجهاً إلى العموم في جملة الحصر تلك، قالوا: إن الأوصاف المنفية هي كل ما يمكن أن يتصف به الموصوف من صفات وجودية ونقيضها (وهو العدم)، فالأوصاف المنفية في تلك الجملة على سبيل المثال: الشاعرية (وهي نقيض الكتابة)، والطول والقصر، والبياض والسواد، والكلام والصمت، والحركة والسكون..... الخ.

ثم قالوا: لا يمكن نفي الصفة ونقيضها في وقت معاً إذ يستحيل أن ننفي الكلام والصمت، أو الحركة والسكون في آن معاً عن الموصوف وهو الإنسان. فإذا نفيت الصفة الوجودية عن زيد وجب أن يثبت نقيضها مع الكتابة له. فإذا نفيت الشاعرية ثبتت الكتابة وثبت معها أيضاً على سبيل المثال: الطول

(١) شروح التلخيص، حاشية الدسوقي، ج ٢، ١٧٣.

والبياض والكلام والسكون. وهذا محال لأن ثبوت مثل هذه الصفات منسافٍ للتخصيص.

وإذا نفيت الصفة الوجودية ونقيضها كالتطول والقصر والبياض والسواد، والكلام والصمت، والحركة والسكون... لزم نفي النقيضين الشعاعية والكتابة وهذا محال أيضاً.

وبهذا فإن هذا البحث العقلي الذهني الدقيق للمسألة زادها تعقيداً وغموضاً؛ لأنه ابتعد كثيراً عن الدراسة اللغوية الظاهرية وما تقتضيه الدلالة اللغوية لها.

نخلص من ذلك كله إلى أن قصر الموصوف على الصفة قصراً حقيقياً عند أولئك البلاغيين لا يمكن أن يتحقق. وإلى مثل هذا الرأي ذهب بعض المحدثين أبرزهم: أحمد الهاشمي^(١)، وأحمد المراعي^(٢)، وعبدالفتاح لاشين^(٣)، وأحمد مطلوب^(٤).

إلا أن الأمر لم يتوقف عند ما قاله البلاغيون من أن قصر الموصوف على الصفة لا يكون حقيقياً فقد تناول الدكتور محمد أبو موسى^(٥) أحد البلاغيين المحدثين هذه المسألة بالبحث والدراسة، وتتبع ما قاله الخطيب وسعد الدين والدسوقي فيها. ورأى أن البحث في هذه المسألة سلك سبيله إلى دروب بعيدة عن الدلالة اللغوية، وأوغل في المقتضيات الذهنية العميقة التي لا ترد في خاطر السامع.

لذا فقد رأى الدكتور أبو موسى أن المسألة أبسط من تعقيدات البلاغيين. ويرى أن تناول هذه المسألة يجب أن يكون في حدود ما تقتضيه الدلالة اللغوية الظاهرية لها.

(١) انظر جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، ص ١٨٥.

(٢) انظر علوم البلاغة، ص ١٤١.

(٣) انظر المعاني في ضوء أساليب القرآن، عبدالفتاح لاشين، ص ٢٧٦-٢٧٣.

(٤) انظر أساليب بلاغية، أحمد مطلوب، ص ١٧٧-١٧٨.

(٥) دلالات التراكيب، ص ٤٠.

إذ يقول^(١): "والذي أريد أن أقوله في هذه المسألة هو أن التبادر كما يقول اللغويون من أهم أمارات الحقيقة، فالدلالة اللغوية يحكمها عرف بياني، وضوابط تحدد الدلالة، فالذي يسمع قولك: ما زيدٌ إلا كاتبٌ. لا يرد في خاطره أنك تنفي عن زيد كونه أبيض أو أسود، أو طويلاً أو ربة، وإنما يفهم أنك عنيت بالنفي ما هو من الكتابة بسبيل يعني انه ليس شاعراً، ولا خطيباً، ولا فقيهاً، ولا نحويًا، وإنما هو كاتب فحسب".

ولما كان النفي الموجه للعموم في جملة الحصر: ما زيدٌ إلا كاتبٌ. أساس التعقيدات الذهنية عند البلاغيين وسبباً للجروح عن الدلالة اللغوية. أراد الدكتور أبو موسى أن يحل إشكالية النفي هذه في جملة الحصر تلك فقال^(٢): "وتحديد النفي بماله صلة بالمذكور وبما يتبادر إلى الذهن من العبارة لا يقدح في كون القصر حقيقياً وأن النفي متجه إلى كل ما عدا المذكور لأننا نريد بهذه الكلية، وبهذا العموم ما هو داخل في الإطار. والمرتبط ارتباطاً بالمذكور، فليس هاهنا صفات محدودة ومعينة وقع فيها جدال والنفي قاصد إليها حتى يكون إضافياً، وإنما نطلق النفي إطلاقاً عاماً ليشمل ما يرد في خاطر في هذا الشأن، ولكنك لا تقممه في مثل كونه موجوداً أو معدوماً، أو متكلماً أو صامتاً، فهذا بعيد عن أفق العبارة، فلا يدخل في دلالتها، وإنما أدناه إلى أفقها التحقيقات الفعلية على حد ما قلنا في: "ضرب محمد زيداً" إنك حين تسمع هذه الجملة تفهم دلالتها، وهي وقع ضرب من محمد على زيد، أما كون الضرب يشمل كل ضرب، وأن الضرب لم يقع من كل محمد وأنه لم يقع على كل زيد، فهذه دلالات تجفوها الدلالة اللغوية للتركيب^(٣). يتضح أن الدكتور أبو موسى يرى أن العموم في هذه المسألة تحده الدلالة اللغوية الظاهرية لها، فالعموم يشمل ما يرد في خاطر. بينما يرى البلاغيون أن العموم في هذه المسألة يحدده العقل والمنطق، فالعموم شيء مطلق يشمل كل شيء؛ ما يرد في خاطر وما لم يرد...

(١) المصدر السابق نفسه ص ٤٠.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٤٠.

(٣) دلالات التركيب، ص ٤١.

وشبه الدكتور أبو موسى^(١) جنوح البلاغيين في بحث دلالة هذه المسألة بما تذكره طائفة من اللغوية الذي ينزعون في بحث اللغة منزعاً عقلياً فيذهبون إلى القول بأن أكثر اللغة مجاز. وفي قولك: ضرب محمد زيداً وذلك لأن الذي كان من زيد ليس هو الضرب. فالضرب جنس يشمل كل ضرب. وإنما كان من زيد ضرب مخصوص، ففي لفظ ضرب مجاز من إطلاق الكل على الجزء. ثم إن إسناد الضرب لمحمد مجاز أيضاً لأن محمداً لم يضرب وإنما ضربت يده أو سوطه أو قبضته، ثم إن وقوع الضرب على زيد مجاز لأن المضروب ليس كل زيد وإنما وجهه أو قفاه أو رأسه إلى آخر التحقيقات التي يراها بمنأى عن الدلالة اللغوية.

وبعد ذلك كله ينتقل الدكتور أبو موسى إلى الدليل الذي يستدل به على صحة رأيه في هذه المسألة فيقول^(٢): "... وكان عبدالقاهر دقيق الحسن بطبيعة الدلالة فذكر في هذا الشأن إشارة لو تنبه إليها الخطيب وسعد الدين والدسوقي وغيرهم لكفوا عن أن يلجوا بالمسألة في هذا الباب.

قال عبدالقاهر الجرجاني^(٣): "واعلم أن قولنا في الخبر نحو ما زيد إلا قائم إنك اختصت القيام من بين الأوصاف التي يتوهم كون زيد عليها، ونفيت ما عدا القيام عنه. فإنما نعني أنك نفيت عنه الأوصاف التي ينافي القيام نحو أن يكون جالساً. أو مضطجعاً، أو متكئاً، أو شاكل ذلك، ولم ترد أنك نفيت ما ليس من القيام بسبيل، إذ لسنا ننفي عنه بقولنا: ما هو إلا قائم أن يكون أسود أو أبيض أو طويلاً أو قصيراً أو عالماً أو جاهلاً، كما أنا إذا قلنا: ما قائم إلا زيد لم نرد أنه ليس في الدنيا قائم سواه، وإنما نعني ما قائم حيث نحن وبحضرتنا وما أشبه ذلك".

يتضح أن الدكتور أبو موسى يرى أن عبدالقاهر الجرجاني إنما كان يقصد بقوله هذا القصر الحقيقي، وبناءً على ذلك يرى أن القصر الحقيقي يكون

(١) دلالات التراكيب، ص ٤٠.

(٢) دلالات التراكيب، ص ٤١.

(٣) دلائل الإعجاز، ص ٢٦٣.

النفي فيه متوجهاً إلى كل ما عدا المذكور، وهذه الكلية تكون في حدود الدلالة اللغوية وما يتبادر منها من إشارة السياق والقرائن

المطلب الرابع: الحصر الحقيقي على سبيل الإدعاء

قلنا إن الحصر الحقيقي: هو ما كان التخصيص فيه بحسب الحقيقة والواقع بحيث يتوجه النفي فيه إلى العموم وليس إلى الخصوص. وهذا مستمد من التعريف الاصطلاحي للحصر. ويلاحظ - كما قلنا - إن هناك عنصرين يحددان التخصيص في الحصر الحقيقي وهما:

الأول: أن يكون النفي في التخصيص متوجهاً إلى العموم.

الثاني: أن يكون التخصيص مطابقاً للحقيقة والواقع.

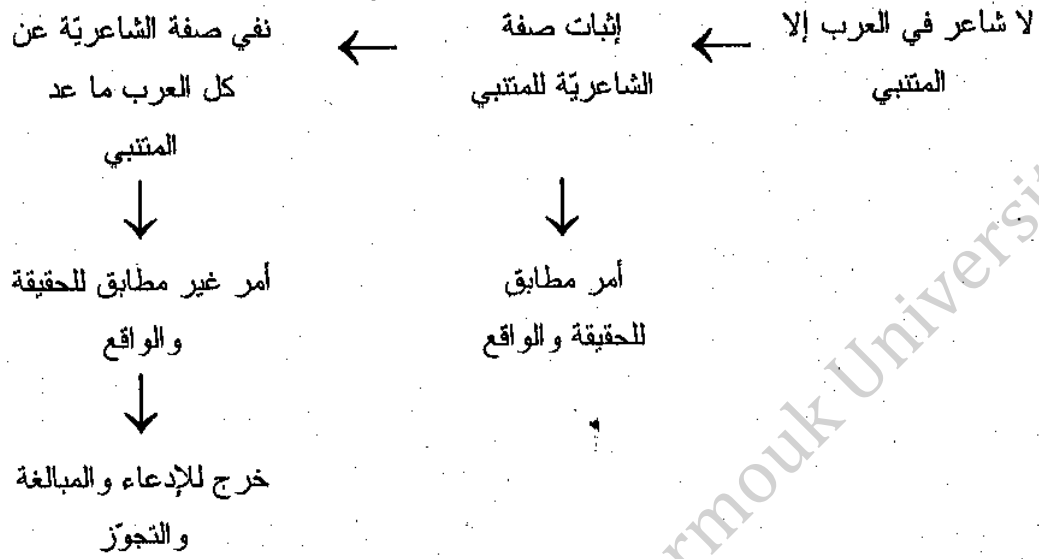
والحصر الحقيقي على سبيل الإدعاء مأخوذ من الحصر الحقيقي: "وهو الذي يكون فيه نفي المقصور عن كل ما عدا المقصور عليه بطريق العموم. إلا أن نفي العموم في هذا القصر وإن شارك المقصور عليه في الصفة نفسها إلا أنه ينزل منزلة العدم"^(١).

ومثال هذا الحصر من حيث "قصر الصفة على الموصوف" قولنا^(٢): لا شاعر في العرب إلا المتنبي. فجملة الحصر هذه منافية للحقيقة والواقع - كما نرى - إذ إن الحقيقة والواقع يقولان إن هناك شعراء عرباً كثيراً غير المتنبي. إلا أن نفي الشاعرية عن العرب وإثباتها للمتنبي بأسلوب الحصر إنما هو سبيل الإدعاء والمبالغة. فنحن لا نريد الاعتراف بالشعراء العرب ادعاءً ومبالغةً في إضفاء الشاعرية للمتنبي. ويمكن توضيح المثال كما يلي:

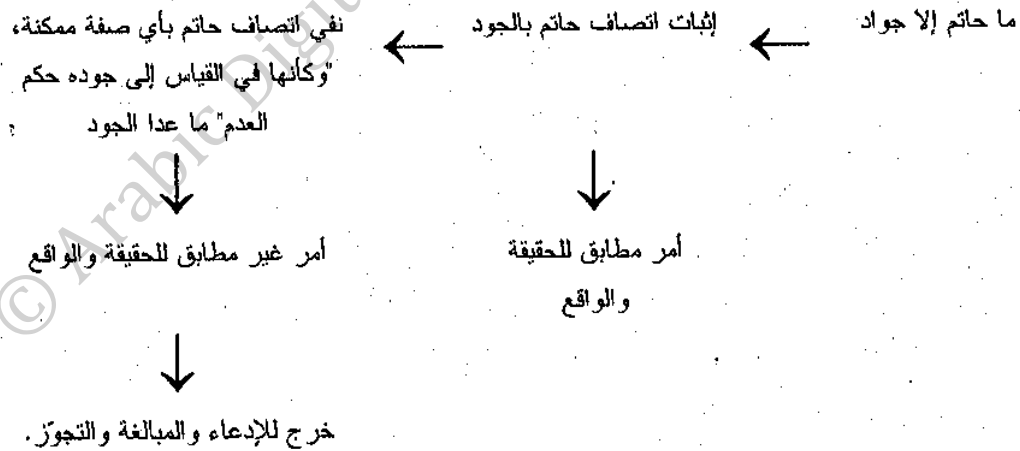
(١) انظر شروح التخصيص (عروس الافراج)، ج ٢، ص ١٦٩، و ١٧٠، وشروح التلخيص، ج ٢، ص ١٧٤،

والمطول على التلخيص، ص ٢٠٦.

(٢) أساليب بلاغية، أحمد مطلوب، ص ١٧٩.



ومثال "قصر الموصوف على الصفة" قولنا^(١): "ما حاتم إلا جواد"، نريد أنه لا يوصف بغير الجود من الصفات مبالغة في كمال الجود فيه، فكان أي صفة فيه بالقياس إلى جوده في حكم العدم. ويمكن توضيح المثال كما يلي:



ومثل هذا الحصر نجده في النثر والشعر فعندما نقول: لا شاعر في العرب إلا المتنبّي. ففي هذه الجملة ترى المبالغة في أقصى حدودها. إذ هناك شعراء أكثر غير المتنبّي. وهنا نتساءل: ما الذي جعلنا ندعي مثل هذا الادعاء ونلقي مثل هذا الحكم؟

(١) شروح التلخيص (عروس الأفراح)، ج ٢، ١٧٠.

لا بد أن هناك أشياء كثيرة بالإضافة إلى شاعرية المتنبي غير متوافرة في شاعر غيره. منها على سبيل المثال: شجاعته، وفروسيته، واعتداده بنفسه، وطموحه، وعلاقته بسيف الدولة ورحلته الفاشلة إلى مصر، وما يروى عن فضله، واهتمام النقاد والأدباء به.

فحياة الشاعر التي عاشها ألقت بظلالها على مشاعرنا وأحاسيسنا عند إلقاء الحكم، وعلى ذلك فحكمنا انطباعي ومثل هذا الحكم غير دقيق؛ لأن المشاعر والأحاسيس تختلف من شخص إلى آخر ومن أمه إلى أخرى ومن ثقافة إلى أخرى أيضاً:

ومثاله أيضاً قول الفرزدق^(١):

أنا الذائد الحامي الذمار، وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي
وقول الشاعر^(٢):

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء
ويرى الباحث أن الحصر الحقيقي على سبيل الادعاء بهذا المفهوم لسم يرد في القرآن الكريم إلا في موضع واحد وذلك في سورة يوسف في قوله تعالى على لسان النسوة "﴿لَمَّا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾" (يوسف، ٣١) فالحصر هنا ليس حصراً كاذباً إطلاقاً وإنما حصر حقيقي مبالغ فيه أو ادعائي.
أمّا الآيات التي أتت على لسان المشركين والكفرة فهذه الآيات لم تأت حصراً حقيقياً على سبيل الادعاء، وإنما أتت حصراً كاذباً إدعائياً إن جازت التسمية وأبرز أمثلتها قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ. قَالُوا: إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (البقرة، ١١)
﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكِ بَأْسُهُمْ قَالُوا: إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَهْلَ اللَّهِ الْبَيْعُ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ (البقرة، ٢٧٥).

﴿قَالُوا لَنْ نَمْسَا النَّارَ إِلَّا أَيْامًا معدودة﴾ (البقرة، ٨٠) و (آل عمران، ٢٤).

(١) ديوان الفرزدق، ج ٢، ص ١٥٣، ولفظه بالديوان، أن الضامن الراعي....

(٢) ديوان عبيد الله ابن قيس الرقيات، ص ٩١، وانظر دلائل الإعجاز، ص ٢٥٥.

- ﴿لَوْ قَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ (البقرة، ١١١).
- ﴿لَنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (المؤمنين، ٣٧).
- ﴿لَنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ (المؤمنون، ٣٨).
- ﴿لَوْ لَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرَجُونَ لَقَالُوا: إِنَّمَا سَكْرَةٌ أَبْصَرْنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ (الحجر، ١٥-١٤).
- ﴿لَوْ إِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَنْزِلُ قَالُوا: إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (النحل، ١٠١).
- ﴿قَالُوا: إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ﴾ (الشعراء، ١٨٥).
- ﴿لَوْ قَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ (الفرقان، ٨).
- ﴿لَوْ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا: إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ (الفرقان، ٤).
- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا: مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٍ﴾ (التقصص، ٣٦).
- ﴿لَوْ إِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسِفِرُونَ، وَقَالُوا: إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الصافات، ١٤، ١٥).
- ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ: مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (المؤمن غافر، ٢٩).
- ﴿لَنْ هَؤُلَاءِ لِيَقُولُوا، إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ (الدخان، ٣٤).

٣٥

المطلب الخامس: الحصر الإضافي

ذكر البلاغيون الحصر الإضافي قسيما للحصر الحقيقي؛ فقالوا: إن الحصر ينقسم إلى قسمين هما^(١):

(١) شروح التلخيص، ج ٢، ص ١٦٦-١٦٧.

الأول: الحصر الحقيقي.

الثاني: الحصر غير الحقيقي.

والحصر غير الحقيقي هو ما اصطلاحوا عليه باسم الحصر الإضافي^(١).

والحصر الإضافي أت من التعريف الاصطلاحي للحصر: فهو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص - كالحصر الحقيقي - ولكن المراد بالتخصيص هنا أن يكون بحسب الإضافة إلى شيء معين. فالإضافة تعني أن يكون التخصيص مقيداً بشيء معين وليس مطلقاً كالحقيقي.

فالحصر الإضافي^(٢) هو أن يختص المقصور بالمقصود عليه بالنسبة إلى شيء معين، أي بالإضافة إليه، ألا يتجاوز المقصور المقصود عليه إلى ذلك وإن أمكن تجاوزه إلى غيره. أو هو ما كان النفي فيه موجهاً إلى الخصوص لا إلى العموم.

فمثلاً: يقول أبو العلاء المعري: أنا والمتنبي حكيمان. إنما الشاعر البحتري. فقول المعري إنما الشاعر البحتري كان بالنظر له وللمتنبي. ففي هذه الجملة قصرنا صفة "الشاعرية" على "البحتري"، فالشاعرية مقصورة عليه بالنسبة للمعري والمتنبي. وليس المقصود أن الشاعرية وقف على البحتري وحسده دون غيره من الشعراء؛ إذ يمكن أن تتعدى الشاعرية البحتري إلى غيره كأبي تمام مثلاً.

يتضح هنا أن النفي كان خاصاً وليس عاماً، فجملة الحصر هذه لم تتف "الشاعرية" عن كل ما عدا "البحتري" نفياً عاماً، وإنما نفتها نفياً خاصاً عن "المعري و المتنبي" مثلاً. فالنفي لم يتطرق إلى بقية الشعراء.

والذي حدد كون النفي خاصاً في جملة الحصر هذه الحال التي قيلت فيه هذه الجملة، والسياق الذي وردت فيه. وبناءً على ذلك جاء قصد المتكلم.

(١) المصدر السابق نفسه ج ٢، ص ١٦٦-١٦٧.

(٢) انظر: المصدر السابق نفسه ج ٢، ص ١٦٦-١٦٧.

فالمتكلم قصد أن يكون التخصيص لموصوف ما وهو هنا "شوقي" بالنسبة لموصوف معين وهو "حافظ".

وقد ذكر البلاغيون أن معتقد المخاطب^(١) أو حاله هو الذي يحدد هذا البعض، وكان العبارة موجهة إلى موقف معين هو الذي يحدد دلالتها ما دام المتكلم قصد بها إليه، وأودعها من الخصائص والأحوال ما يطابق حال هذا المخاطب أو حال هذا الموقف، وكان الجملة استمدت عناصرها البلاغية من دواخل نفس المخاطب وأحوالها وبذلك تتحدد دلالتها وتضبط حدودها ويخصص عمومها.

وما دام الحصر يعتمد على معتقد المخاطب، فهذا يعني أننا أمام تنوع خطابي؛ لأن اعتقاد المخاطب مختلف من شخص إلى آخر. والتأثير في معتقد المخاطب يحتاج إلى متكلم متفنن يراعي المواقف والظروف والحالات التي يكون فيها المخاطب.

والعلاقة بين المتكلم والمخاطب هي علاقة بين مؤثر ومستجيب لهذا المؤثر. فتأثير المتكلم واستجابة المخاطب له مرتبطة بفهم المتكلم وأحواله وظروفه. فعلى قدر فهم المتكلم للمخاطب يكون كلامه مؤثراً لدى المخاطب. وحال المخاطب بجميع جوانبها؛ أفكاره، وخواطره، ومشاعره، وإحساساته، وآلامه وأماله وأحزانه.... تكون منعكسة في نفس المتكلم عندما يلقي خطابه.

وأحوال المخاطب في الحصر الإضافي لا تخلو من أحوال ثلاثة بالنسبة للحكم المثبت في جملة الحصر وهي كما ذكر البلاغيون^(٢):

١. إما أن يكون المخاطب معتقداً الشركة في الحكم بين المقصور عليه وغيره. وهنا نريد قطع الشركة بما يسمى "قصر الأفراد".

(١) أنظر: المصدر السابق نفسه ج ٢، ص ١٦٦-١٦٧.

(٢) أنظر شروح التلخيص، ج ٢/ص (١٧٦)-(١٨١)، وحاشية السيد علي المطول، ص ٢٠٧، و

٢٠٨، وعلم المعاني، درويش الجندي، ص ١٣٢.

٢. وإما أن يكون معتقدا عكس الحكم الذي تثبته جملة الحصر. وهنا نريد قلب اعتقاد المخاطب بما يسمى "قصر القلب".

٣. وإما أن يكون مترددا في الحكم بين المقصور عليه وغيره. وهنا نريد تصحيح اعتقاد المخاطب بما يسمى "قصر التعيين".

وعلى ذلك فقد قسم الحصر الإضافي بحسب حال المخاطب إلى ثلاثة أقسام:

١. قصر أفراد: "ويكون ذلك بتخصيص شئ دون شئ، أي تخصيص أمر بصفة دون أخرى، وهو قصر موصوف على صفة، وتخصيص صفة بأمر دون آخر، وهو قصر صفة على موصوف"^(١) و"قصر الافراد يقصد به الرد على المخاطب الذي يعتقد الشركة في الحكم بين المقصور عليه وغيره"^(٢).

أي أن "يعتقد المخاطب شركة صفتين أو أكثر في موصوف واحد، في قصر الموصوف على الصفة، أو شركة موصوفين أو أكثر في قصر الصفة على الموصوف"^(٣).

ومن شواهد قصر الأفراد:

قوله تعالى: ﴿لَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، إِنْ يَمْسِكُكُمْ قَرْمٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْمٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ، وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ، أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ، وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمْنُونَ الْوَيْتَ مِنْ قَبْلُ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ، وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ

(١) 'شروح التلخيص، ج ٢/ ص ١٧٥، وانظر: ص ١٧٦-١٧٩، وانظر حاشية السيد علي المطول، ص ٢٠٧.

(٢) انظر علم المعاني. درويش الجندي، ص ١٣٢، وهامش الايضاح، للقزويني، د. محمد خفاجي، ص ١٤.

(٣) 'شروح التلخيص، ج ٢، ص ١٧٩، وحاشية السيد علي المطول، ص ٢٠٧.

يُنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ فَمَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣٩﴾ (ال عمران ١٤٤، ١٤٣، ١٤٢، ١٤١، ١٤٠، ١٣٩).

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَخَذُوا إِلَٰهِينَ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُون﴾ (النحل، ٥١).

أما الآن فأورد كلتا المجموعتين من الآيات تمثل شواهد على قصر الأفراد، أما المجموعة الأولى فتتحدث عن حصر الرسول صلى الله عليه وسلم في كونه مبلغاً، والمجموعة الثانية تتحدث عن حصره صلى الله عليه وسلم في كونه نذيراً على النحو الآتي: قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجَّوكَ فَقُلْ: أَسَلَّمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنَ وَقُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ وَالْأَمْبِيِينَ أَسَلَّمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَّمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (ال عمران، ٢٠).

﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِين﴾ (المائدة، ٩٢).

﴿لَمَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (المائدة، ٩٩).
﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نتَوْفِينَكُ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (الرعد، ٤٠).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَكَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِين﴾ (النحل، ٣٥).

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظُلُمًا، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا، وَجَعَلَ لَكُمْ سُرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسُرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ، كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْلَمُونَ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِين﴾ (النحل، ٨٢، ٨١).

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِين﴾ (النور، ٥٤).

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (العنكبوت، ١٧، ١٨).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ، وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (يس، ١٦).

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَمَّ بِهَا وَإِنْ نَصَبْهُمْ سِيقًا بَمَا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ (الشورى، ٤٨).

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (التغابن، ١٢).

أما الآن فنأتي إلى المجموعة الثانية التي تتضمن آيات الإنذار فسي قوله تعالى:

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْفَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف، ١٨٨).

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقُرْآنُ أَنْ يَقُولُوا ذُرِّيَّتُ اللَّهِ حَالِمْ إِنْ يَحْلُمِ عَلَيْكُمْ فَدَعَا فِي قُلُوبِهِمْ لِيُحْمِلُوهُ عَنْكُمْ وَالْإِنْسَانُ لَكَافٍ﴾ (هود، ١٢).

﴿قَالَ وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ، وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ (الشعراء، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥).

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (العنكبوت، ٥٠).

﴿قُلْ: إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (ص، ٦٥).

﴿وَمَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ، إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (ص، ٦٩، ٧٠).

﴿قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين﴾ (الأحقاف، ٩).

﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين﴾ (القم ٢٥، ٢٦).

قصر القلب

ويكون ذلك "بتخصيص شيء مكان شيء" ^(١)، أي "تخصيص أمر بصفة مكان أخرى وتخصيص صفة بأمر مكان آخر، أي قصر موصوف على صفة وقصر صفة على موصوف" ^(٢). وقصر القلب: يعمل على قلب معتقد المخاطب بهدف إيصاله إلى الحقيقة، وتصحيح معتقده، لذا يقصد به الرد على المخاطب الذي يعتقد عكس الحكم الذي يقصده المتكلم بالقصر. ومن شواهد قصر القلب في القرآن الكريم:

قوله تعالى: ﴿وَإِذ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ، مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ (المائدة ١١٦، ١١٧).

إن الله سبحانه ليعلم ما قال سيدنا عيسى عليه السلام للناس. ولكن لا بد من استجواب سيدنا عيسى عليه السلام في ما نسب إليه. لعظم تلك الفرية.... ولكن متى سيتم استجوابه؟ ولماذا هذا الاستجواب؟ "إن الاستجواب الهائل الرهيب سيكون في اليوم العظيم المرهوب. والمقصود منه غير المسؤول ولكن في صورته هذه، وفي الإجابة عليه ما يزيد

(١) شروح التلخيص؛ ج ٢، ص ١٧٩.

(٢) الإيضاح، للخطيب القزويني، ج ٣، ص ١٥، وانظر حاشية السيد علي المطول، ص ٢٠٨.

من بشاعة موقف المؤلّمين لهذا العبد الصالح الكريم" من أجل ذلك كان الجواب الواجه الراجف الخاشع المنيب...^(١) يبدأ بالتسبيح والتتزيه: "قال: "سبحانك" إذ إن السبحانية تضاد الشرك بالله.

ويسرع إلى التبرؤ المطلق من أن يكون من شأنه أن يقول مثل هذا القول أصلاً: "ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق" فلا ينبغي فقط أنه قال، وإنما يجعل صدور مثل هذا القول مما لا ينبغي أن يكون منه، وأنه لا يصدر عن خلق عليه السلام وعبوديته والتزامه بالحق.

ويستشهد بذات الله سبحانه على براءته؛ مع التصاغر أمام الله وبيان خصائص عبوديته وخصائص ألوهية ربه^(٢): "إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب".

وعندئذ فقط، وبعد هذه التسبيحة الطويلة يجرؤ على الإثبات والتقرير فيما قاله وفيما لم يقله. فيثبت أنه لم يقل لهم إلا أن أعلن عبوديته وعبوديتهم لله ويدعوهم إلى عبادته:

"ما قلت لهم إلا ما أمرتني به: أن اعبدوا الله ربي وربكم"^(٣).

فالقصر هنا قصر قلب أتى للرد على الكفرة الذين نسبوا إلى سيدنا عيسى عليه السلام تلك الفرية بزعمهم أنه قال: "اتخذوني وأمي إلهين" فانت جملّة الحصر لإبطال زعمهم وتفنيد ونقضه في موقف رهيب مهول. وإذا كان سيدنا عيسى عليه السلام وهو الرسول المقرّب لم يجرؤ على الرد على تلك الفرية مباشرة إلا بعد تمهيد متذلل إلى الله سبحانه وتعالى. فكيف بحال هؤلاء الكفرة؟

ومن شواهد قصر القلب:

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ النَّاسَ مِنْ يَفْقَهُونَ أَمْنًا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة،

٨، ٩).

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج ٧، ص ٧٥.

(٢) المصدر السابق نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) في ظلال القرآن، ج ٧، ص ٧٥.

: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (البقرة ٧٨)

: ﴿... وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (آل عمران، ١٢٦)

: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ

يُتَقَبَّلَ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لِأَقْتُلَنَّكَ قَالَ: إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾

(المائدة، ٢٧)

: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقُضُونَ مِيثَاقَنَا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا، وَمَا

أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِ وَأَنْ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ (المائدة، ٥٩)

: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صَدِيقَةٌ كَانَا

بِأَكْلَانِ الطَّعَامِ أَنْظِرْ كَيْفَ نَبِّينَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾

(المائدة/٧٥)

: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الأنعام، ١٧)

: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي

آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ

يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الأنعام، ٢٥)

: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

(الأنعام، ٢٦)

: ﴿وَقَالُوا: إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (الأنعام، ٢٩)

: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلِدارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْقُصُونَ أَفْئَالَ

تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام، ٣٢)

: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ

الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاضِلِينَ﴾ (الأنعام، ٥٧)

: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهِمَ افْتَدَاهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا

ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام، ٩٠)

: ﴿وَإِنْ تَطْمَأَنَّ مِنْ فِي الْأَرْضِ يَضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ

وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام/١١٦)

﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون
إلا بأنفسهم وما يشعرون﴾ (الأنعام، ١٢٣)

﴿قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا
تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه
تختلفون﴾ (الأنعام، ١٦٤)

﴿فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال:
ما لهماكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من
الخالدين﴾ (الأعراف، ٢٠)

﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا كذلك
نصرף الآيات لقوم يشكرون﴾ (الأعراف، ٥٨)

﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى
ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ (الأعراف،
١٣١)

﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق، وإن يروا كل
آية لا يؤمنوا بها، وإن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا
سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها
غافلين، والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يَجْزُونَ
إلا ما كانوا يعملون﴾ (الأعراف/١٤٦/١٤٧)

﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى، ويقولون
سيُغفر لنا وإن بآتهم عرض مثله يأخذوه، ألم يؤخذ عليهم ميثاق
الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير
للذين يتقون أفلا تعقلون﴾ (الأعراف، ١٦٩)

﴿إن تصبك حسنة ننسوها وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمراً من
قبل ويتولوا وهم فرحون، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا
وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ (التوبة/٥٠/٥١)

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ
أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ، إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى
أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ (التوبة، ١٧، ١٨)

﴿ وَالِى عادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ
إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ (هود، ٥٠)

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾
(هود، ٥١)

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا
كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (هود، ٦)

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ
لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ
لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (هود، ٧)

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا
حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ
وَأَعْنَدَتْ لَهُنَّ مَنَئِكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ: أَخْرِجْ عَلَيَّهِنَّ
فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا
مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (يوسف، ٣١)

﴿ قَالَ: إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف، ٨٦)

﴿ يَا بَنِي إِدْرِسَ أَتَذْهَبُونَ فَتَحَسَّسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَبْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا
يَبْأَسُ مَنْ رَوْحَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (يوسف، ٨٧)

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ (الرعد، ٢٦)

﴿ وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ
الْأَبْصَارُ ﴾ (إبراهيم، ٤٢)

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ (الحجر، ٢١)

قصر التعيين

يرى السكاكي^(١) "أن في قصر التعيين تخصيصاً بشيء دون شيء، ولذلك يجعل التخصيص بشئ دون شئ مشتركاً بين الأفراد والتعيين، أما تخصيص الشيء مكان الشيء فهو عنده قصر القلب فقط". وعلى ذلك يكون قصر التعيين قسماً لقصر الأفراد. والفرق بين قصر الأفراد والتعيين على رأي السكاكي أن المخاطب في قصر الأفراد يعتقد الشركة في الحكم بين المقصور عليه وغيره. وفي قصر التعيين متردد.

أما الخطيب^(٢) القزويني فيرى "أن قصر التعيين كالقلب تخصيص شئ مكان شئ آخر". فهو عنده يشترك مع قصر القلب في أن في كل منهما تخصيصاً بشيء مكان شئ، والفرق بينهما أن المخاطب في قصر القلب يعتقد العكس، بينما في قصر التعيين يكون متردداً. وعلى ذلك قصر التعيين عنده قسم لقصر القلب. أما سعد الدين التفتازاني فقد اعترض على ما ذهب إليه الخطيب "وأبطله - فالخطيب^(٣) يقول: إن قصر القلب يرد به على المخاطب الذي يعتقد العكس، وإن تساوى عنده فهو قصر تعيين - وهنا يرد سعد الدين^(٤) قائلاً: "وفيه نظر (أي قول الخطيب)، لأنه إذا تساوى الأمران عند المخاطب، وعين المتكلم أحدهما: يكون هذا تخصيص أمر بصفة دون أخرى، ولا تخصيص أمر بصفة مكان أخرى حتى يثبت المتكلم تلك الصفة مكانها. ألا ترى أنك إذا قلت: ما زيد إلا قائم لمن اعتقد اتصافه بواحد من القيام والقعود على التساوي فقد خصصته بالقيام متجاوزاً القعود ولم تخصصه بالقيام مكان القعود؛ لأن المخاطب لم يعتقد بالقعود حتى توقع القيام مكانه وكذا الكلام في قصر الصفة.

(١) مفتاح العلوم، للسكاكي، ص ٢٨٨.

(٢) الإيضاح، للخطيب القزويني، ج ١، ص ١٦، ١٧.

(٣) شروح التلخيص، ج ٢، ص ١٧٨-١٨٠، وانظر الإيضاح للخطيب، ج ١، ص ١٦.

(٤) شروح التلخيص (مختصر السعد، سعد الدين التفتازاني، ج ٢، ص ١٨١-١٨٢، وانظر حاشية السيد علي

المطول، ص ٢٠٨.

ثم رجع السعد^(١) ما ذهب إليه السكاكي فقال: "ولهذا جعل صاحب المفتاح تخصيص شيء دون شيء آخر مشتركاً بين الأفراد، والقصر الذي سماه المصنف قصر تعيين وجعل تخصيصه به مكان آخر: قصر قلب فقط، أما ابن يعقوب^(٢) فيرى أن قصر التعيين يصدق على تعريف كل من قصري الأفراد والقلب، فالصواب في رأيه جعل التعريفين شاملين لقصر التعيين، وعلى هذا فقصر التعيين عنده كما أن فيه تخصيصاً لشيء مكان شيء. فيه - أيضاً - تخصيص شيء دون شيء.

وسواء كان قصر التعيين قسيم الأفراد، أو القلب، أو كليهما معاً. فإن المخاطب فيه يكون متردداً والتردد حالة مبهمة عند المخاطب لذا يحتاج إلى توضيح ذلك المبهم بالتعيين.

من شواهد قصر التعيين في القرآن الكريم:

قوله تعالى: **﴿لَا مَآلَ لَهُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ يُشْفَعُ لَهُمْ وَالْغُلَامُ وَالْحَرْورُ وَالْظُّلُمَاتُ وَالْأَنُورُ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ شَاءَ﴾** (فاطر الآيات ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣).

"الآيات تلفت إلى الفواصل التي لا تلتبس بين أشياء متقابلة تمام التقابل الأعمى والبصير، والظلمات والنور، والظل والحرور، والأحياء والأموات. هذه أشياء ترسخ في قانون الكون والخلق ما بينها من تفاوت، ثم يأتي إن الله يسمع من يشاء فيضع الخالق في موضعه من الخلق، وأنه فوق نظامه وسننه وأنها لا تثبت عند مراده سبحانه، فالميت إذا أراد الله منه أن يسمع سمع، ثم يعود إلى محمد وأنه واحد من الخلق الخاضع لهذا القانون، وأنه لا يسمع الموتى، ثم يقول: "إن أنت إلا نذير" فيجعله مقصوراً على صفة الإنذار، واضح أن المراد بكل هذا هو أن فاقد الشيء لا يكون كمن أوتي هذا الشيء فالأعمى ليس كالبصير والحي ليس كالميت، وكان هذه صورة مُسلّمة جاءت بين هذه الحقيقة التالية وهي أن هذه الجماعة التي

(١) شروح التلخيص، (مختصر السعد)، سعد الدين النفاذاني، ج ٢، ص ١٨١-١٨٢.

(٢) شروح التلخيص، (مواهب المفتاح)، ابن يعقوب، ج ٢، ص ١٨٢.

تدعوها إلى الله ولا تحيب ملحقه بمن عدم آلة الشيء ووسيلة إدراكه، وأنت حين تشق على نفسك في سبيل دعوتهم كمن يحاول أن يسمع الموتى، وكأنك توهمت أن لك مع صفة الإنذار صفة أخرى هي المقدرة على خلق الهداية في النفوس، كان قوله: ﴿لَوْ مَا أَنْتَ بِمَسْمُومٍ فِي الْقُبُورِ﴾ إيدان بأنه: كأنه توهم في نفسه قدرة فوق طاقته أو نزل منزلة من يعتقد ذلك. ثم جاء قوله ﴿لَإِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ تحديد لقدرته، وما يطلب منه؛ وأنه نذير فحسب، وليس نذيراً وقادراً على إيجاد الهداية في النفوس^(١).

فجملته الحصر في قوله تعالى: ﴿لَإِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ قصر تعيين، حيث قصر الموصوف وهو هنا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على صفة الإنذار بالنسبة إلى امتلاك الهداية وخلقها في النفوس. وجملته الحصر هذه أنت للرفق بالرسول صلى الله عليه وسلم الذي يكلف نفسه ويحملها فوق طاقتها في الدعوة إلى الله. فلكونه رحيماً بالناس ولخوفه الشديد من التقصير في الدعوة نراه يهلك نفسه ويعذبها ظناً منه أنه يمتلك هداية الناس. فجاءت جملة الحصر هذه ترد على هذا الظن رحمةً من الله سبحانه وتعالى بالنبي صلى الله عليه وسلم ورفقاً به.

من شواهد قصر التعيين:

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سَلِيمٌ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا، يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحَرِ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَكِينَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ، وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا: إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يَفْتَرِقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ، وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة/١٠٢).

(١) دلالات التراكيب، ص ٥٨، ٥٩.

توهم الناس أن تعلم السحر من الملكين هاروت وماروت خبير لهم.
فأنت جملة الحصر على لسان معلمي السحر أنفسهم مؤكدة: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾
نفياً لذلك التوهم وتعييناً للحقيقة أننا فتنة وليس خيراً، وأنها ابتلاء واختبار لكم فمن
تعلم السحر وعمل به واعتقد أحقيته فقد كفر لقوله تعالى بعدها مباشرة: ﴿فَلَا
تَكْفُرْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا
أَهْلَ بِهِ لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور
رحيم﴾ (البقرة، ١٧٣).

وقوله تعالى: ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة/ ٢٨٦)

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا: إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ
رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ (المائدة/ ٩٠)
وقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾
(الأنعام/ ٣٦)

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ (مريم/ ١٩)

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نَجْزِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ (سبا/ ١٧)

وقوله تعالى: ﴿لِزَانِيَةٍ لَا يَنْكَحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ (النور، ٣)

وقوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (الإسراء/ ٩٣)

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَا﴾ (الذاريات/ ١٥٦)

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ، لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾
(الواقعة، الآيات، ٧٧، ٧٨، ٧٩)

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يَمْسُكُهُنَّ إِلَّا
الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ (الملك/ ١٩)

وقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ، وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسَلِينَ، لَا يَأْكُلُهُ
إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ (الحاقة/ الآيات (٣٥، ٣٦، ٣٧))

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ

الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (النبا، ٣٨)

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ، فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (النار، ١٣، ١٤).

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الثاني

أسلوب الحصر عند

النحويين والبلاغيين

المبحث الأول

الحصر عند النحويين

المطلب الأول: تأصيل مصطلح الحصر عند النحويين بأداة

الاستثناء - إلا - المسبوقه بنفي أو شبهه

أشهر أدوات^(١) الحصر عند النحويين أداتان اثنتان هما:

الأولى: الحصر بأداة الاستثناء "إلا" المسبوقه بنفي أو شبهه.

الثانية: الحصر بإنمّا.

أما الأولى: الحصر بأداة الاستثناء "إلا" المسبوقه بنفي أو شبهه. ويتحقق هذا الحصر حسب هذه الطريقة بما يسمى في النحو "بالاستثناء المفرغ"^(٢) وهو تركيب نحوي يكون فيه الكلام منفيًا، والمستثنى منه محذوفًا، فيأتي بذلك الجزء المتقدم على "إلا" ناقصًا متفرغًا لطلب ما بعدها دون أن يشتغل عنه بالعمل.

(١) الأداة "في اصطلاح النحويين": اللفظة تستعمل للربط بين الكلام أو للدلالة على معنى في غيرها. انظر جامع الدروس العربية، الشيخ مصطفى الغلاييني، ج ١، ص (٣١). إلا أن الدكتور عبده الراجحي يخطيء من يقول بالأداة. فهي عنده حرف وليست أداة. انظر التطبيق النحوي. عبده الراجحي، ص (١٣).

(٢) انظر الكتاب، سيبويه، ج ٢، ص (٣١٠-٣١١)، والأصول في النحو، ابن السراج، ج ١، ص (٢٨٢).

وأبرز النحويين الذين تناولوا "الاستثناء المفرغ" بالبحث ابن يعيش فسي شرحه للمفصل إذ يقول^(١): "إذا استثنيت بـ "إلا" من كلام منفي غير تام وذلك بـ"لا" يكون ما قبل "إلا" محتاجاً إلى ما بعدها. ومثال ذلك: "ما جاءني إلا زيد"، وما رأيت إلا زيدا، وما مررت إلا بزید"، وما ذهب إلا عمرو: فهذا لا يكون فيه إلا الرفع؛ لأن للفعل المفرغ لما بعد إلا أن يعمل فيه. والأصل أن نقول:

ما جاءني أحد، وما ذهب أحد أو شيء. ليصح معنى الاستثناء؛ لأن الاستثناء تخصيص صفة عامة إلا أنك حذفْتَ الفاعل استثناءً عنه لعموم المنفي وأنت تريده، ولسنا نعني أنه مضمّر، وأن المذكور بعد "إلا" بدل منه. وإنما نعني أن المعنى على ذلك. ولما حذفْتَ ما كان يجب أن يشغل به الفعل المنفي لم يجر ترك الفعل بلا فاعل، أو ما ينوب عن الفاعل. فلم يكن بدُّ من إسناد هذا الحديث إلى محدث عنه، وشغل هذا الفعل بشيء يرتفع به، كما لم يكن بدُّ من شغل الفعل بالمفعول إذا لم يُسمَّ الفاعل فرفعت به بعد "إلا" وأقمته مقام من يُذكر إذا كان بعضه، ولم يكن ذلك بأبعد من إقامة المفعول مقام الفاعل وليس منه. ولما أقمته مقام الفاعل وشغلت الفعل به لفظاً دلَّ الاستثناء على المحذوف من جهة المعنى كما دلَّ تغيير بنية الفعل في ما لم يُسمَّ فاعله بعد إقامة المفعول مقام الفاعل على أن ثمَّ فاعلاً لهذا الفعل غير المذكور..."^(٢).

لا شك أن ابن يعيش كان ثاقب النظر في تشبيهه "جملة الاستثناء المفرغ" بجملة الفعل الذي لم يسمَّ فاعله. وواضح تماماً أن الذي جعل ابن يعيش يشبهه "جملة الاستثناء المفرغ" بجملة الفعل الذي لم يسمَّ فاعله هو ذلك التقدير المعنوي الذي يصر النحاة على تقديره في "الاستثناء المفرغ".

وهو "المستثنى منه" الذي فرغ. إذ لا بد عند النحاة من أن يتوجه النفي إلى مقدر وهو المستثنى منه وللنحاة عذرهم في ذلك؛ لأنهم حين يتحدثون عن ذلك

(١) شرح المفصل، ابن يعيش، ج ٢، ص (٨٦).

(٢) المصدر السابق نفسه.

التقدير المعنوي يربطونه مباشرة بمفهوم الاستثناء فيقولون: والاستثناء إخراج فيحتاج إلى مخرج منه، والمراد التقدير المعنوي لا الصناعي^(١).

ومع أن التقدير أو التأويل لازمة من مستلزمات اللغة؛ لأن اللغة تعتمد في بلاغتها على الإيجاز في التعبير، إذ لتسويغ ذلك الإيجاز يلجأ النحويون أحيانا إلى التقدير، إلا أن التقدير المتكلف أحيانا يعد أمرا غير مستساغ. إذ إن الأصل في اللغة عدم التقدير لذا وجب أخذ اللغة على ظاهرها.

وهنا لو تساءلنا: ما الذي يترتب عليه لو قلنا بعدم تقدير "المستثنى منه" عند النحويين؟ إن القول بذلك سيلغي مفهوم "الاستثناء المفرغ" الذي يسمى به ذلك التركيب النحوي لينقله إلى مفهوم جديد آخر، وتبعا لذلك ستقل أداة الاستثناء "إلا" إلى مسمى جديد أيضا. والنحويون والبلاغيون متفقون على أن "الاستثناء المفرغ" يفيد الحصر أو القصر. إلا أن "إلا" بقيت عندهم أداة استثناء ملغاة لا وجود لها في الاستثناء المفرغ.

ولما كان "الاستثناء المفرغ" يفيد الحصر أو القصر جاز لنا أن نطلق على التركيب النحوي المسمى "بالاستثناء المفرغ" أسلوب الحصر؛ لأن معنى الاستثناء غير حاصل في ذلك التركيب. ولذلك كان من الأجدر أن تكون "إلا" أداة حصر أو قصر بدلا من أن تكون أداة استثناء ملغاة لا وجود لها.

وفي هذا الصدد يقول الدكتور مهدي المخزومي^(٢): "إلا" هذه ليست استثناء، وإنما هي مسبوقة بالنفي أداة قصر، ووظيفتها قصر ما قبلها على ما بعدها، والقصر تأكيد وإيجاب أبدا، وهذا ما يفرق بينها وبين "إلا" في الاستثناء؛ لأن وظيفة "إلا" في الاستثناء إخراج ما بعدها من حكم ما قبلها، فهما مختلفان، ولذلك كان عد النحاة إياها في الاستثناء خلطا، وتسميتها بالاستثناء المفرغ ضربا من التكلف."

(١) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج ٢، ص ٦٤.

(٢) في النحو العربي، "نقد وتوجيه"، مهدي المخزومي، ص ٢٤٠.

ولم يكن كلام المخزومي هذا مجرد طرح نظري وإنما طبقة عمليا.
ففي كتابه "في النحو العربي قواعد تطبيق على المنهج العلمي الحديث"، يقول^(١)
في إعراب "إلا" في قوله: "ما زاد هذا المال إلا ما نقص": أداة قصر.

ولو قارنا هنا بين الاستثناء التام وأسلوب الحصر أو "الاستثناء المفرغ
على رأي النحاة لوجدنا أن هناك فرقا واضحا بينا بينهما. ففي الاستثناء التام مثلا
لو قلنا: حضر الرجال إلا زيدا. فقد استثنينا حضور زيد من الرجال إلا أن
تخصيص المستثنى منه بالرجال لا ينفي احتمال أن يكون من بين الحاضرين
أطفال ونساء. بينما لو قلنا في أسلوب الحصر أو "الاستثناء المفرغ" على رأي
النحاة: ما حضر إلا زيد. فقد نفينا كل حضور غير حضور زيد، فالنفي هنا شمل
العموم. والسبب في ذلك: الأول: تفريغ المستثنى منه. والثاني: وجود أداة النفي
قبل أداة الحصر "إلا".

وواضح هنا أن أسلوب الحصر أعم وأشمل من الاستثناء التام.
فالاستثناء التام وإن كان يلحظ فيه معنى التخصيص إلا أن هذا المعنى لا يرقى
إلى التخصيص الذي يتضمنه أسلوب الحصر.

وفي إعراب ما بعد "إلا" في أسلوب الحصر أو في "الاستثناء المفرغ"
على رأي النحاة يرى النحويون أن ما بعد "إلا" يعرب بحسب العوامل. وفي ذلك
يقول سيبويه^(٢) في كتابه "أما الوجه الذي يكون فيه الاسم بمنزلة قبل أن تلحق
"إلا" فهو أن تدخل الاسم في شيء تنفي عنه ما سواه، وذلك قوله ما أتاني إلا زيد،
وما لقيت إلا زيدا، وما مررت إلا بزید، تجري الاسم مجراه إذا قلت: ما أتاني
زيد، وما لقيت زيدا، وما مررت بزید، ولكنك أدخلت "إلا" لتوجب الأفعال لهذه
الأسماء ولتنفي ما سواها فصارت هذه الأسماء مستثناة. فليس في هذه الأسماء في
هذا الموضع وجه سوى أن تكون على حالها قبل أن تلحق "إلا"؛ لأنها بعد "إلا"
محمولة على ما يجر ويرفع وينصب، كما كانت محمولة عليه قبل أن تلحق "إلا"،
ولم تشغل عنها قبل أن تلحق "إلا" الفعل بغيرها.

(١) في النحو العربي "قواعد وتطبيق على المنهج الحديث"، مهدي المخزومي، ص ٢١٣.

(٢) الكتاب، سيبويه، ج ٢، ص ٣١٠-٣١١.

يلاحظ من قول سيبويه أنه قلب كل الوجوه في المعادلة النحوية التي يمكن أن تعرب بها الأسماء بعد "إلا" فلم ير وجها مناسباً سوى أن تكون على حالها قبل أن تلحق "إلا". وهذا يعني أن سيبويه لم ير "إلا" عاملة في ما بعدها في هذا التركيب النحوي. وقد تبعه النحاة في رأيه هذا في هذه المسألة. فكان "إلا" لا وجود لها، فهي كما هو واضح أداة ملغاة مكفوفة عن العمل. ولكن وإن لم تكن "إلا" عاملة في ما بعدها، أو أن المعادلة النحوية قاصرة عن إيجاد الوجه الأنسب لها - فإن سيبويه لم يغفل عن المعنى الذي تحمله "إلا" في هذا التركيب النحوي إذ يقول^(١): "ولكنك أدخلت "إلا" لتوجب الأفعال لهذه الأسماء، ولتتفي ما سواها...". فهذا المعنى الجديد الذي يشير إليه سيبويه في هذا التركيب هو مفهوم الحصر. ففي قوله: ما أتاني إلا زيد: إيجاب (إثبات) ونفي. إثبات الإتياء لزيد، ونفي الإتياء عن كل ما عدا زيد.

وبدلل ابن يعش على أن "إلا" ليست عاملة في ما بعدها، وأنها تعرب بحسب العوامل. فيقول^(٢): "...والذي يدل على أن الفعل عامل في ما بعد "إلا" ومسند إليه أمران":
أحدهما: أن هنا فعلاً لا بد له من فاعل وليس هنا فاعل سوى الموجود ولا يقال: الفاعل محذوف إذ الفاعل لا يجوز حذفه.
والثاني: أنه قد يؤنث الفعل لتأنيث المستثنى. فيقال: ما قامت إلا هند. قال ذو الرمة^(٣):

برى النحر والأجزاء ما في غروضها فما بقيت إلا الصدور الجراشع
ويقول ابن يعش^(٤): "..... فإذا قلت: ما قام إلا زيد، وما رأيت إلا زيدا، وما مررت إلا بزيد فهو منزلة قام زيد، ورأيت زيدا، ومررت بزيد في أن الفعل عامل في الفاعل والمفعول بعد "إلا" كما يعمل إذا لم يكن "إلا" مذكوراً".

(١) المصدر السابق نفسه ج ٢، ص ٣١٠-٣١١.

(٢) شرح المفصل، ج ٢، ص ٨٦-٨٧.

(٣) المصدر السابق نفسه ج ٢، ص ٨٦-٨٧.

(٤) شرح المفصل، ج ٢، ص ٨٧.

ويقول ابن يعيش^(١): "وفائدة الاستثناء في قولك: ما قام إلا زيد: إثبات القيام له، ونفيه عن سواه. ولو قلت: قام زيد لا غير لم يكن فيه دلالة على نفيه عن غيره". وهذا أيضا هو مفهوم الحصر.

واضح أن ابن يعيش تابع سيبويه في رأيه، وواضح أيضا أن هناك إصرارا على تسمية التركيب النحوي في قولك: "ما قام إلا زيد" استثناء مفرغا. فإذا كان النحويون يلغون أعمال "إلا" في هذا التركيب النحوي، كما هو واضح من اعتبارهم أن أصل الجملة في ذلك التركيب النحوي: ما قام زيد، وهذه الجملة إنما فيها معنى النفي لا معنى الاستثناء.

والنحويون عندما يدخلون إلى ذلك التركيب النحوي "إلا" الملغاة، يتبادر إلى الذهن السؤال الآتي: من أين أتى لهذا التركيب معنى الاستثناء؟ إلا أنهم وبالرغم من ذلك يصرون على معنى الاستثناء كما يقول ابن يعيش^(٢): "وفائدة الاستثناء في قولك: ما قام إلا زيد: إثبات القيام له، ونفيه عن سواه". فهذه الفائدة ليست آتية من مفهوم الاستثناء كما يقول ابن يعيش إذ إن هذا التركيب النحوي خرج من مفهوم الاستثناء تركيبا ومعنى، إذ إن هناك فرقا واضحا بين هذا التركيب الدال على الاستثناء. فالتركيب في الاستثناء المفرغ على رأي النحاة دال على الحصر - كما أشرنا سابقا-.

المبحث الثاني: التراكيب النحوية الدالة على الحصر باعتبار

ما بعد -إلا- في القرآن الكريم

قلنا إن النحاة يعربون ما بعد "إلا" بحسب العوامل إذ يحملون ما بعد "إلا" على ما يجر ويرفع وينصب. وقد تنوع ورود ما بعد "إلا" تنوعا واضحا شمل نظام الجملة العربية من اسم مفرد، وجملة فعلية، وجملة اسمية، وشبه جملة؛ جار

(١) المصدر السابق نفسه ج ٢، ص ٨٧.

(٢) المصدر السابق نفسه ج ٢، ص ٨٧.

ومجرور، والظرف، ويمكن رصد ما أتى بعد "إلا" كأداة حصر في القرآن الكريم بالآتي:

١. ما جاء بعد "إلا" فعلا ماضيا. وقد ورد الفعل الماضي بعد "إلا" تسع عشرة مرة في مواضع متعددة من القرآن الكريم؛ منها قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (الحجر، ١١) وقوله تعالى: ﴿لَا يَخَافُرَ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ (الكهف: ٤٩).

٢. ما جاء بعد "إلا" خبرا. وقد ورد هذا الخبر "اسما مفردا" بعد "إلا" ثلاثا وستين مرة في مواضع متعددة من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ (آل عمران، ٤٤) وقوله تعالى: ﴿لَوْ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران، ١٨٥) وقوله تعالى: ﴿لَوْ مَا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ (المؤمنون، ٣٧)، وقوله تعالى: ﴿لَوْ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ (الرعد، ٢٦).

٣. ما جاء بعد "إلا" خبرا (جملة فعلية). ورد الخبر جملة فعلية بعد "إلا" ثماني مرات في مواضع متعددة من القرآن الكريم. منها قوله تعالى: ﴿لَوْ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَنْسِفُ بِهِ إِسْرَاءَ، ٤٤)، وقوله تعالى: ﴿لَوْ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر، ٢٤).

٤. ما جاء بعد "إلا" خبرا (جملة إسمية). وقد ورد الخبر جملة اسمية بعد "إلا" خمس مرات في مواضع متعددة من القرآن الكريم. منها قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هود: ٦)، وقوله تعالى: ﴿لَوْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ (هود: ٥٦).

٥. ما جاء بعد "إلا" خبرا (شبه جملة جار ومجرور). وقد ورد الخبر "شبه جملة جار ومجرور" بعد "إلا" أربعاً وعشرين مرة في القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿لَوْ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ (الأنعام، ٢٧) وقوله تعالى: ﴿لَوْ مَا النُّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ (الأنفال، ١٠)، وقوله تعالى: ﴿لَوْ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ (يونس، ٢٧، ٢٧).

٦. ما جاء بعد "إلا" مبتدأ مؤخرا. وقد ورد المبتدأ المؤخر بعد "إلا" (٨) مرات منها قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا عَلَى الرُّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (النور، ٥٤)، وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (النحل، ٣٥).

٧. ما جاء بعد "إلا" اسما مؤخرا وليس. وقد ورد الاسم المؤخر وليس بعد "إلا" مرتين في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ (هود، ١٦) وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (النجم، ٣٩).
٨. ما جاء بعد "إلا" خبرا لكان. وقد ورد خبر كان بعد "إلا" ست مرات في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مَكَاءُ وَتَصَدِيهِ﴾ (الأنفال، ٣٥)، وقوله تعالى: ﴿لَنْ كَانَتْ إِلَّا صَبِيحَةً وَاحِدَةً﴾ (يس، ٥٣)، وقوله تعالى: ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (الإسراء، ٩٣).

٩. ما جاء بعد "إلا" فاعلا. وقد ورد الفاعل بعد "إلا" سبعا وثلاثين مرة القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا يَكْفُرُ بِمَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ (البقرة، ٩٩)، وقوله تعالى: ﴿لَوْ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ (ال عمران، ٧). وقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا يَبَاسُ مَنْ رَوْحَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف، ٨٧).

١٠. ما جاء بعد "إلا" نائب فاعل. وقد ورد نائب الفاعل بعد "إلا" خمس مرات في القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾ (الأنعام، ٤٧)، وقوله تعالى: ﴿لَوْ مَا يَلْقَاها إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ (القصص، ٨٠).

١١. ما جاء بعد "إلا" مفعولا به، وقد ورد المفعول به بعد "إلا" أربعاً وستين مرة في القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ (البقرة، ٩) وقوله تعالى: ﴿لَنْ أُرِيدَ إِلَّا الْإِسْلَامَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ (هود، ٨٨) وقوله تعالى: ﴿لَوْ مَا نَجَازِي إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ (سبا، ١٧).

١٢. ما جاء بعد "إلا" مفعولا به للقول: وقد ورد مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿لَنْ نَقُولَ إِلَّا اعْتِرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ (هود، ٥٤).

١٣. ما جاء بعد "إلا" مفعولا ثانيا لفعل ينصب مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر، وقد ورد ست مرات في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿لَا مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ (هود، ٢٧). وقوله تعالى: ﴿لَوْ مَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا

فتنة للناس ﴿﴾ (الإسراء، ٦٠)، وقوله تعالى: ﴿لَوْ مَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴿﴾ (المدثر، ٣١).

١٤. ما جاء بعد "إلا" مفعولا ثانيا لفعل ينصب مفعولين ليس أصلهما مبتدأ وخبراً، وقد ورد في القرآن الكريم سبعة وعشرين مرة منها قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِئَكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴿﴾ (التوبة، ٤٧). وقوله تعالى: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعًا ﴿﴾ (البقرة، ٢٨٦). وقوله تعالى: ﴿لَوْ مَا أَهْدَيْكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿﴾ (غافر، ٢٩).

١٥. ما جاء بعد "إلا" مفعولا مطلقاً، وقد ورد في القرآن الكريم عشر مرات منها قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمَارَ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءَ ظَاهِرًا ﴿﴾ (الكهف، ٢٢) وقوله تعالى: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴿﴾ (البقرة، ٢٧٥).

١٦. ما جاء بعد "إلا" نائب عن المفعول المطلق "صفة لمصدر أو ظرف زمان". وقد وردت في القرآن الكريم إحدى عشرة مرة منها قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿﴾ (المؤمنون، ١١٤)، وقوله تعالى: ﴿لَوْ مَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿﴾ (الإسراء، ٨٥). وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿﴾ (النساء، ١٥٥).

١٧. ما جاء بعد "إلا" مفعولا لأجله، وقد ورد في القرآن الكريم سبع مرات منها قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا تَتَفَقَّحُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ﴿﴾ (البقرة، ٢٧٢) وقوله تعالى: ﴿لَوْ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿﴾ (الأنبياء، ١٠٧).

١٨. ما جاء بعد "إلا" ظرف زمان، وقد ورد في القرآن الكريم سبع مرات، منها قوله تعالى: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿﴾ (طه، ١٠٣)، وقوله تعالى: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿﴾ (طه، ١٠٤)، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ ﴿﴾ (يونس، ٤٥).

١٩. ما جاء بعد "إلا" حالا مفردة. وقد ورد في القرآن الكريم ثماني مرات، منها قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ﴿﴾ (البقرة، ١١٤)، ومنها قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴿﴾ (الأنعام، ٤٨)، وقوله تعالى: ﴿لَوْ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴿﴾ (سبا، ٢٨).

٢٠. ما جاء بعد "إلا" حالا جملة فعلية، وقد وردت في القرآن الكريم ثلاث مرات

في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ

مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ (يونس، ٦١)، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا

أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ (الذاريات، ٥٢).

٢١. ما جاء بعد "إلا" حالا جملة اسمية. وقد وردت في القرآن الكريم تسع مرات

منها قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (يوسف،

١٠٦)، وقوله تعالى: ﴿لَوْ لَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَى﴾ (التوبة، ٥٤) وقوله

تعالى: ﴿لَوْ مَا كُنَّا مَهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (القصص، ٥٩).

٢٢. ما جاء بعد "إلا" حالا (جارا ومجرورا). وقد ورد في القرآن الكريم عشر

مرات. منها قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ (إبراهيم،

٤)، وقوله تعالى: ﴿لَوْ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

(إبراهيم، ١١)، وقوله تعالى: ﴿لَوْ مَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (الحجر، ٢١).

٢٣. ما جاء بعد "إلا" فعلا مضارعا منصوبا بأن مضمرة بعد لام التعليل. وقد

ورد في القرآن الكريم ثماني مرات منها قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ

رَسُولٍ إِلَّا لِيُظَاهِرَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (النساء، ٦٤) وقوله تعالى: ﴿لَوْ مَا أَمَرُوا إِلَّا

لِيُعْبَدُوا إِلَّا هُوَ وَاحِدًا﴾ (التوبة، ٣١)، وقوله تعالى: ﴿لَوْ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ

إِلَّا لِيُعْبَدُونَ﴾ (الذاريات، ٥٦).

٢٤. ما جاء بعد "إلا" جارا ومجرورا فضلة من غير ما تقدم في هذه المواضع،

وقد ورد في القرآن الكريم ثلاثا وثلاثين مرة منها قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا

أَنْزَلْتُ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ (آل عمران، ٦٥). وقوله تعالى:

﴿لَوْ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ (الأنعام، ١٦٤)، وقوله تعالى: ﴿لَوْ مَا

شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾ (يوسف، ٨١).

٢٩. ما جاء بعد "إلا" مصدرا مؤولا، وقد ورد في القرآن الكريم واحدة وثلاثين

مرة منها قوله تعالى: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾ (التوبة، ٣٢)، وقوله

تعالى: ﴿لَهُلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظِلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ (البقرة، ٢١٠) ،
وقوله تعالى: ﴿لَمَّا جَاءَ مِنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ﴾ (يوسف، ٢٥).

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المبحث الثالث: طرق النفي في التراكيب النحوية الدالة على الحصر

سبقت أداة الحصر "إلا" أدوات نفي عدة منها ما هو دال على النفي بذاته كـ: "ما"، و"إن" و"لا" و"لم" و"لن" و"ليس" و"ألا"، ومنها ما دل على النفي من خلال التركيب مع أداة الحصر "إلا"، كما سنرى - وهي: "هل"، و"من"، و"ماذا"، و"أبى".

وقد أوجز ابن هشام أنواع النفي التي تسبق أداة الحصر "إلا" أو ما يسمى برأيه استثناء مفرغا إذ يقول^(١): "وشرطه (أي: الاستثناء المفرغ) كون الكلام غير إيجاب، وهو النفي نحو قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾، (١٤٤)، (ال عمران)، والنهي نحو قوله تعالى: ﴿لَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾، (١٧١)، (النساء)، والاستفهام الانكاري نحو قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٣٥)، (الحق)، فأما قوله تعالى: ﴿لَوْ بِأَبَى اللَّهِ أَن يَنْتَهِي نُورُهُ﴾ (٣٢)، (التوبة)، فحمل "أبى" على "لا يريد" لأنهما بمعنى.

علاقة النفي بأداة الحصر - إلا -

لنأخذ جملة الحصر "ما قام إلا زيد" وندرسها كتركيب مستقل. فأول ما يلحظ في هذا التركيب أنه ضم أداة النفي "ما" وأداة الإثبات "إلا"، واجتماع مثل أداتي النفي والإثبات في تركيب واحد أمر لافت للنظر. إذ إن الأصل في التركيب أن يكون مثبتا أو أن يكون منفيًا، أما أن يضم نفيًا وإثباتًا في آن واحد، فهذا مما يدفعنا إلى القول بأن جملة الحصر "ما قام إلا زيد" جملة موجزة مكتسبة المعنى "في قوة جملتين"^(٢) ولعلها كانت في الأصل مكونة من جملتين إحداهما منفية والأخرى مثبتة على النحو الآتي:

(١) أوضح المسالك، ابن هشام، ج ٢، ص ٢٥٣.

(٢) الاتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج ٢، ص ٦٩.

ما قام أحد

قام زيد

"وتبدو الجملتان متضاربتين، وتواليهما غير مستقيم معنويا؛ لأن النفي البات في الأولى ينفي كل صيغة من صيغ الإثبات بعده، كما أن الإثبات فسي الثانية يستوجب مبدئيا إبطال كل نفي سابق. إلا أن التصرف في عناصر الجملتين بحذف الفاعل في الأولى "أحد" والمسند في الثانية "قام" وتعويضهما بأداة الحصر "إلا" يجعل الجمع بين النفي والإثبات المتضاربين حسبا سبق ممكنا بل مقصودا. إن الجمع بين النفي والإثبات في تركيب واحد وعلى حال من التآلف يجعل الكلام مخصوصا بالمثبت دون المنفي، وهذا الجمع بين حكمين متناقضين في الأصل هو الذي يجعل القصر تركيبا طريفا مظهره جملة أحادية وأساسه جملتان مستقلتان متضاربتان" (١).

فالنفي المتصدر للتركيب توجه لمطلق العموم، والإثبات المتوسط للتركيب توجه إلى الخصوص. فالعلاقة بين النفي والإثبات هي العلاقة بين العموم والخصوص في التركيب. وكلما كان العموم مطلقا أدى الخصوص معنى الحصر. فـ"إلا" كانت أداة استثناء عندما لم يكن ما قبلها متوجها لمطلق العموم. وانتقلت "إلا" إلى أداة حصر عندما توجه ما قبلها لمطلق العموم. وهذا يعني أن النفي هو الذي أبرز معنى الحصر في "إلا". ويمكن توضيح ذلك بالتفريق بين قولنا:

- قام الرجال إلا زيدا.

- ما قام إلا زيد.

فصدر التركيب الأول كان عاما لفئة الرجال وحسب، وعلى هذا فالعموم لم يكن مطلقا إذ يجتمل أن يكون من الذين لم يقوموا نساء أو أطفالا. فتخصيص زيد بعدم القيام لم يكن خالصا له. أما في التركيب الثاني فالنفي المتصدر له أطلقه إلى العموم، فلم يقر رجل أو امرأة أو شاب أو طفل أو أي

(١) أسلوب القصر في سورة البقرة، ص ١٠٦، ١٠٧.

كائن من أي جنس آخر. وبعد إطلاق النفي صدر التركيب إلى العموم يجيء الإثبات ليخصص زيد بحصره في القيام دون غيره بحيث لا يتجاوز إلى أي أحد. والنفي في جملة الحصر لم يأت على حال واحدة بل تنوع. فقد تعددت أدوات النفي التي سبقت جملة الحصر. ومثل هذا التعدد من شأنه توسيع دائرة المعاني في تراكيب الحصر.

المطلب الأول: النفي بـ ما -

تعد "ما الحرفية"^(١) من الأدوات التي تتمحض للنفي. وتدخل على الجملة الاسمية والجملة الفعلية. "إذا دخلت على الجملة الاسمية عملت عمل ليس" في لغة أهل الحجاز فترفع المبتدأ وتنصب الخبر كقوله تعالى: ﴿لَمَّا هَذَا بَشَرًا﴾ (يوسف، ٣١) ^(٢).

"وفي دخول "ما" على الجملة الاسمية تكون لنفي الحال"^(٣). ويقول الدكتور فاضل السامرائي^(٤): "أنها أي "ما" يكون نفيها للحال عند الإطلاق وإذا قيدت كانت بحسب القيد، تقول: "ما هو مسافرا"، وتقول: "ما هو مسافرا غدا"، وقد تكون للمضي نحو "ما سعيد ظلمي حتي بل خالد"، وقد تكون للاستقبال كقوله تعالى: ﴿لَمَّا هُمْ بَخَارَجِينَ مِنَ النِّارِ﴾ (البقرة، ١٦٧)، وقد تكون للحقيقة غير مقيدة بزمن كقوله تعالى: ﴿لَمَّا هُنَّ أُمَمَاتُهُمْ﴾ (المجادلة، ٢).

(١) أنظر الكتاب، ج ١، ص ٥٧، والمقتضب، ج ٤، ص ١٨٨، ومعاني الحروف، ص ٨٨، وشرح المفصل، ج ١، ص ١٠٨، والجنى الداني، ص ٣٢٥، ومغنى اللبيب، ص ٣٩٩.

(٢) أنظر الكتاب، ج ١، ص ٥٧، والمقتضب، ج ٤، ص ١٨٩، ومعاني الحروف، ص ٨٨، وشرح المفصل، ج ١، ص ١٠٨، والجنى الداني، ص ٣٢٥، ومغنى اللبيب، ص ٣٩٩، وشرح التصريح، ج ١، ص ١٩٦، وجمع الهوامع، ج ٢، ص ١١٠.

(٣) أنظر المقتضب، ج ٤، ص ١٨٨.

(٤) معاني النحو، ج ٤، ص ٥٦٨٠.

ويقول الدكتور السامرائي^(١): "أن "ما" أكد من "ليس"، لأنها تقع جواباً للقسم تقول: "والله ما هو بمنطلق" بخلاف "ليس". وهي أوسع استعمالاً منها أيضاً فـ "ليس" مختصة بنفي الجمل الاسمية، وأما "ما" فتتفي الجمل الفعلية والاسمية".
إلا أن "ما" إذا سبقت بأداة الحصر "إلا" في التركيب انتقض عملها؛ لأنها لا تعمل في الخبر المثبت أو الموجب. يقول: المبرد^(٢): "وأما نقض الخبر فقولك: ما زيد إلا منطلق؛ لأنك نفيت عنه كل شيء إلا الانطلاق. فلم تصلح "ما" أن تكون عاملة في نقض النفي؛ كما لم تعمل في تقديم الخبر". أما أبو علي الفارسي^(٣) فيقول في المسائل البغداديات: "... فإذا انتقض معنى النفي رجع (أي المبتدأ والخبر) إلى الأصل ولم تعمل عمله، لقيام جهة واحدة من الشبه (بين ما وليس)، وهي الدخول على الابتداء..."، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (٣١، يوسف).

وتدخل "ما" على الجملة الفعلية فلا تعمل^(٤). "وتتفي الفعل الماضي فيكون النفي قريباً من الحال"^(٥) نحو "ما جاء زيد". "وقد تكون لنفي الماضي البعيد"^(٦) نحو: ﴿لَوْ مَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٤٠، هود)، وتتفي الفعل المضارع فتخلصه للحال عند الجمهور^(٧) نحو قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ (٩١، هود).

(١) معاني النحو، ج ٤، ص ٥٦٨.

(٢) المقتضب، ج ٤، ص ١٩٠.

(٣) المسائل البغداديات، ص ٥٩٥.

(٤) مغنى اللبيب، ص ٣٩٩.

(٥) المفصل، ج ٢، ص ١٩٩.

(٦) معاني النحو، ج ٤، ص ٥٦٩.

(٧) مغنى اللبيب، ص ٣٩٩.

يقول سيبويه^(١): "وإذا قال: "هل يفعل" أي هو في حال فعل فإن نفيه "ما يفعل" وإذا قال: "هو يفعل" ولم يكن الفعل واقعا فنفيه "لا يفعل".

"وقد رد ابن مالك القول بأن "ما" قد تنفي الحال في الفعل المضارع مطلقا بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي﴾ (١٥، يونس)، فـ "ما" في هذه الآية لم تنف الاستقبال ولم تنف الحال) وأجيب بأن شرط كونه للحال انتفاء قرينة خلافه"^(٢).

وقد ذكر سيبويه أن "ما" تتضمن معنى التوكيد لكونها تنفي الفعل المؤكد "لقد فعل"، يقول سيبويه^(٣): "وإذا قال: "لقد فعل" فإن نفيه "ما فعل". يقول الزركشي^(٤): "ثم إن سيبويه جعل فيها معنى التوكيد؛ لأنها جرت موضع "قد" في النفي، فكما أن "قد" فيها معنى التأكيد، فكذلك "ما" جعل جوابا لها.

وقد ورد التركيب النحوي الدال على الحصر مصدرا بـ "ما" النافية في القرآن الكريم (١٨٨) مرة وقد تنوع ورود ما بعدها حسب الشيوخ من فعل ماض إلى مضارع إلى اسم إلى فعل ماض ناقص.

ترتيب جملة الحصر في القرآن الكريم

بحسب ما بعد ما

جاءت "ما" مقترنة "بالفعل الماضي" ستين (٦٠) مرة من أصل (١٨٨) طريقة نفي، وجاءت على النمط الآتي:

(ما + فعل ماض + إلا + ... = ٦٠ مرة)

ويمكن تمثيلها كما يلي:

(١) الكتاب، ج ١، ص ٤٦٠.

(٢) مغنى اللبيب، ص ٣٩٩.

(٣) الكتاب، ج ١، ص ٤٠٦.

(٤) البرهان في علوم القرآن، ج ٤، ص ٤٣٢.

أ. (ما + فعل ماض + إلا + فعل مضارع)؛ كما في قوله تعالى:

﴿لَوْما أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (النساء، ٦٤).

و. ﴿لَا مَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾ (البقرة، ١٤٣).

و. ﴿لَوْما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ﴾ (الأنبياء، ٢٥).

ب. (ما + فعل ماض + إلا + فعل ماض)، كما في قوله تعالى:

﴿لَمَّا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾ (يوسف، ٨١).

﴿لَا مَا قُلْتَ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ (المائدة، ١١٧).

ج. (ما + فعل ماض + إلا + فاعل)، كما في قوله تعالى:

﴿لَوْما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (هود، ٤٠).

﴿لَوْما أَضَلَّنا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ﴾ (الشعراء، ٩٩).

د. (ما + فعل ماض + إلا + مفعول به)، كما في قوله تعالى:

﴿لَوْما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ (النحل، ٤٣).

هـ. (ما + فعل ماض + إلا + مفعول به ثان)، كما في قوله تعالى:

﴿لَوْما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ (الأنعام، ٦٠).

﴿لَوْما جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ (المدثر، ٣١).

و. (ما + فعل ماض + إلا + حال)، كما في قوله تعالى:

﴿لَوْما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (الأنعام، ١٠٥).

ز. (ما + فعل ماض + إلا + مفعول لأجله)، كما في قوله تعالى:

﴿لَوْما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ (سبا، ٢٨).

ح. (ما + فعل ماض + إلا + حال (جملة اسمية))، كما في قوله تعالى:

﴿لَوْما أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ (الحجر، ٤).

ط. (ما + فعل ماض + إلا + حال (شبه جملة جار ومجرور))، كما في قوله

تعالى:

﴿لَوْما أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ (إبراهيم، ٤).

ي. ﴿لَوْما اختلف الذين أتوا الكتاب إلا من بعد جاءهم العلم بغيا بينهم﴾

(ال عمران - ١١٩)

و. (ما + فعل ماض (مبني للمجهول) + نائب فاعل + إلا +) كما في قوله تعالى:

﴿لما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده﴾ (٦٥، آل عمران).

﴿لما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا﴾ (٣١، التوبة).

﴿لما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ (٥، البينة).

ثانيا: (ما + فعل مضارع + إلا +)، ورد ٥٤ مرة، ويمكن تمثيل هذا النمط كما يلي:

أ. (ما + فعل مضارع + إلا + كان)، كما في قوله:

﴿وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾ (١١، الحجر).

﴿لما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين﴾ (٢٦، المائدة).

ب. (ما + فعل مضارع + إلا + فاعل)، كما في قوله تعالى:

﴿لما يكفر بها إلا الفاسقون﴾ (البقرة، ٩٩).

﴿لما يعلم تأويله إلا الله﴾ (آل عمران، ٧).

﴿لما يذكر إلا ألو الأبواب﴾ (آل عمران، ٧).

﴿لما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾ (العنكبوت، ٤٩).

﴿لما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور﴾ (لقمان، ٣٢).

ج. (ما + فعل مضارع + إلا + مفعول به)، كما في قوله تعالى:

﴿لما يخذعون إلا أنفسهم﴾ (البقرة، ٩).

﴿لما يضل به إلا الفاسقين﴾ (البقرة، ٢٦).

﴿لما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾ (البقرة، ١٧٤).

﴿لما يضلون إلا أنفسهم﴾ (آل عمران، ٦٩).

د. (ما + فعل مضارع + إلا + مفعول به ثان)، كما في قوله تعالى:

﴿لَوْ مَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طَغْيَانًا كَبِيرًا﴾ (٤١، الاسراء).

﴿لَوْ مَا أَهْدِيَكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرِّشَادِ﴾ (٢٩، غافر).

هـ. (ما + فعل مضارع + إلا + مفعول لأجله)، كما في قوله تعالى:

﴿لَوْ مَا تَنَفَّقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ (البقرة، ٢٧٢).

و. (ما + فعل مضارع + إلا + حال مفردة)، كما في قوله تعالى:

﴿لَوْ مَا يُوْثِّنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (١٠٦، يوسف).

ثالثاً: ما + اسم + إلا + وقد ورد (٤٨) مرة، ويمكن تمثيله كما يلي:

أ. (ما + اسم مفرد (مبتدأ) + إلا + خبر)، كما في قوله تعالى:

﴿لَوْ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ (١٤٤، آل عمران).

﴿لَوْ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ (١٠، الأنفال).

ب. (ما + ضمير منفصل + إلا + خبر)، كما في قوله تعالى:

﴿لَوْ مَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٩، المنافقون).

﴿لَوْ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ (١٥٤، الشعراء).

﴿لَوْ مَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٥٢، القلم).

ج. (ما + اسم إشارة + إلا + خبر)، كما في قوله تعالى:

﴿لَوْ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ﴾ (٢٤، المؤمنون).

﴿لَوْ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٧، الأحقاف).

﴿لَوْ مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى﴾ (٤٣، سبا).

د. (ما + اسم موصوف + إلا + خبر)، كما في قوله تعالى:

﴿لَوْ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ (٣٢، الأنعام).

﴿لَوْ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ (٢٦، الرعد).

هـ. (ما + اسم مضاف + إلا + خبر)، كما في قوله تعالى:

﴿لَوْ مَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٣٨، التوبة).

﴿لَوْ مَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلِمٍ بِالْبَصَرِ﴾ (٥٠، القمر).

﴿لَوْ مَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (٢٥، غافر).

و. (ما + اسم مجرور + إلا + خبر (جملة اسمية))، كما في قوله تعالى:

﴿لَوْ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (٦، هود).

﴿لَوْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ (٥٦، هود).

﴿لَوْ مَا مِنْهُ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ (١٦٤، الصافات).

ز. (ما + اسم مجرور + إلا + مبتدأ)، مؤخر كما في قوله تعالى:

﴿لَوْ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (٥٤، النور).

﴿لَوْ مَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (١٧، يس).

رابعاً: (ما + كان + إلا....)، وقد ورد (٢٦) مرة، ويمكن تمثيله كما يلي:

أ. (ما + كان + اسمها + إلا + خبرها)، كما في قوله تعالى:

﴿لَوْ مَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (١٩، يونس).

ب. (ما + كان + اسمها مضاف + إلا + خبرها)، كما في قوله تعالى:

﴿لَوْ مَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مَكَاءً وَتَصَدِيقَةً﴾ (٣٥، الأنفال).

ج. (ما + كان + اسمها ضمير + خبرها + إلا + حال (جملة اسمية))، كما في

قوله تعالى:

﴿لَوْ مَا كُنَّا مَهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهلُمَا ظَالِمُونَ﴾ (٥٩، القصص).

د. ما + كان + خبرها + إلا + اسمها كما في قوله.

﴿لَوْ مَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ (١٤٧، آل عمران).

﴿لَوْ مَا كَانَ جَوَابُ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ (٨٢، الأعراف).

المطلب الثاني: النفي بـ - إن -

"إن" المكسورة الخفيفة^(١) تعد من الأدوات التي محضت للنفي، يقول الفراء^(٢): "وإن" بمنزلة "ما" في الجحد. ويرى الأخفش^(٣) أنها مخففة من الثقيلة فتحولت لتفيد معنى النفي يقول الأخفش^(٤): وأما "إن" فتكون في معنى "ما" كقوله تعالى: ﴿لَإِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ (الملك، ٢٠). أي: ﴿لَا مَا الْكَافِرُونَ﴾، ويرى الزركشي^(٥) أن من معانيها أن ترد بمنزلة "لا" النافية.

ولعل أقرب النحويين إلى: القول الفصل في هذه الأداة ما ذهب إليه أبو علي الفارسي^(٦) في أن "إن" تأتي في الكلام لمطلق النفي. ومطلق النفي يعني أن "إن" خلصت لنفي الماضي والحاضر والمستقبل. ويمكن أن نلمس هذا المعنى فيما نقله أبو حيان^(٧) في معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِرَّحْمَنِ وَلَدٍ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ (الزخرف، ١٨)، "قل" "إن" بمعنى "ما" النافية؛ لأنه يوهم أنك إنما نفيت عن الله الولد فيما مضى دون ما هو آت، وهذا محال.

ويضاف إلى ذلك ما ذهب إليه الرماني^(٨) من أن كل "إن" بعدها "إلا" هي للنفي، وما قاله الراغب الأصفهاني^(٩) أيضاً في "إن" النافية إذ يقول: "وأكثر ما يجيء بتعقبه "إلا" نحو قوله تعالى: ﴿لَإِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ (الجن، ٣٢)، "لإن هذا

(١) أنظر: المقتضب، ج ٢، ص ٣٦٢، وشرح المفصل، ج ٨، ص ١١٢، ومغني اللبيب، ص ٣٣.

(٢) معاني القرآن، الفراء، ج ٣، ص ٥٦.

(٣) الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة تلميذ سيبويه ت (٢١١هـ).

(٤) الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة تلميذ سيبويه ت (٢١١هـ).

(٥) البرهان في علوم القرآن، ج ٤، ص ٢٤١.

(٦) شرح الرضي على الكافية، ج ٤، ص ٢٨.

(٧) البحر المحيط، ج ٨، ص ٢٩.

(٨) معاني الحروف، ص ٧٥.

(٩) المفردات، ص ٢٧.

إلا قول البشر (٢٥، المشر)، و "إن نقول: **«إلا اعتراك بعض آلمتنا بسوء»** (٥٤، هود)، ويذكر السيوطي^(١) أن "إن" لا تأتي إلا مع "إلا".

وكلام العلماء صحيح، ولكن ليس على إطلاق ما ذكر السيوطي. وهذا يعني أن "إن" النافية مختصة بأداة الحصر "إلا" دون غيرها من حروف النفي. وهذا الاختصاص يزيد التأكيد قوة كما سيأتي.

وتقترن "إن" النافية بـ "لما" المشددة التي بمعنى "إلا" كقراءة بعض القراء السبعة: **«إن كل نفس لما عليها حافظ»** (٤، الطارق)، أي: ما كل نفس إلا عليها حافظ، وقوله تعالى: **«وإن كل لما جميع لدينا محضرون»** (٣٢، يس). أي: ما كل إلا جميع^(٢).

إلا أن ابن هشام يعقب على قول العلماء إذ يقول^(٣): "وقول بعضهم: لا تأتي "إن" النافية إلا وبعدها "إلا" أو "لما" المشددة مردود بقوله تعالى: **«وإن عندكم سلطان بهذا»** (٦٨، يونس)، وقوله تعالى: **«قل: إن أدري أقريب ما توعدون»** (٢٥، الجن)، و **«وإن أدري لعله فتنة لكم»** (٢١، الأنبياء).

وتدخل "إن" على الجملة الاسمية وعلى الجملة الفعلية. فإذا دخلت على الجملة الاسمية ففي أعمالها قولان:

الأول: "أنها ليست عاملة وهو مذهب سيبويه والفرّاء"^(٤).
الثاني: "أنها عاملة عمل "ليس" وهو مذهب الكسائي والمبرد"^(٥).
وقد دافع عن مذهب سيبويه ابن يعيش إذ يقول^(٦): "وكان سيبويه لا يرى فيها إلا رفع الخبر لأنها حرف نفي دخل على الابتداء والخبر، والفعل والفاعل كما تدخل همزة الاستفهام فلا تغيره، وذلك كمذهب بني تميم فسي "ما". ويقول ابن

(١) همع الهوامع، ج ٢، ص ١١٦.

(٢) مغني اللبيب، ص ٣٤.

(٣) أنظر المقتضب، ج ٢، ص ٣٦٢، ومعاني الحروف، ص ٧٥، وشرح المفصل، ج ٨، ص ١١٣، ومغني اللبيب، ص ٣٥، والجنى الداني، ص ٢٩٩، وهمع الهوامع، ج ٤، ص ١١٦.

(٤) أنظر المقتضب، ج ٢، ص ٣٦٢، ومعاني الحروف، ص ٧٥، وشرح المفصل، ج ٨، ص ١١٣،

ومغني اللبيب، ص ٣٥، والجنى الداني، ص ٢٢٩، وهمع الهوامع، ج ٤، ص ١١٦.

(٥) شرح المفصل، ج ٨، ص ١١٣.

يعيش^(١) وغيره (أي غير سيبويه) يعملها عمل "ليس" فيرفع بها وينصب الخبر كمال فعل ذلك في "ما" وقد أجازته أبو العباس المبرّد. قال: لأنه لا فصل بينها وبين "ما" (في المعنى). ويرى ابن يعيش^(٢) أن المذهب في هذه المسألة هو مذهب سيبويه إذ يقول: "والمذهب الأول: لأن الاعتماد في عمل "ما" على السماع والقياس يأبله، ولم يوجد في "إن" من السماع ما وجد في "ما". والذي يريد أن يقوله ابن يعيش في تعليلة هذا: إن السماع كان قليلاً أو نادراً في "إن" مقارنةً مع "ما" لهذا لا يقاس عليه؛ لأن ما ورد في إهمال "إن" أعم وأغلب مما ورد في إعمالها.

أما في إعمالها وهو مذهب الكسائي والمبرّد فلم يرد في القرآن الكريم إلا في قراءة^(٣) سعيد^(٤) بن جبير لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَاداً أَمْثَلُكُمْ﴾ (الأعراف، ١٩٤)، "فعباداً" خبر إن النافية العاملة عمل "ليس".

وورد إعمالها شعراً في البيتين الآتيين:

الأول^(٥): مجهول القائل. أنشده الكسائي:

إن هو مستولياً على أحد إلا على أضعف المجانين.

الثاني^(٦): مجهول القائل أيضاً:

إن المرء ميتاً بانقضاء حياته ولكن بأن يُبغى عليه فيخذل

ويذكر أن إعمالها لغة أهل العالية^(٧) إذ حكى عنهم^(٨): "إن نافعك ولا

ضارك"، "وإن أحدٌ خيراً من أحدٍ إلا بالعافية".

(١) المصدر السابق نفسه. ج ٨، ص ١١٣

(٢) المصدر السابق نفسه. ج ٨، ص ١١٣

(٣) أنظر الجنى الداني، ص ٢٣٠، ومغني اللبيب، ٣٥-٣٦، وأوضح المسالك، ج ١، ص ٢٩١، وهمع الهوامع، ج ٤، ص ١١٦.

(٤) سعيد بن جبير: أصله من الحبشة، أحد القراء والتفسير والحديث عن ابن عباس وابن عمر واشتهر بسعة علمه. قتله الحجاج سنة ٩٥هـ.

(٥) أنظر الجنى الداني، ص ٢٣٠، وأوضح المسالك، ج ١، ص ٢٩١، وهمع الهوامع، ج ٤، ص ١١٦.

(٦) الجنى الداني، ص ٢٣٠، وهمع الهوامع، ج ٤، ص ١١٧.

(٧) العالية: منطقة فوق نجد إلى أرض تهامة إلى ما وراء مكة وقرى بظاهر المدينة أنظر معجم البلدان، ج ٤، ص ٧١.

(٨) الجنى الداني ص ٢٣٠، مغني اللبيب ص (٣٦) وهمع الهوامع ج ٤ ص ١١٦.

وسمع الكسائي^(١) أعرابياً يقول: "إنّا قائماً" فأنكرها عليه، وظن أنها إنّ المشددة، وقعت على قائم. قال: فاستثبته، فإذا هو يريد "إن أنا قائماً" فترك الهمزة (أي همزة "أنا" اسم إن)، وأدغم على حد قوله تعالى: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ وَبِشَآئِهِ﴾ (٣٨، الكهف).

يلاحظ هنا أن الكسائي كان حريصاً على أن يوثق القراءة القرآنية بالشعر والنثر، وأن ينقل لنا لغة القوم الذين كانوا يعملونها مما جعل المبرد وهو أحد أقطاب مدرسة البصرة يقتنع بمذهبه.

إن حرص الكسائي على توثيق القراءة القرآنية نابع من كونه أحد القراء السبعة، وأنه أحد أكبر فلاسفة العربية الذين رووا اللغة عن العرب، وفوق كل ذلك فهو مؤسس مدرسة الكوفة في النحو.

ويرى الدكتور شوقي ضيف^(٢): "إن السبب في تأسيس الكسائي مدرسة الكوفة، وفي منهجه الذي وضعه هو أن يعاد النظر في التأصيل العام لقواعد النحو، وأن يُفسح فيها للقراءة واللغات الشاذة؛ لأنه من القراء للذكر الحكيم. فقد كانت تجري في قراءاته أحروف تشذ على قواعد النحو البصري. فخشي أن يظن بهذه الحروف أنها غير جائزة، وأنها لا تجري على العربية السليمة وربما خشي اندثارها".

وبالرغم من احتجاج الكسائي والمبرد لأعمال "إن" إلا أن الأعمال مع جوازه يبقى نادراً يحفظ ولا يقاس عليه.

وفي دخول "إن" على الجملة الاسمية يرى الزمخشري^(٣) أنها تكون لنفي الحال كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَكَمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ (٥٧، الأنعام)، (٤٠، يوسف)، (٦٧، يوسف).

(١) مع الهوامع، ج ٤، ص ١١٦.

(٢) المدارس النحوية، ص ١٧٦-١٧٧.

(٣) المفصل، ص ٣٠٧.

يقول الدكتور فاضل السامرائي^(١): "والحق أنها تكون لغير الحال أيضاً فهي للحال عند الإطلاق. وقد تكون للمضي: كقوله تعالى في سيدنا عيسى عليه السلام: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٥٩، الزخرف)، وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (٢٤، فاطر)، وقوله: ﴿إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلِ فَحَقَّ عِقَابُ﴾ (١٤، ص).

وقد تكون للاستقبال: كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرِيبَةٍ إِلَّا لَنَحْنُ مَهْلُكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (٥٨، الاسراء)، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ (٧١، مريم)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ كُلَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (٩٣، مريم).

وقد تكون للاستمرار: كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِغْ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (٤٤، الاسراء)، وقد تكون للحقيقة غير مقيدة بزمن وذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَمْهَاتَهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ (٢، المجادلة). وقوله: ﴿إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ (٩، الملك).

فهي كما هو واضح لنفي الحال عن الإطلاق، وإن قيدت كانت بحسب ذلك القيد.

وتدخل "إن" على الجملة الفعلية فلا تعمل ولا تترك أثراً على الفعل. فإن دخلت على الفعل المضارع كانت للحال عند الزمخشري^(١) كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ (١٤٨، الأنعام)، ويرى الدكتور فاضل السامرائي^(٢) "أنها إن دخلت على الفعل الماضي تكون لنفي الماضي القريب من الحال في الغالب وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ (٦٢، النساء)، وقد تكون للاستقبال نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مَعْزُورُونَ﴾ (٥٣، يس)،

(١) معاني النحو، ج ٤، ص ٥٧٥.

(٢) المفصل، ص ٣٠٧.

(٣) معاني النحو، ج ٤، ص ٥٧٥-٥٧٦.

وقد تكون لغير الحال نحو قوله تعالى: ﴿يَلْزَمُ الْإِنْسَانَ الْفِئَةُ﴾

بعضهم بعضاً إلا غروراً^(١) (٤٠، فاطر)، فهي هنا للاستمرار^(١).

وقد ورد التركيب النحوي الدال على الحصر مصدراً بـ "إن" النافية فسي

القرآن الكريم ثمانين (٨٠) مرة. وقد تنوع ما بعدها حسب الشيوخ من فعل

مضارع إلى فعل ماضٍ إلى اسم إلى فعل ماضٍ ناقص "كان".

تركيب جملة الحصر في القرآن الكريم بحسب ما بعد

— إن —

أ. جاءت "إن" مقترنة بالفعل الماضي عدة مرات ويمكن تمثيلها كما يلي:

— (إن + فعل ماضٍ + إلا + مفعول به)، كما في قوله تعالى:

﴿يَحْلِفُونَ إِنَّ أَرْضَنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ (النساء، ٦٢)

﴿وَلِيَحْلِفْنَ إِنَّ أَرْضَنَا إِلَّا الْحَسَنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

(التوبة، ١٠٨).

— (إن + فعل ماضٍ + إلا + ظرف زمان)، كما في قوله تعالى:

﴿وَيَنْتَظِنُونَ أَنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء، ٥٢).

﴿قَالَ: إِنَّ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (المؤمنون، ١١٤).

ب. (إن + فعل مضارع + إلا...)، ورد ١٥ مرة، ويمكن تمثيلها:

— (إن + فعل مضارع + إلا + فعل ماضٍ)، كقوله تعالى:

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ (هود، ٥٤)

— (إن + فعل مضارع + إلا + مفعول به)، كقوله تعالى:

﴿وَأِنْ يَمْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (الأنعام، ٢٦)

﴿إِنْ اتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ (الأنعام، ٥٠).

﴿إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِسْلَامَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ (هود، ٨٨).

(١) معالي النحو، ج ٤، ص ٥٧٥-٥٧٦.

- (إن + فعل مضارع + إلا + مفعول به ثان)، كقوله تعالى:

﴿إِنْ يَنْتَظِرُونَكَ إِلَّا هَؤُلَاءِ﴾ (الأنبياء، ٣٦)

- (إن + فعل مضارع + إلا + مفعول مطلق)، كما في قوله تعالى:

﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ (الجاثية، ٣٢).

- (إن + فعل مضارع + إلا + مصدر مؤول في محل نصب مفعول به)، كما

قوله تعالى:

﴿إِنْ تَرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ (التقصص، ١٩).

ج. (إن + اسم + إلا....)، ورد "٤٥" مرة ويمكن تمثيلها على:

- (إن + اسم "مبتدأ" + إلا + خبر كما في قوله تعالى:

﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُنَاقُونَ﴾ (الأنفال، ٣٤).

- (إن اسم نكرة دال على العموم + إلا + خبر)، كما في قوله تعالى:

﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذِبُ الرِّسَالِ﴾ (ص، ١٤).

- (إن + ضمير مبتدأ + إلا + خبر)، كما في قوله تعالى:

﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف، ١٨٨).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الأعراف، ١٨٤).

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾

(المؤمنون، ٣٧).

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ (الدخان، ٣٥).

﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ (فاطر، ٢٣).

﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ (هود، ٥٠).

- (إن + اسم إشارة مبتدأ + خبر)، كما في قوله تعالى:

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (هود، ٧).

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الأنعام، ٢٥).

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (يوسف، ٣١).

- (إن + من الزائدة لاستغراق الجنس + اسم "مبتدأ" + خبر جملة فعلية)، كما

في قوله تعالى:

﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر، ٢٤).

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَنْبِغُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء، ٤٤).

- (إن + من الزائدة لاستغراق الجنس + اسم "مبتدأ" + خبر جملة اسمية كما في قوله تعالى:

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ (الحجر، ٢١).

﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (الإسراء، ٥٨).

د. (إن + كان + إلا...) وقد وردت "3" مرات ويمكن تمثيلها بالنمطين الآتيين:

- (إن + كان + معموليها + إلا + شبه جملة جار ومجرور فضله)، كما في قوله تعالى:

﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ (البقرة، ١٤٣).

- (إن + كان + إلا + خبرها)، كما في قوله تعالى:

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صِحَّةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ...﴾ (يس، ٢٩).

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صِحَّةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (يس، ٥٣).

المطلب الثالث: النفي بـ لا -

تعد "لا" من الأدوات التي تخلص للنفي، ويقول برجشتراسر^(١) عنها أنها: "أقدم حروف النفي في العربية" وتدخل على الجملة الاسمية والجملة الفعلية. فإن دخلت على الجملة الاسمية فتارة: تعمل عمل "إن"، وعندئذ تسمى نافية للجنس، وهنا يقول ابن يعيش^(٢): "وإنما استحققت أن تكون عاملة لشبهها "بأن" الناصبة للأسماء ووجه الشبه بينهما أنها داخلة على المبتدأ والخبر كما أن "أن" كذلك. وأنها نقيضة "أن"، لأن "لا" للنفي و"أن" للإيجاب، وحق النقيض أن يخرج على حد نقيضة من الإعراب هو: ضربت زيداً، وما ضربت زيداً. فقولك: ضربت زيداً: فعل وفاعل ومفعول به، وقولك ما ضربت زيداً نفي لذلك. ومع ذلك فقد أعربته إعرابه من حيث كان نقيضه يشعر بمعنى الرفع له، فلما أشبهت "لا" "أن" وكانت عاملة في المبتدأ والخبر كانت لا كذلك عاملة في المبتدأ والخبر لأنهما تقتضيهما جميعاً كما تقتضيهما "أن" فكان النفي بعد الإيجاب يقتضي الأعمال برأيه وهذا هو وجه الشبه مثال ذلك قوله تعالى: ﴿لَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٩٣).

وتارة تعمل عمل ليس ويرى النحاة أن عملها قليل، حتى ادّعى أنه ليس موجوداً^(٣). وتدخل "لا" على الجملة الفعلية، فتتفي الفعل المضارع وتخلصه للاستقبال. يقول سيبويه^(٤): "وإذا قال: 'هو يفعل'، ولم يكن الفعل واقعاً فنفيه 'لا يفعل'، وإذا قال: 'ليفعل' فنفيه 'لا يفعل' كأنه قال: 'والله ليفعل' فقلت: 'والله لا يفعل' وفي شرح عبارة سيبويه هذه يقول ابن يعيش^(٥): "فـ لا" جواب "هو يفعل" إذا أريد به المستقبل، فإذا قال القائل: يقوم زيد غداً، وأريد نفيه قيل: لا يقوم؛

(١) التطور النحوي، برجشتراسر، ص ١١٥.

(٢) شرح المفصل، ابن يعيش، ج ١، ص ١٠٥.

(٣) أنظر شرح المفصل، ابن يعيش، ج ١، ص ١٠٨، ومغني اللبيب، ابن هشام، ص ٣١٥.

(٤) الكتاب، سيبويه، ج ١، ص ٤٦٠.

(٥) شرح المفصل، ابن يعيش، ج ٨، ص ١٠٨.

لأن "لا" حرف موضوع لنفي المستقبل. وكذلك إذا قال: ليفعلن وأريد النفي قيل:
"لا يفعل"؛ لأن النون تصرف الفعل للاستقبال. ويرى ابن يعيش^(١) أن "لا" لا
تنفي فعل الحال.

ويرى الدكتور فاضل السامرائي أن "لا" تدخل على الفعل المضارع فلا
تقيده بزمان على الأرجح وإن كان النحاة يرون أنها تخلصه للاستقبال^(٢) ويستدل
الدكتور السامرائي على ذلك فيقول^(٣) "والحق أنها قد تكون للحال كقوله تعالى:
﴿لَمَّا لَكُمْ لَا تَنْطَفُونَ﴾ (٩٢، الصافات)، و﴿لَمَّا لِيَ لَا أَرَى الْهَدَى﴾ (٢٠، النمل). وقد
تكون للاستقبال نحو قوله تعالى: ﴿لَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا
يُزَكِّيهِمْ﴾ (١٧٤، النحل). وقد تكون للاستمرار نحو قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذْ
سَنَةً وَلَا يَوْمًا﴾ (٢٥٥، البقرة).

واضح أن الدكتور السامرائي قد اعتمد في معنى "لا" على قرائن الفعل
المضارع، وهذا منهج شديد في تحديد المعنى بدقة.
وتدخل على الفعل الماضي. وفي ذلك يقول ابن يعيش^(٤): "وربما نفوا
بها الماضي نحو قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صُلِيَ﴾ (٣١، القيامة) أي لم يصدق ولم
يصل، ومنه قوله تعالى: أيضاً ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ (١٠، البلد) أي لم يقتحم".
وقد ورد التركيب الدال على الحصر بـ "لا" النافية في القرآن الكريم
(٩٥) مرة وقد تنوع ما بعدها حسب الشيوخ من اسم إلى فعل مضارع.

(١) شرح المفصل، ابن يعيش، ج ٨، ص ١٠٧.

(٢) معاني النحو، فاضل السامرائي، ج ٤، ص ٥٨١.

(٣) معاني النحو، فاضل السامرائي ج ٤، ص ٥٨٢.

(٤) شرح المفصل، ابن يعيش، ج ٨، ص ١٠٨.

تركيب جملة الحصر في القرآن الكريم

بحسب ما بعد - لا -

أ. (لا + اسم + إلا + ...) وقد تمثل هذا النمط في آيات التوحيد في القرآن الكريم.

وقد حددت آيات التوحيد "٣٧" مرة ويمكن تمثيلها في الأنماط الآتية:

- (لا + اسم + إلا + اسم)، كما في قوله تعالى:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (الصفات، ٣٥)، (محمد، ١٩).

- (لا + اسم + إلا + ضمير + اسم موصوف)، كما في قوله تعالى:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة، ١٦٣).

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (البقرة، ٢٥٥).

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (ال عمران، ٦).

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ (الحشر، ٢٧).

- (لا + اسم + إلا + ضمير +)، كما في قوله تعالى:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام، ١٠٢).

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ (الأعراف، ١٥٨).

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة، ٣١).

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾ (الرعد، ٣٠).

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (النمل، ٢٦).

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ (الحشر، ٢٥).

- (لا + اسم + إلا + ضمير....)، كما في قوله تعالى:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (طه، ١٤).

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء، ٢٥).

- (لا + اسم + إلا + ضمير)، كما في قوله تعالى:

- (لا + اسم + إلا + اسم موصول)، كما في قوله تعالى:

﴿إِلَهَ إِلَهَ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ (يونس، ٩٠).

والمنتبج لأقوال النحاة في إعراب قوله تعالى: ﴿إِلَهَ إِلَهَ إِلَهَ﴾ يجد أن في إعرابها إشكالاً عند النحويين لتعدد الآراء فيها. وإن كان النحويون لم يعجزوا عن إيجاد الحلول لها، إلا أن هذه الحلول غير مقنعة - كما سنرى - وتبدأ المشكلة في إعراب جملة التوحيد تلك عند ما يقول النحاة: إنه لا يصلح أن يكون خبر لا النافية للجنس لفظ الجلالة "الله" في قولك: ﴿إِلَهَ إِلَهَ إِلَهَ﴾ وذلك لأمرين^(١):

الأول: أنه معرفة و "لا" لا تعمل في المعرفة.

الثاني: أن اسم "لا" هنا عام وقولك: ﴿إِلَهَ إِلَهَ إِلَهَ﴾ خاص والخاص لا يكون خبراً عن العام.

إلا أن سيبويه يرى أن لفظ الجلالة "الله" خبر لـ "لا" مع اسمها "إله" إذ إنهما في محل رفع على الابتداء عنده. قال سيبويه^(٢): "واعلم أن "لا" وما عملت فيه في موضع ابتداء. والدليل على ذلك قول العرب من أهل الحجاز: لا رجل أفضل منك، والخبر خبر المبتدأ". ويخالفه أبو حيان^(٣): إذ يقول: "ومذهب سيبويه لا يجوز؛ لأنه يلزم من ذلك جعل المبتدأ نكرة والخبر معرفة وهو عكس ما استقر في اللسان العربي".

وبالرغم من ذلك نجد من يؤيد مذهب سيبويه؛ فهذا ابن هشام^(٤) يؤيده إذ

يقول: نعم يصح أن يقال: إنه خبر لـ "لا" مع اسمها....".

(١) شرح المفصل، ج ١، ص ١٠٧.

(٢) الكتاب، ج ٢، ص ٢٧٥، وانظر البحر المحيط، ج ١، ص ٦٣٧، ومغني اللبيب، ص ٧٤٥.

(٣) البحر المحيط، ج ١، ص ٦٣٧.

(٤) مغني اللبيب، ص ٧٤٥.

أما الزمخشري^(١) فيرى أن الأصل في جملة التوحيد تلك "الله إله" المعرفة: مبتدأ، والنكرة: خبره على القاعدة، ثم قدم الخبر، ثم أدخل النفي على الخبر؛ والإيجاب على المبتدأ، وركبت "لا" مع الخبر.

واضح أن الزمخشري أراد حل هذه الإشكالية إلا أن ابن هشام^(٢) يرد عليه فيقول: "فما تقول في نحو" "لا طالعاً جبلاً إلا زيد" لم انتصب خبر المبتدأ؟ فإن قال: إن "لا" عاملة عمل ليس، فذلك ممتنع لتقدم الخبر، ولا نتقاض النفي، وتعريف أحد الجزأين....".

ويذكر الزركشي^(٣) أن قول ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ قدّر فيه الأكثرون خبر "لا" محذوفاً فقدّر بعضهم الوجود، وبعضهم: "لنا" وبعضهم "بحق". قال: لأن آلهة الباطل موجودة في الوجود كالوثن، والمقصود نفي ما عدا إله الحق، ونازع فيه بعضهم، ونفي الحاجة إلى قيد مقدّر محتجاً بأن نفي الماهية من غير قيد أعم من نفيها بقيد.

ويرى الزركشي^(٤) أن التقدير أولى جرياً على القاعدة العربية في تقدير الخبر. وعلى هذا فالأحسن في رأيه تقدير الأخير لما ذكر (أي: لا إله "بحق" إلا الله)، ولتكون الكلمة جامعة لثبوت ما يستحيل نفيه ونفي ما يستحيل ثبوته. ولما كان إعراب لفظ الجلالة "الله" خبراً متعزراً عند النحويين، فقد أعربوه مرفوعاً على البدلية ولهم في ذلك عدة أقوال:

الأول^(٥): لا (إله) إله الله
↓ ↓ ↓

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) معنى "لا إله إلا الله"، الزركشي، ص ٧٤.

(٤) معنى "لا إله إلا الله"، ص ٧٥.

(٥) أنظر البحر المحيط، ج ١، ص ٦٣٧، ومغني اللبيب، ص ٧٤٦.

المحل مبتدأ أداة استثناء بدل مرفوع من
محل اسم لا



يلاحظ أن الإعراب على البدلية جعل النحاة يفترضون تأويلات كثيرة
وكان لكل منهم رأي مخالف للآخر - كما رأينا - والخلاف دال على وجود
مشكلة وسبب هذه المشكلة هو الإعراب على البدلية أيضاً. ولكن الملاحظة الأهم
هي: هل الإعراب البدلية يحقق معنى التوحيد في قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾؟

(١) انظر مغني اللبيب، ص ٧٤٦.

(٢) البحر المحيط، ج ١، ص ٦٣٧.

(٣) المصدر السابق نفسه، ج ١، ص ٦٣٧.

يقول الإمام فخر الدين الرازي^(١): في قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ (البقرة، ١٦٣): إن "هو" ارتفع لأنه بدل من موضع "لا مع الاسم، ولنتكلم في قوله: ما جاءني رجل إلا زيد، فقوله: إلا زيد مرفوع على البدلية؛ لأن البدلية هي الأعراض عن الأول والأخذ بالثاني، فكأنك قلت: "ما جاءني إلا زيد" وهذا معقول؛ لأنه يفيد نفي المجيء عن الكل إلا عن زيد".

يلاحظ من قول الرازي أنه بنى مفهوم البدلية وهي الأعراض عن الأول والأخذ بالثاني على قوله: "ما جاءني رجل إلا زيد". وهذا تركيب نحوي دال على استثناء تام منفي، وهذا التركيب يعني أننا استثنينا جنس الرجال من المجيء إلا زيدا، إلا أن تخصيص المجيء لزيد لا ينفي أن يكون معه نساء أو أطفال، فتخصيص المجيء لزيد لم يكن مطلقاً بل كان معه شركاء. فلو اعتبرنا أن جملة التوحيد في قوله تعالى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ استثناء تام منفي كما يدعي النحاة لاقتضى ذلك الشرك بالله عز وجل سبحانه وتعالى.

وهذا لا يعني أننا استدركنا على النحويين ما فاتهم. فهذا أبو حيان^(٢) يقول في معنى جملة التوحيد: بأنها: "توكيد لمعنى الوحدانية، ونفي الإلهية عن غيره، وهي جملة جاءت لنفي كل فرد من الآلهة، ثم حصر ذلك المعنى فيه تبارك وتعالى، فدللت على حصر الإلهية فيه من اللفظ الناص على ذلك...".

وهذا يعني أن النحويين لم يغفلوا عن إفادة جملة التوحيد الحصر والتخصيص المطلق إلا أنهم لما ربطوا إعرابها بالبدلية باعتبارها جملة استثناء تام منفي اختلفت الصيغة؛ لأن جملة الاستثناء التام المنفي لا تفيد الحصر والتخصيص المطلق ولا تتطابق معها.

وفي ذلك تقول الباحثة ربعة الكعبي^(٣): "إننا لو اعتبرنا لفظ الجلالة "الله" والتركيب استثناء تاماً (غير موجب) نكون قد قررنا معنى اشتراك الله مع غيره في الألوهية، وهو مخالف لوحدانيته".

(١) التفسير الكبير، ج ١، ص ١٩٦

(٢) البحر المحيط، ج ١، ص ٦٣٧.

(٣) التركيب الاستثنائي في القرآن الكريم، ص ٣٩.

وتفضل هذه الباحثة^(١) إعراب لفظ الجلالة "الله" خبراً مرفوعاً للحصر؛ لأن تركيب الحصر -كما نقول- يؤدي المعنى المستفاد من الجملة وهو تخصيص الله وحده بالالوهية وإثباتها له ونفيها عن غيره.

وعليه يمكن القول: إن الإعراب المقترح الذي يحقق المعنى لقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ هو في اعتبار جملة التوحيد هذه جملة حصر؛ لأن جملة الحصر تفيد التخصيص المطلق ويمكن توضيح هذا الإعراب على النحو الآتي:

الله	إلا	إله	لا
↓	↓	↓	↓
خبر مرفوع. ويجوز لنا ابن هشام ^(٤) أن تكون المعرفة "لفظ الجلالة "الله" خبر للنكرة المخصصة أو العامة.	أداة حصر	"مبتدأ وحركة الفتح حسب لهجات قبائل العرب" ^(٣)	"نافية لمطلق النفي غير عاملة" ^(٢)

وفي هذا الإعراب حاول الباحث الخروج عن المعادلة النحوية المستقيمة التي لا تقبل الانحناء أو المطاوعة، وذلك حتى يتطابق التركيب مع المعنى السذي سيقت له.

ب. (لا + فعل مضارع + إلا)، وقد ورد هذا النمط أربعاً وستين مرة، ويمكن تمثيله بالآتي:

- (لا + فعل مضارع + إلا + فعل ماضٍ) كقوله تعالى:

﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَاوِثًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ (التوبة، ١٢١).

﴿لَا يَخَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ (الكهف، ٤٩).

(١) المصدر السابق نفسه ص ٣٩.

(٢). أسلوب النفي، ص ٦٩.

(٣) المصدر السابق نفسه ص ٦٩.

(٤) مغني اللبيب، ص ٧٤٦.

﴿لَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ (الفرقان، ٣٣).

- (لا + فعل مضارع + إلا + فاعل)، كقوله تعالى:

﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف، ٧٩).

﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة، ٧٩).

﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ (الحاقة، ٣٧).

- (لا + فعل مضارع مبني للمجهول + إلا + نائب فاعل)، كقوله تعالى:

﴿لَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ (القصص، ٨٠).

- (لا + فعل مضارع + إلا + مفعول به)، كقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جَهْدَهُمْ فَيسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ (التوبة، ٧٩).

﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَمِّ﴾ (هود، ٢٦).

﴿وَنُخْشِعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (طه، ١٠٨).

﴿الزَّانِي لَا يَنْكحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ (النور، ٣).

- (لا + فعل مضارع + إلا + ظرف زمان)، كقوله تعالى:

﴿لَوْ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء، ١٤٢).

﴿لَوْ لَا يَلْبِثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء، ٧٦).

- (لا + فعل مضارع + إلا + حال مفردة)، كقوله تعالى:

﴿لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ (الأعراف، ١٨٧).

- (لا + فعل مضارع + إلا + حال جملة اسمية)، كقوله تعالى:

﴿لَوْ لَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَى﴾ (الأعراف، ١٨٧).

﴿لَوْ لَا يَنْفَقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارْهُونَ﴾ (التوبة، ٥٤).

- (لا + فعل مضارع + إلا + جار ومجرور فضله)، كقوله تعالى:

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ (الأنعام، ١٦٤).

﴿لَوْ لَا يَحْبِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ (فاطر، ٤٣).

﴿لَا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر﴾ (الحشر، ١٤).

ج. وردت لا الناهية مقترنة بالفعل المضارع ٥ مرات في قوله تعالى:

﴿لَا تَوَدُّوا أَنْ يَمُنَ دِينَكُمْ﴾ (آل عمران، ٧٢).

﴿لَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّذِينَ حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (الأنعام، ١٥١).

﴿لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (الأنعام، ١٥٢).

﴿لَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت، ٤٦).

المطلب الرابع: النفي بـ هل -

الأصل في "هل" أنها للاستفهام. "إلا أنه يراد بالاستفهام النفي عندما تكون مقترنة بـ "إلا" أداة الحصر كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ (١٥٨، الأنعام).

وقوله تعالى ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ (الأعراف، ٥٣) وقوله تعالى ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ (الزخرف، ١٦) (١).

ويرى ابن قتيبة (٢) والزرکشي (٣) أن "هل" في التراكيب بمعنى "ما" النافية. ويضيف ابن قتيبة إلى "هل" معنى آخر هو التقرير كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (٦٠، الرحمن).

واضح من هذه الآية الكريمة أنها تطلب إقرار المخاطب بما يريده المتكلم. إذ إن الإجابة هي الإقرار لدى كل عاقل بأن الإحسان هو جزاء الإحسان، وهذا يعني أن "هل" لو كانت بمعنى "ما" النافية مطلقاً نحو "ما جزاء الإحسان إلا الإحسان" لضاع معنى التقرير الذي ذكره ابن قتيبة.

(١) مغنى اللبيب، ابن هشام، ص ٤٥٩.

(٢) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص ٥٣٨.

(٣) البرهان في علوم القرآن، الزرکشي، ج ٤، ص ٤٥٨.

يقول الدكتور فاضل السامرائي^(١): "الذي يبدو راجحاً أن معنى النفي

المستفاد من "هل" لا يطابق النفي بحرف النفي من جهتين:

الأولى: إن النفي بـ "هل" ليس نفيّاً محضاً بل هو استفهام أشرب معنى النفي.

فقد يكون مع النفي تعجب أو استنكار أو غير ذلك من المعان. فقوله

تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِهْدَى الْحُسْنَىٰ﴾ (التوبة، ٥٢)

يختلف عن قولنا: ﴿لَمَّا تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِهْدَى الْحُسْنَىٰ﴾ فإن "هل"

ليست نفيّاً خالصاً فإن فيها من التحدي والاستخفاف ما لا يؤديه النفي

المحض.

الثانية: إن النفي الصريح إنما هو إقرار من المخبر. نحو قوله تعالى: ﴿لَوْ هَلْ

نَجَازِي إِلَّا الْكُفُورُ﴾ (١٧، سبا) فإن عرض المسألة بصيغة النفي (وما

يجازي إلا الكفور) معناه أن المتكلم يقررها ابتداءً. وإن عرضها بصورة

الاستفهام معناه أن المخاطب هو الذي يصدر الحكم. فإذا قلت مثلاً: "ما

نعاقب إلا المعتدي" كنت أنت الذي ذكرت الأمر وقررت به بنفسك، ولكن إذا

قلت: "هل يعاقب إلا المعتدي؟" فأنت تريد منه الجواب، تريد أن يصدر

الحكم على نفسه هو فهناك فرق واضح بين الأمرين.

وقد وردت "هل" مقترنة بـ "إلا" أداة الحصر "١٨" مرة في القرآن

الكريم، وقد تنوع ما بعدها من اسم إلى فعل مضارع.

(١) معاني النحو، فاضل السامرائي، ج٤، ص ٦١٧-٦١٨.

تركيب جملة الحصر في القرآن الكريم

بحسب ما بعد - هل -

- (هل + فعل ماضٍ ناقص + إلا + خبر)، كما في قوله تعالى:

﴿لَقَدْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (الإسراء، ٩٣).

- (هل + اسم (مبتدأ) + إلا + خبر)، كما في قوله تعالى:

﴿لَهْلُ جِزَاءِ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (الرحمن، ٦٠).

- (هل + اسم مجرور (خبر مقدم) + إلا + مبتدأ)، مؤخر كما في قوله تعالى:

﴿لَفَهْلُ عَلَى الرِّسْلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (النحل، ٣٥).

- هل + فعل مضارع مبنى للمجهول + إلا + نائب فاعل كما في قوله تعالى:

﴿لَهْلُ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الأحقاف، ٣٥).

- هل + فعل مضارع + إلا + مفعول به كما في قوله تعالى:

﴿لَهْلُ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ (الأعراف، ٥٣).

﴿لَقَدْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنِ﴾ (التوبة، ٥٢).

﴿لَهْلُ نَجَازِيهِ إِلَّا الْكَفُورُ﴾ (سبا، ١٧).

﴿لَفَهْلُ يَنْظُرُونَ إِلَّا سَنَةَ الْأُولَيْنِ﴾ (فاطر، ٤٣).

﴿لَفَهْلُ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ (محمد، ١٨).

- هل + فعل مضارع + إلا + مفعول به ثانٍ كما في قوله تعالى:

﴿لَهْلُ يَجْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف، ١٤٧).

﴿لَهْلُ تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (يونس، ٥٢).

المطلب الخامس: النفي بـ - لم -

"لم حرف جزم لنفي المضارع وقلبه ماضياً"^(١)، وهي "نفي لـ" فعل"^(٢) أي: "نفي الفعل الماضي"^(٣)، "فإذا قال القائل: "قام زيد" كان نفيه لم يقم، وهو يدخل على لفظ المضارع ومعناه الماضي"^(٤). وفي نفيها للفعل المضارع أحوال ثلاثة:

الأولى: "أن يكون نفي المضارع بها متصلاً بالحال كقوله تعالى: ﴿قَالَ: رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ (٣، مريم) "^(٥)، "قالنفي في هذه الآية ما يزال متصلاً إلى زمن المتكلم نحو: "لم يعد خالد من سفره إلى اليوم"^(٦).

الثانية: "أن يكون النفي بها منقطعاً كقوله تعالى: ﴿لَهْلَ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ (١، الإنسان) "^(٧) أي: "انقضى حدوث الفعل في وقت ما ثم انقطع النفي (أي: زال النفي) وذلك نحو قولك: (لم يحفظ

(١) أنظر معاني الحروف، ص ١٠٠، والجنى الداني، ص ٢٨٠، ومغنى اللبيب، ص ٣٦٥.

(٢) الكتاب، ج ٢، ص ٣٠٥.

(٣) المقتضب، ج ١، ص ٩٦، وانظر شرح المفصل، ج ٨، ص ١٠٩.

(٤) شرح المفصل، ج ٨، ص ١٠٩-١١٠.

(٥) مغنى اللبيب، ص ٣٦٧.

(٦) معاني النحو، ج ٤، ص ٥٦٦.

(٧) الجنى الداني، ص ٢٨٢، وانظر مغنى اللبيب، ص ٣٦٧.

يقول ابن هشام^(١): "ولهذا جاز لم يكن ثم كان" وبناء على قوله فالإنسان لم يكن ثم كان بعد ذلك. الثالثة: "أن يكون النفي بها مستمرا كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (٣، الإخلاص)، "فاستمرارية النفي هنا لم تنقطع ولا تنقطع ولن تنقطع. كقوله تعالى: ﴿مِثْلُ الْجَنَّةِ النَّارِ وَعَدَ الْمُتَّقُونَ، فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ (١٥، محمد).

وقد وردت "لم" مقترنة بأداة الحصر "إلا" ٨ مرات في القرآن الكريم:
 - (لم + فعل مضارع "تكن" + إلا + اسم تكن مؤخر)، كما في قوله تعالى:
 ﴿لَنْ تَكُنَ تَكُنْ فَنَتَنَبَّهْهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا...﴾ (الأنعام، ٢٣).
 - (لم + فعل مضارع تكن + معمولها + إلا + اسم بدل من اسم كان المؤخر)،
 كما في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ (النور، ٦٠).
 - (لم + فعل مضارع + إلا + ظرف زمان)، كما في قوله تعالى:
 ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ (النازعات، ٤٦).
 - (لم + فعل مضارع + إلا + شبه جملة جار ومجرور حال)، كما في قوله
 تعالى:
 ﴿لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشَقِّ الْأَنْفُسِ﴾ (النحل، ٧)، حال من الضمير
 المرفوع في بالغيه.

المطلب السادس: النفي بـ — ليس —

"ليس فعل لا يتصرف"^(٢)، "وتدخل على الجملة الاسمية فتنتفيها، وتكون لنفي الحال عند الإطلاق نحو: "ليس زيد قائما" أي: الآن. وإذا قيدت كانت بحسب ذلك القيد"^(٣) أي: أنها قد تنفي "الماضي والاستقبال إضافة إلى الحال. فمثال

(١) مغنى اللبيب، ص ٣٦٨.

(٢) أنظر المقتضب، ج ٤، ص ٨٧، وشرح المفصل، ج ٧، ص ١١٢، والجنى الدانسي، ص ٤٥٩، ومغنى اللبيب، ص ٣٨٧، وجمع الهوامع، ج ٢، ص ٧٧، ولا يتصرف: أي فعل جامد. لا يأتي منه مضارع ولا أمر: أنظر المعجم الوافي في النحو العربي.

(٣) شرح ابن عقيل ج ١، ص ٢٤٩.

نفي "ليس" للماضي قول العرب^(١): "ليس خَلَقَ اللهُ مثله" والقرينة التي جعلت "ليس" تنفي الماضي: الفعل الماضي "خلق". ومثال نفي "ليس" للاستقبال: "ليس زيد قائماً غداً" فالظرف "غداً" خلص "ليس" لنفي الاستقبال، وفي قوله تعالى: ﴿لَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ (٨، هود). "فوجود قرينة عقلية في الآية دلت على الاستقبال، وهي أن يوم القيامة لم يأت بعد"^(٢).
وكما هو واضح فإن "ليس" لا تنفي الماضي والاستقبال بمفردها وذلك لعدم تصرفها، وإنما تعمل ذلك لاجتماع القيود والقرائن التي تدل على الماضي والاستقبال.

وزعم ابن السراج^(٣): أن "ليس" حرف بمنزله "ما"، وتابعه الفارسي^(٤) في الحلييات. ولعل الصواب أن "ليس" فعل بدليل اتصال الضمير بها نحو لست ولستما ولستن وليسوا وليست ولنس^(٥).
وتقترن "ليس" بأداة الحصر "إلا" فيكتسب التركيب النحوي تأكيداً يمكن تشبيهه بـ "ليس" عندما تقترن بالباء المؤكدة لنفي الخبر نحو: ﴿لست عليهم بمسيطر﴾ (٢٢، الغاشية)، فإذا اقترن الخبر بعدها بـ "إلا" ففي أعمال النفي بـ "ليس" قولان:

الأول: "انتقاض النفي عن خبر "ليس" بـ "إلا". فإذا اقترن الخبر بـ "إلا" نحو: "ليس الطيب إلا المسك" انتقض عمل "ليس" فلم يعمل النفي بالخبر، وهنا يعرب "المسك": خبراً مرفوعاً بالضممة على لغة بني تميم حملاً لها على "ما" في الإهمال^(٦).

(١) مغنى اللبيب، ص ٣٨٦، وجمع الهوامع، ج ٢، ص ٧٩.

(٢) النحو الوافي، ج ١، ص ٥٦٠.

(٣) الأصول في النحو، ج ١، ص ٩٠، وانظر مغنى اللبيب، ص ٣٨٧.

(٤) المسائل الحلييات، ص ٢٢١، وانظر مغنى اللبيب، ص ٣٨٧.

(٥) أنظر المقتضب، ج ٤، ص ٨٧، وشرح المفصل، ج ٧، ص ١١١، والجنى الداني، ص ٤٥٩، ومغنى اللبيب، ص ٣٨٧.

(٦) أنظر مغنى اللبيب، ص ٣٨٧، وجمع الهوامع، ج ٢، ص ٨٠.

الثاني: "إعمال النفي بـ "ليس" عند اقترانها بـ "إلا" نحو: "ليس الطيب إلا المسك" ينصب "المسك" باعتبارها خبراً لـ "ليس" على لغة الحجازين^(١). وقد وردت ليس مقترنة بـ "إلا" أداة الحصر في القرآن الكريم أربع مرات ويمكن تمثيلها بالأنماط الآتية:

- (ليس + شبه جملة جار ومجرور (خبر ليس مقدم) + إلا + اسم ليس مؤخر)، كما في قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْأَمْرِ إِلَّا نَارُهُ﴾ (هود، ١٦)

﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (النجم، ٣٩)

- (ليس + الباء الزائدة مع اسمها + خبرها + إلا + جار ومجرور (حالا)) ﴿وَلَيْسَ بِضَارِهِمْ شَيْءٌ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (يونس، ٥٨).

- (ليس + جار ومجرور متعلق بخبرها + اسم ليس مؤخر + إلا + جار ومجرور متعلق باسم ليس).

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ (الغاشية، ٦).

المطلب السابع: النفي بـ - لن -

"أصلها عند الخليل والكسائي "لا أن" فحذفت الهمزة تخفيفاً والألف للساكنين^(٢)، وأصلها عند الفراء^(٣) "لا" فأبدلت الألف "تونا" فصارت "لن". أمّا سيبويه والجمهور فذهبوا إلى أنها بسيطة مفردة غير مركبة^(٤). وهي حرف نفي ينصب الفعل المضارع ويخلصه للاستقبال^(٥). "فهي لنفي الفعل المضارع في

(١) أنظر مغنى اللبيب، ص ٣٨٧، وجمع الهوامع، ج ٢، ص ٨٠.

(٢) أنظر الكتاب، ج ٣، ص ٦، ومعاني الحروف، ص ١٠٠، وشرح المفصل، ج ٨، ص ١١٢، والجنى الداني،

ص ٢٨٤، والبرهان، ج ٤، ص ٤١٢، وجمع الهوامع، ج ٤، ص ٩٤.

(٣) أنظر شرح المفصل، ج ٨، ص ١١٢، وأنظر جمع الهوامع، ج ٤، ص ٩٤.

(٤) أنظر الكتاب، ج ٣، ص ٥، وشرح المفصل، ج ٨، ص ١١٢، والجنى الداني، ص ٢٨٤، والبرهان، ج ٤،

ص ٤١٢.

(٥) أنظر الكتاب، ج ٣، ص ٤٠٥، ٢٢٠، والمقتضب، ج ٢، ص ٦، وشرح المفصل، ج ٨، ص ١١١-١١٢،

والجنى الداني، ص ٢٨٤، وجمع الهوامع، ج ٤، ص ٩٥.

المستقبل لأنها نقيضة "السين" و "سوف" و "أن" في الإثبات، فإذا قلت: سأفعل أو سوف أفعل كان نقيضه أو نفيه لن أفعل^(١). ويرى الزمخشري^(٢) أن "لن" تفيد تأكيد النفي.

واختلف النحويون حول إفادة "لن" تأكيد النفي. فذهب الزمخشري^(٣) في "أنموذجه" إلى أنها تفيد تأكيد النفي "قال: فقولك: لن أفعله، كقولك: لا أفعله أبداً، ومنه قوله تعالى: ﴿لَإِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذباباً ولو اجتمعوا له﴾ (الحج، ٧٣) وقد ردّ عليه بأنها لو كانت للتأكيد لم يقيد منفيها "باليوم" في قوله تعالى: ﴿لَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنسِيًا﴾ (مريم، ٢٦)، وكان ذكر "الأبد" في قوله تعالى: ﴿لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً﴾ (البقرة، ٩٤)، تكراراً إذ الأصل عدمه^(٤).

ويرى النحويون أن إفادة "لن" التأكيد في آية "لَنْ يَخْلُقُوا ذباباً، ليس من مقتضيات "لن" ذاتها وإنما لأمر خارجي أي لوجود القرينة التي تصرفها للتأكيد وهي أن الأصنام التي يدعونها من دون الله لا تمتلك القدرة على الخلق^(٥).

وهذا يعني أن "لن" ليس معناها النفي على التأكيد إلا بوجود القرائن فلذا انتفت القرائن كانت لنفي المستقبل "بل أن النفي مستمر في المستقبل إلا أن يطرأ ما يزيله^(٦)". وقد وردت "لن" مقترنة بـ "إلا" أداة الحصر (٧) مرات في القرآن.

- (لن + فعل مضارع + إلا + فاعل)، كما في قوله تعالى:

﴿لَنْ يَصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ (التوبة، ٥١).

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارياً﴾ (البقرة، ١١١).

- (لن + فعل مضارع + إلا + مفعول به ثان)، كما في قوله تعالى:

﴿لَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً﴾ (النبا، ٣٠).

(١) أنظر شرح المفصل، ج ٨، ص ١١١-١١٢، والبرهان ج ٤، ص ٤١٣.

(٢) المفصل، ص ٣٦٥، وأنظر مع الهوامع ج ٤، ص ٩٥.

(٣) شرح الأنموذج، ص ١٩٠، وأنظر الجنى الداني، ص ٢٨٤، ومع الهوامع، ج ٤، ص ٩٤.

(٤) مع الهوامع، ج ٤، ص ٩٤.

(٥) أنظر مع الهوامع، ج ٤، ص ٩٤-٩٥، وحاشية الصبان، ج ٣، ص ٢٧٨.

(٦) البرهان، ج ٤، ص ٤١٣.

- (إن + فعل مضارع + إلا + مفعول لأجله)، كما في قوله تعالى:

﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ (ال عمران، ١١١)

- (إن + فعل مضارع + إلا + ظرف زمان)، كما في قوله تعالى:

﴿لَنْ تَمْسَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ (ال عمران، ٢٤)

المطلب الثامن: النفي بـ — ألا —

"ألا" بالفتح والتشديد حرف تحضيضي مختص بالجمل الفعلية^(١) وهي

مركبة من "أن" الناصبة و"لا" النافية^(٢)، وقد وردت "ألا" مقترنة بـ — "إلا" أداة الحصر (٥) مرات في القرآن الكريم على نمطين اثنين ويمكن تمثيلهما بالآتي.

- (ألا + فعل مضارع منصوب + إلا + مفعول به)، كما في قوله تعالى:

﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ (هود، ٢).

﴿أَمْرٌ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (يوسف، ٤٠).

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (الاسراء، ٢٣).

﴿قَدْ خَلَتْ لَدُنَّ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ (الأحقاف، ٢١).

- (ألا + فعل مضارع منصوب + إلا + نائب عن مفعول مطلق)، كما في قوله

تعالى: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تَكَلَّمَ النَّاسُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمًا﴾ (ال عمران، ٤١).

المطلب التاسع: النفي بـ — ماذا —

ماذا أداة استفهام لكنها إذا اقترنت بـ "إلا" كانت نافية وقد وردت مرة

واحدة ضمن هذا التركيب في القرآن الكريم في قوله تعالى: "فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون"

(١) مغنى اللبيب، ص ١٠٢.

(٢) المصدر السابق نفسه.

يقول أبو حيان^(١): "ماذا: استفهام معناه النفي، ولذلك دخلت "إلا" وصحبة التقرير والتوبيخ، كأنه قيل: ما بعد الحق إلا الضلال، فالحق والضلال لا واسطة بينهما. إذ هما نقيضان، فمن يخطئ الحق وقع في الضلال، وماذا: مبتدأ. تركبت "ذا" مع "ما" فصار مجموعهما استفهاماً، كأنه قيل: أي شيء؟ والخبر: بعد الحق، ويجوز أن يكون "ذا" موصولة ويكون خبر "ما"، كأنه قيل: ما الذي بعد الحق؟ وبعد صلة...."

أما البيضاوي^(٢) فقال: "إن" "ماذا": استفهام بمعنى "ليس" وقد فسر تلك الآية بقوله: "استفهام إنكاري، أي ليس بعد الحق إلا الضلال؛ فمن تخطى الحق الذي هو عبادة الله تعالى وقع في الضلال."

المطلب العاشر: النفي بـ: مَنْ -

وتكون على أربعة^(٣) أوجه: شرطية: كقوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً

يَجْزِ بِهِ﴾ (النساء، ١٥٤)

وموصولة: كقوله تعالى: ﴿لَا أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ

وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ (الحج، ١٨).

- ونكرة موصوفة: وتدخل عليها "رَبُّ" دليلاً على أنها نكرة كقول الشاعر:

رَبٌّ مَنْ أَنْضَجَتْ غَيْظاً قَلْبَهُ قَدْ تَمَنَّى لِي مَوْتاً لَمْ يَطْعْ

أي رب رجل^(٤) أنضجت غيظاً قلبه، - واستفهامية كقوله تعالى:

﴿مَنْ مَعَنَا مِنْ مَوَدَّةِ﴾ (يس، ٥٢)

والذي يهمننا من هذه الأوجه كلها: مَنْ الاستفهامية. إذ عندما تقترب

"إلا" أداة الحصر تتشرب معنى النفي فيصبح التركيب دالاً على الحصر.

(١) البحر المحيط، ج ٥، ص ١٥١.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج ١، ص ٣٧٨.

(٣) مغنى اللبيب، ص ٤٣١-٤٣٢.

(٤) جامع الدروس العربية، ج ١، ص ١٤١.

وقد وردت هذه الأداة في القرآن الكريم (٤) مرات كما في قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ؟﴾ (ال عمران، ١٢٥).

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ؟﴾ (البقرة، ٢٥٥).

﴿وَمَنْ يَفْقَظْ مَنْ رَحْمَةً رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ؟﴾ (الحج، ٥٦).

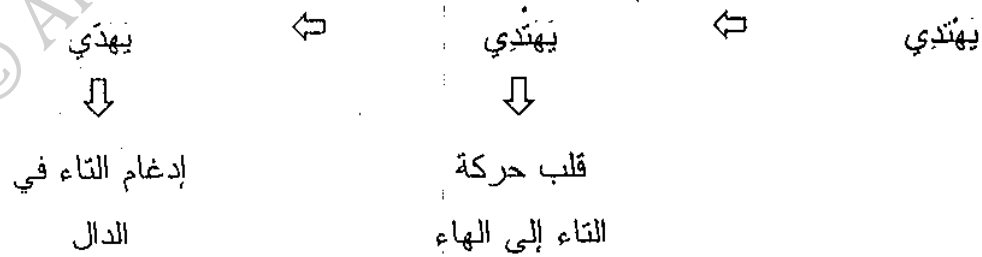
﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ؟﴾ (البقرة، ١٣٠).

المطلب الحادي عشر: النفي بـ — أمّن —

أمّن أداة استفهام مركبة من "أم" و "من" بمعنى "الذي". وقد وردت في القرآن الكريم مرة في سياق دلت فيه على الأفكار المتضمنة معنى النفي يتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ؟ قُلْ: اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ. أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ؟ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ؟﴾ (يونس، ٣٥).

وقد فسر تلك البيضاوي إذا يقول^(١): "أم" استفهام إنكاري. الذي لا يهتدي إلا أن يهتدي. من قولهم هدى بنفسه إذا اهتدى، أو لا يهتدي غيره إلا أن يهتدي الله".

ويورد أبو حيان^(٢) الأصل في "يهتدي" فيقول: "وأصله "يهتدي" فقلب (أي ابن عامر القاري) حركة التاء إلى الهاء، وأدغمت التاء في الدال. ويمكن تمثيل ذلك بالآتي:



(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج ٢، ص ٢٧٨.

(٢) البحر المحيط، ج ٥، ص ١٥٧.

وهي هنا بالفتح وقرأ حفص وغيره كذلك أي بفتح الهاء، إلا أنهم كسروا الهاء لتصبح يهذي لما اضطر (أي حفص القارئ) إلى الحركة حرك بالكسر.

المطلب الثاني عشر: النفي بـ - أبي -

يقول الراغب^(١) الأصفهاني صاحب "كتاب المفردات" في معنى "أبي" إنها من: "الإباء: شدة الإمتناع: فكل إباء امتناع وليس كل امتناع إباء كقوله تعالى: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ﴾ (التوبة، ٣٢)، ومنه رجل أبي: ممتنع من تحمل الضيم، وأبيت الضير.

وقد كان قوله تعالى: ﴿... وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ﴾ (التوبة، ٣٢) محل نظر عند العلماء. هل هذه الجملة استثناء؟ أم ماذا؟ وإذا كانت استثناء، فالتساؤل المطروح من قبل العلماء^(٢): كيف دخلت "إلا" وليس في الكلام حرف نفي؟ ولا يجوز ضربت إلا زيدا. واضح هنا أن العلماء يلمسون أن هذه الجملة استثناء مفرغ - كما يقولون - والتفريغ كما يقولون يقتضي النفي وليس هناك حرف نفي. فكيف تحل هذه الإشكالية؟

يقول الفراء^(٣): "أن" "إلا" إنما دخلت في هذه الجملة لأن في الكلام طرفاً من الجحد. أي يريد أن في "أبي" معنى النفي والجحد.

ويقول علي بن سليمان^(٤): إنما جاز دخول "إلا" في الجملة؛ لأن أباي تعني: المنع أو الامتناع، فصارعت بذلك النفي، ويستحسن أبو جعفر النحاس هذا المعنى فيقول: هذا حسن كما قال الشاعر:

(١) المفردات، ص ٧.

(٢) أنظر الكشف، ج ٢، ص ٢٥٧، والبحر المحيط، ج ٥، ص ٣٤، والقرطبي، مج ٤، ج ٨، ص ٥٤.

(٣) معاني القرآن، ج ١، ص ٤٣٣.

(٤) البحر المحيط، ج ٥، ص ٣٤، وأنظر القرطبي، مج ٤، ج ٨، ص ٥٤، وعلي بن سليمان بن الفضل النحوي أبو الحسن الأخفش الأصغر، ويذكر أن له تصانيف في النحو أبرزها شرح سيبويه، وتفسير رسالة سيبويه، والتثنية والجمع، مات سنة ٣١٥، بغية الوعاة، ج ٢، ١٦٨.

وهل لي أمٌ غيرها إن تركتها أبى الله إلا أن أكون لها ابناً^(١)
 أما الزمخشري^(٢) فيجيب عن ذلك بقوله: "إن "أبى" أجريت مجرى "لم
 يرد" (أي لم يرد الله إلا أن يتم نوره) ألا ترى كيف قوبل "يريدون أن يطفنوا"
 بقوله و "يأبى". وكيف أوقع موقع ولا يريد "الله إلا أن يتم نوره".
 ويقول أبو السعود^(٣): "ويأبى الله" أي لا يريد "إلا أن يتم نوره" بإعلاء
 كلمة التوحيد وإعزاز دين الإسلام، وإنما صح الاستثناء المفرغ من الموجب لكونه
 بمعنى النفي. كما أشير إليه لوقوعه في مقابلة قوله تعالى "يريدون"، وفيه من
 المبالغة والدلالة على الامتناع ما ليس في نفي الإرادة أي لا يريد شيئاً من الأشياء
 إلا إتمام نوره.

وأميل هنا إلى ما قاله أبو السعود من أن "أبى" تعني المبالغة في النفي
 والجحود. وهذا يعني أن "أبى" كانت أقوى في الدلالة على النفي والجحود من
 أدوات النفي نفسها.

لذا فقوله تعالى: ﴿... وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ﴾ (التوبة، ٣٢) هذه
 جملة حصر وليست استثناءً مفرغاً ولن نقدر "مستثنى منه" كما يفعل النحاة
 فيقولون مقدرين ذلك: "ويأبى الله كل شيء إلا أن يتم نوره"^(٤)؛ لأن قوله تعالى:
 ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ﴾ فيه إباء مطلق، والإطلاق أقوى من التحديد في
 هذه الجملة، فلو قدرنا المستثنى منه هنا لاكتسب الإباء نوعاً من التحديد مما
 يضعف التخصيص والحصر في الجملة. ومعنى الحصر واضح بين في هذه الآية
 الكريمة. فالكفار يهوداً، أو نصارى - كما هم في سياق الآية - أو غيرهم من الكفار
 فملمتهم واحدة - (يريدون أن يطفنوا نور الله). هذه إرادة الكفار والله سبحانه
 تعالى لم يقابل "إرادتهم" بقوله: "لم يرد" أيضاً بل قابلهم بما هو أقوى من ذلك
 النفي، لقد قابلهم بالإباء المطلق، فعندما كان السياق يتحدث عن إرادة حقيقية للكفار

(١) إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس، ج ٢، ص ١٣٧.

(٢) الكشاف، ج ٢، ص ٢٥٧.

(٣) تفسير أبي السعود، ج ٤، ص ٦١.

(٤) البحر المحيط، ج ٥، ص ٣٤، وانظر القرطبي، مج ٤، ج ٨، ص ٥٤.

بإطفاء نور الله: دلالاته، وحجته على توحيده، ودينه.... ولما كانت إرادتهم فاعلة ونافذة، وخارجه إلى الوجود، وممارسة على أرض الواقع. هنا تتدخل إرادة الله سبحانه وتعالى فيأبى الله إباء ويمتنع امتناعاً مطلقاً إلا أن يتم نوره. فهنا انحصرت إرادة الله تعالى بشيء واحد هو "إتمام نوره تعالى".

ومن الحصر هنا تبين لنا عظم الفعل الذي يقوم به الكفار بإرادتهم إطفاء نور الله عز وجل ولعظم هذه الفعل حصر الله إرادته بإتمام نوره. ووقف في وجوههم، هم "يريدون" والله "يأبى".... ولو كره الكافرون!.

وقد وردت أبى في غير هذا الموضع في القرآن الكريم مقترنة بـ "إلا" أداة الحصر ثلاث مرات في قوله تعالى:

﴿.... فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كَفُورًا﴾ (٨٩، الإسراء)، و (٥٠، الفرقان).

﴿.... فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ (٩٩، الإسراء).

المبحث الرابع: الأدلة على أن - إنما -

و - إنما - أدوات حصر

اشتهر في كلام النحويين ابتداء من القرن الخامس الهجري أن "إنما" للحصر. ومن أبرز النحويين الذين استدلوا على أن "إنما" موضوعة للحصر: علي بن عيسى الربعي^(١) إذ يقول^(٢): "الدليل على كون إنما موضوعة للقصر، أنه لما كانت كلمة "إن" موضوعة لتأكيد الإسناد، ثم اتصلت بها "ما" المؤكدة ناسب أن تضمن معنى القصر؛ لأن القصر ليس إلا تأكيداً على تأكيد. فإن قولك: زيد جاء لا عمرو لمن يتردد في المجيء الواقع بينهما مفيداً إثباته لزيد في الابتداء صريحاً وفي الأخير ضمناً.. أي أن في قولك: زيد جاء فيه إثبات صريح للمجيء لزيد، وقولك: لا عمرو فيه إثبات ثان للمجيء لزيد ضمناً. وقد استحسنت هذا الوجه السكاكي^(٣) واستدل به على أن إنما موضوعة للقصر. وتابعه الخطيب^(٤) في استحسان هذا الوجه أيضاً.

وقد عقب محمد بن علي بن محمد الجرجاني^(٥) على هذا الوجه وأبطله بقوله: "وإنما هو أضعف من بيت العنكبوت؛ لأن هذه المقدمات. أي كون "ما" في "إنما" للتأكيد، وكون القصر تأكيداً على تأكيد، وكون زيد جاء لا عمرو للقصر، وأنه يفيد التأكيد، كلها ممنوعة.

ويرى الباحث أنه ليس هناك دليل على أن "ما" مؤكدة هنا. ثم إن كون القصر تأكيداً على تأكيد إنما هو آت من مفهوم القصر، إذ إن حقيقة القصر تقتضي إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه ولو كان القصر تأكيداً على تأكيد.

(١) علي بن عيسى الربعي: امام من أئمة النحو كان تلميذاً للسيرافي والفارسي، توفي سنة ٤٢٠ هـ.

(٢) الإشارات والتنبيهات، ص ٩٢.

(٣) مفتاح العلوم، ص ٢٩١.

(٤) الإيضاح، ج ٣، ص ٢٨.

(٥) الإشارات والتنبيهات، ص ٩٣.

للزم الحصر في قولك: والله إن زيدا لقائم - كما يقول الكرمانى^(١) - إذ إن كل حصر تأكيد على تأكيد، وليس كل تأكيد على تأكيد حصر.

ويرى ابن عطية^(٢) الغرناطي أن "إنما" لفظ لا تفارقه المبالغة والتأكيد حيث وقع وبصلح مع ذلك للحصر: فإذا دخل في قصة* وساعد معناها على الإنحصار، صلح ذلك وترتب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ (الكهف، ١١٠). ويعقب ابن حجر العسقلاني على قوله فيقول^(٣): "فجعل وزوده للحصر مجازاً يحتاج إلى قرينة وكلام غيره على العكس من ذلك، وإن أصل ورودها للحصر..." وقد أخذ بهذا الرأي أبو حيان^(٤) الأندلسي إذ يقول: "...وإذا فهم حصر فإنما يفهم من سياق الكلام، لا أن "إنما" دلت عليه..." واضح أن ابن عطية وابا حيان ينكران أن تكون "إنما" دالة على الحصر بوضعها. وسنرى أنهما يناقضان نفسيهما إذ يصرحان في مواضع من تفسيرهما أن "إنما" أداة حصر.

أما الإمام فخر الدين الرازي فقد استدلل على أنهما للحصر بقوله^(٥): "... كلمة "إن" للإثبات، وكلمة "ما" للنفي. فإذا اجتمعا لا بد أن يبقيا على أصليهما؛ فإما أن يفيدا ثبوت غير المذكور، ونفي المذكور وهو باطل بالاتفاق، أو ثبوت المذكور، ونفي غير المذكور وهو المطلوب". والذي يتضح من قول الإمام الرازي أن "إن" لإثبات المذكور، و "ما" لنفي ما عداه.

وتبع الإمام فخر الدين الرازي جماعة من الأصوليين فقالوا^(٦): "إن" للإثبات، و "ما" للنفي فلا يجوز أن يتوجها معاً إلى شئ واحد؛ لأنه تناقض، ولا أن يحكم بتوجه النفي للمذكور بعدها لأنه خلاف الواقع باتفاق. فتعين صرفه لغير

(١) عمدة القاري، شرح صحيح البخاري، ج ١، ص ٢٦.

(٢) الجنى الداني، ص ٣٨١، وانظر فتح الباري، ج ١، ص ٩.

* قصة: قضية، أو حكم

(٣) فتح الباري، ج ١، ص ٩.

(٤) البحر المحيط، ج ١، ص ١٩١.

(٥) التفسير الكبير، مج ٣، ج ٥، ص ١٢، وانظر الجنى الداني، ص ٣٨٢، وانظر عمدة القاري شرح صحيح

البخاري، ج ١، ص ٢٦.

(٦) مغنى اللبيب، ص ٤٠٦.

المذكور وصرف الإثبات للمذكور". أي تكون إن لإثبات المذكور و "ما" لنفي ما عداه.

وقد ردَّ هذا الرأي. ووصف بأنه قول من لا وقوف له على علم النحو. وفي هذا الصدد يقول أبو حيان^(١): "وكونها (أي "إنما") مركبة من "ما" النافية دخل عليها "إن" التي للإثبات فأفادت الحصر قول ركيك فاسد صادر عن غير عارف بالنحو..." ويقول المرادي^(٢) صاحب الجنى الداني: "وهو ظاهر الفساد لوجوه منها:

الأول: أن فيه إخراج "ما" النافية عما تستحق من وقوعها صدرا.

الثاني: أن فيه الجمع بين حرف نفي وحرف إثبات بلا فاصل.

الثالث: أنها لو كانت نافية لجاز أن تعمل، فيقال: إنما زيد قائما.

وأما ابن هشام^(٣) فيرى أن ذلك البحث مبني على مقدمتين بباطلتين بإجماع النحويين إذ ليست "إن" للإثبات، وإنما هي لتوكيد الكلام إثباتا؛ مثل: "إن زيدا قائم" أو نفياً مثل: "إن زيدا ليس بقائم، ومنه قوله تعالى: **لَإِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً**" (يونس، ٤٤) وليست ما للنفي بل هي بمنزلتها في أخواتها لئتما ولعلما ولكنما وكأنما (أي ما كافة)".

والجمهور على أن "إنما" أداة حصر^(٤) مكونة من "إن" التي تفيد التأكيد والتحقيق، و "ما" الزائدة الكافة والمكفوفة أيضاً، ويقع بعدها الجملة من المبتدأ والخبر، والفعل والفاعل^(٥)، وتسمى "ما" إذا وليها الفعل والفاعل "المهيئة"^(٦).

(١) البحر المحيط، ج ١، ص ١٩١.

(٢) الجنى الداني، ص ٣٨٢-٣٨٣، وانظر عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ج ١، ص ٢٦.

(٣) مغنى اللبيب، ص ٤٠٦.

(٤) الإتيان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٩٥.

(٥) شرح المفصل، ج ٨، ص ٥٥-٥٦، وانظر شرح التصريح على التوضيح، ج ١، ص ٢٥٥، والمسائل

المشكلة المعروفة بالبغداديات، ص ٢٦٨-٢٦٩.

(٦) البحر المحيط، ج ١، ص ١٩١.

وقد ضبط ابن يعيش^(١) معناها فقال: "إن" "إنما" زادت "إن" تأكيداً على تأكيدها فصار فيها معنى الحصر، وهو إثبات الحكم للشيء المذكور دون غيره. فإن معنى: إنما الله إله واحد. أي ما الله إلا إله واحد نحو لا إله إلا الله، وكذلك "إنما أنت منذر" أي ما أنت إلا منذر.

وذكر ابن عطية الغرناطي وأبو حيان الأندلسي أن "إنما" لا تفيد الحصر بوضعها، وإنما تفيده من سياق الكلام - كما ذكرنا - إلا أن المنتبغ لكلامهما في تفسيرهما يجدهما يناقضان نفسيهما إذ يصرحان في مواضع من تفسيرهما بأن "إنما" أداة حصر.

فهذا ابن عطية^(٢) الغرناطي يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لَغَيْرِ اللَّهِ﴾ (البقرة، ١٧٣): "إنما" هنا حاصرة وهذا يعني أن "إنما" هي التي أكسبت السياق مفهوم الحصر، وليس السياق هو الذي أكسبها معنى الحصر - وهذا تناقض مع ما قاله سابقاً مما يسدل على أن "إنما" للحصر.

وهذا أبو حيان الأندلسي يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النحل، ١١٥): "... وذكر تعالى تحريم هؤلاء الأربع (الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به) في سورة الأنعام، وهذه السورة وهما مكيّتان بأداة الحصر... ويقول^(٣) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ: لَا تَتَخَذُوا إِلَهِينَ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ﴾ (النحل، ١٥). ولما نهى عن اتخاذ الإلهين، واستلزم النهي عن اتخاذ آلهة أخبر تعالى أنه إله واحد، كما قال: ﴿وَالْحُكْمَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ (البقرة، ١٦٣)، بأداة الحصر وبالتأكيد بالوحدة. ويقول^(٤) أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا سَكْرَتُ أَبْصَارِنَا بِل

(١) شرح المفصل، ابن يعيش، ج ٨، ص ٥٦.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية الغرناطي ج ٢، ص ٤٧.

(٣) البحر المحیط، أبو حيان الأندلسي، ج ٥، ص ٥٢٦.

(٤) البحر المحیط، أبو حيان الأندلسي، ج ٥، ص ٤٨٥.

نحن قوم مسحورون ﴿١٥﴾ (الحجر، ١٥): "وجاء لفظ "إنما" مشعرا بالحصر، كأنه قال: ليس ذلك: إلا تسكيراً للأبصار" (١).

يتضح لنا مما تقدم أن "إنما" للحصر على الرغم من رفض ابن عطية وأبي حيان لذلك، لأننا وجدناهما يتناقضان مع نفسيهما فيقران بأنهما للحصر - كما رأينا.

وهذا يعني أن الصواب هو رأي الجمهور من أن "إنما" للحصر. و"إنما" تفيد الحصر برأي الجمهور (٢)؛ لأنها تضمنت معنى "ما" و "إلا"، وهذا التضمن لا يعني أن معنى "إنما" هو معنى "ما" و "إلا" بعينه حتى كأنها مرادفة لهما - كما سيأتي -. وأدلة الجمهور على إفادة "إنما" للحصر هي الآتي:

أولاً: ما قاله المفسرون القدامى (٣).

وأبرز آية تناولها المفسرون، وظهر فيها أن "إنما" تفيد الحصر لتضمنها معنى "ما" و "إلا" هي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ...﴾ (البقرة، ١٧٣) و (النحل، ١١٥)، وقد صدر هذا التضمن من قبل المفسرين الموثوق بتفسيرهم لكونهم من أئمة اللغة والبيان نحو ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وغيرهما من الصحابة والتابعين: أن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ...﴾ بنصب الميتة معناه: ما حرم عليكم إلا الميتة. وقد ذكر هذا المعنى أيضاً الطبري (٤) شيخ المفسرين. وهذا المعنى هو المطابق لقراءة الرفع (أي رفع الميتة) إذ إن القراءة بالرفع تفيد الحصر بتعريف الطرفين وقد

(١) المصدر السابق نفسه ج ٥، ص ٤٨٥.

(٢) انظر مفتاح العلوم، ص ٢٩١، والإيضاح، ج ٢، ص ٢٥، وشرح التلخيص، ج ٢، ص ١٩٤، والمطبول، ص ٢١٢.

(٣) انظر دلائل الإعجاز، ص ٢١٥، ومفتاح العلوم، ص ٢٩١، وحاشية شرح المفصل، ج ٨، ص ٥٦، والإيضاح، ج ٢، ص ٢٥، والمطبول ص ٢١٢.

(٤) انظر جامع البيان عن تأويل القرآن، الطبري، ج ٢، ص ١١٥.

بنى على ذلك إذا كانت قراءة الرفع تفيد الحصر فقراءة النصب تفيد
أيضاً^(١).

وفي الآية الكريمة ثلاث قراءات هي:

الأولى: إن "حَرَّمَ" فعل مبني للمعلوم مع نصب "الميتة"، وضمير الفاعل "حَرَّمَ"
عائد إلى الله، و "ما" هنا كافة، والمعنى: ما حَرَّمَ عليكم: إلا الميتة، وليس
في هذه القراءة للآية دليل على الحصر إلا قول المفسرين - كما ذكرنا^(٢).
والثانية: إن "حَرَّمَ" فعل مبني للمعلوم أيضاً لكن مع رفع "الميتة"، وهنا يتعين أن
تكون "ما" موصولة اسم "إن" فعل مبني للمعلوم أيضاً لكن مع رفع
"الميتة"، وهنا يتعين أن تكون "ما" موصولة اسم "إن" والعائد عليها
محذوف، و "الميتة": خبر، والمعنى: إن الذي حرمه الله تعالى عليكم هو
الميتة، وهذا المعنى يفيد الحصر بتعريف الطرفين أي طرفي الإسناد.
وقد قوى هذه القراءة المفيدة للقصر ما قاله المفسرون في القراءة الأولى
من أن المعنى ما حَرَّمَ عليكم إلا الميتة؛ لأن هذا المعنى يفيد القصر
أيضاً، فاتحدت القراءتان في إفادة معنى القصر، وإن اختلف طريق
القصر في كل^(٣).

والثالثة: إن "حَرَّمَ" فعل مبني للمجهول مع رفع "الميتة" وهنا يحتمل أن تكون "ما"
كافة فتكون كالقراءة الأولى ويكون المعنى: "ما حرم عليكم إلا الميتة". وهذه
القراءة على ذلك الاحتمال لا تقوى القراءة الأولى من حيث المعنى؛ لأن
"ما" كافة فيها كما في الأولى، فلا تفيد القصر من طريق آخر غير "إنما"
كما يحتمل أن تكون "ما" موصولة اسم "إن"، والخبر: الميتة، فتكون كالقراءة

(١) انظر مفتاح العلوم، ص ٢٩١، وشروح التلخيص، ج ٢، ص ١٩٧.

(٢) جامع البيان، ج ٢، ص ١١٥، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مج ١، ج ٢، ص ٢٠٢-٢٠٣، وانظر
مفتاح العلوم، ص ٢٩١، والإيضاح، ج ٢، ص ٢٥، والمطول، ص ٢١٢، وعلم المعاني، ص ١٣٦،
والمعاني في ضوء أساليب القرآن، ص ٢٨٣.

(٣) انظر مفتاح العلوم، ص ٢٩١، وشروح التلخيص، ج ٢، ص ١٩٧، وعلم المعاني، ص ١٣٦، والمعاني
في ضوء أساليب القرآن، ص ٢٨٣.

الثانية المفيدة للقصر بتعريف طرفي الإسناد، وعلى هذا الاحتمال يكون في هذه القراءة تقوية للقراءة الأولى، ويرجح هذا الاحتمال بقاء إن عاملة على الأصل^(١).

ثانياً: ما قاله النحويون، وهم الخبيريون بأساليب العرب: من أن "إنما" لإثبات ما يذكر بعده ونفي ما سواه. ويلحظ أن النفي مصرح به في "ما" و "إلا"، أما في "إنما" فهو متضمن فيها^(٢).

ثالثاً: صحة انفصال الضمير مع "إنما"^(٣): مثل: "إنما يكرم الضيف أنا" والقاعدة عند النحويين أن الضمير إذا أمكن وصله وجب ولا يعدل عند وصله إلا لموجب؛ مثل: تقديمه على عامله أو وجود فاصل من شأنه أن يفصل بين الضمير وعامله كحرف الاستثناء (أو "ما" و "إلا")، أو حرف عطف، أو شئ يفصل بينهما فصلاً لازماً، وفي قولنا: "إنما يكرم الضيف أنا. ليس هناك مانع من اتصال الضمير في هذا المثال، إذ لا يوجد هنا تقديم أو فاصل -، وهذا يعني أنه لا يصلح الفصل في موضع "إنما" إلا إذا كان المعنى: ما يكرم الضيف إلا أنا؛ لأن إلا، لا يليها إلا الضمير المنفصل.

وعلى ذلك يكون المانع من الاتصال هنا هو الفصل بين الفعل وبين الضمير بفاصل هو "إلا" المقدرة، وعند اتصال الفعل بالضمير؛ نحو: "إنما أكرم الضيف" يفوت معنى الحصر، وفائدة الحصر إنما دل عليه فصل الضمير عن عامله بـ "إلا".

وانفصال الضمير مع "إنما" صحيح في اللغة، فقد ورد ذلك الانفصال في لغة من يحج بشعره، كما في قول الفرزدق الشاعر الأموي^(٤):

(١) أنظر شروح التلخيص، ج ٢، ص ١٩٨، وعلم المعاني، ص ١٣٦-١٣٧.

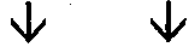
(٢) أنظر شرح المفصل، ج ٨، ص ٥٦، وشروح التلخيص، ج ٢، ص ١٩٨، وعلم المعاني، ص ١٣٧، والمعاني في ضوء أساليب القرآن، ص ٢٨٤.

(٣) أنظر دلائل الإعجاز، ص ٢٥٢-٢٥٣، ومفتاح العلوم، ٢٩١-٢٩٢، وحاشية شرح المفصل، ج ٨، ص ٥٦-٥٧، والإيضاح، ج ٢، ص ٢٦، وشروح التلخيص، ج ٢، ص ١٩٩-٢٠٠، والمطبول، ص ٢١٣.

وعلم المعاني، ص ١٣٧-١٣٨، والمعاني في.

(٤) ديوان الفرزدق، ج ٢، ص ١٥٣.

أنا الذائدُ الحامي الذمار وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي^(١)
 فقد فصل الضمير مع "إنما"، لأن المعنى المراد: لا يدافع عن أحسابهم
 إلا أنا، وعلى ذلك تكون "إلا" المقدرة قد فصلت بين الضمير وبين الفعل.
 "ولو كان المراد مجرد الإخبار بالدفاع دون قصر - لم يستقم الأسلوب؛
 لأنه لا يصح أن تقول: "يدافع أنا"، وإنما الصحيح أن تقول: أدافع، لكن لما كان
 غرض الشاعر أن يقصر الدفاع عن الأحساب على نفسه فقد فصل الضمير الذي
 أريد أن يكون مقصوراً عليه، وآخر؛ لأن المقصور عليه مع "إنما" يجب تأخيره
 فصار المعنى كما قلنا: لا يدافع عن أحسابهم إلا أنا^(٢)."



المقصور المقصور عليه الواجب
 تأخيره.

"وذلك المعنى هو المناسب لمقام الفخر والتمدح بذكر المناقب والمفاخر
 لأنه يحصر الدفاع عن أحساب القوم في الشاعر، وهذا لا ينافي الشاعر عن
 أحساب غيرهم أيضاً. ولو: آخر لفظ الأحساب، و وصل الضمير بالفعل، فقيل: إنما
 أدافع عن أحسابهم - لكان "الأحساب" هو المقصور عليه، ولكان المعنى: إنه يدافع
 عن أحسابهم، لا عن أحساب غيرهم وليس ذلك بمراد لما فيه من قصور الفخر
 والتمدح بالشجاعة والبطولة، والمقام مقام مبالغة إذا هو في معرض التفاخر وعد
 المآثر^(٣)."

(١) المصدر السابق نفسه ج ٢، ص ١٥٣.

(٢) أنظر دلائل الإعجاز، ص ٢٥٢-٢٥٣، ومفتاح العلوم، ص ٢٩١-٢٩٢، وحاشية المفصل، ج ٨، ص ٥٦-٥٧، والإيضاح، ج ٢، ص ٢٦، وشروح التلخيص، ج ٢، ص ١٩٩-٢٠٠، والمطول، ص ٢١٣،
 وعلم المعاني، ص ١٣٧-١٣٨، والمعاني في ضوء أساليب القرآن، ص ٢٨٤-٢٨٥.

(٣) أنظر دلائل الإعجاز، ص ٢٥٢-٢٥٣، ومفتاح العلوم، ص ٢٩١-٢٩٢، وحاشية المفصل، ج ٨، ص ٥٦-٥٧، والإيضاح، ج ٢، ص ٢٦، وشروح التلخيص، ج ٢، ص ١٩٩-٢٠٠، والمطول، ص ٢١٣،
 وشروح التلخيص، ج ٢، ص ١٩٩-٢٠٠، والمطول، ص ٢١٣، وعلم المعاني، ص ١٣٧-١٣٨،
 والمعاني في ضوء أساليب القرآن، ص ٢٨٤-٢٨٥.

"ولا يجوز" أن يقال: إن فصل الضمير هنا محمول على الضرورة، لا على ما تفيد "إنما" من معنى: "ما" و "إلا"، إذ كان بإمكان الشاعر أن يتجاوز الضرورة، لأنه كان يصح أن يقال: إنما أدافع عند أحسابهم أنا، على أن يكون أنا تأكيداً للضمير المستتر في "أدافع" بحيث لا يتغير الوزن الشعري للبيت في هذا الوجه. إلا أن المعنى ضمن هذا الوجه يتغير، إذ يفيد التركيب حينئذ أن الشاعر يدافع عن أحساب قومه لا عن أحساب غيرهم وذلك لا يناسب المقام كما ذكرنا فيما سبق. فلو لم يقتض الفصل بين الفعل والضمير معنى الحصر، لآتى به على ما ذكرنا؛ أي: إنما أدافع عن أحسابهم أنا...^(١)

والجدير ذكره أن الذي حمل بيت الفرزدق على الضرورة الشعرية هو أبو حيان^(٢) إذ يقول: ولا يجوز فصل الضمير المحصور بإنما، وإن الفصل في البيت الأول (أي بيت الفرزدق) ضرورة واستدل أبو حيان على ذلك بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بَوَاحِدَةً﴾ (سبا، ٤٦)، و ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ (يوسف، ٨١)، و ﴿وَإِنَّمَا تُوَفُّونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (ال عمران، ١٨٦). والذي يتضح من استدلال أبي حيان أنه قاس بيت الفرزدق: "إنما يدافع عن أحسابهم أنا" على الآية الكريمة: ﴿قُلْ: إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بَوَاحِدَةً﴾ فلمالم تحتمل الآية الكريمة ضمير الفصل، حكم أنه لا يجوز فصل الضمير المحصور بإنما، وأن الفصل هنا ضرورة شعرية، ويرد عليه ابن هشام^(٣) بقوله: وهذا "وهم؛ لأن الحصر فيهن (أي الآيات السابقة) في جانب الظرف لا الفاعل، ألا ترى أن المعنى: "ما أعظمكم إلا بواحدة، وكذلك الباقي".

أما "إنما" المفتوحة فقد أحقها الزمخشري "بإنما" المكسورة. فقال^(٤): "إنها تفيد الحصر؛ لأنها فرعها. وما ثبت للأصل ثبت للفرع. وقد اجتمعتا (أي المكسورة والمفتوحة) في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهُ

(١) انظر شروح التلخيص، ج ٢، ص ٢٠١، وانظر المطول، ص ٢١٣، وعلم المعاني، ص ١٣٨-١٣٩.

(٢) مغلي اللبيب، ص ٤٠٧.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) الكشاف، ج ٣، ص ١٣٦.

واحد (الأنبياء، ١٠٨). وقد تبع الزمخشري في قوله الإمام الفخر الرازي^(١) وابن هشام^(٢) وغيره^(٣). إلا أن أبا حيان رفض أن تكون "أنما" المفتوحة للحصر. لذلك يرد على الزمخشري فيقول^(٤): "وأما ذكره في "أنما" لقصر ما ذكر فهو مبني على أن "إنما" للحصر، وقد قررنا أنها لا تكون للحصر وإنما مع "إن" كهي مع "كان"، ومع "لعل" فكما أنها لا تفيد الحصر في التشبيه ولا الحصر في الترجي فكذلك لا تفيد مع "إن"، وأما جعله "أنما" دالة على الحصر للزم أن يقال: إنه لم يوح إليه شيء إلا التوحيد، وذلك لا يصح الحصر، إذ قد أوحى له أشياء غير التوحيد".

وقد تولى الإمام الفخر الرازي الإجابة عن ذلك قبل أن يتبنى أبو حيان رأيه إذ يقول^(٥): "فإن قيل لو دلت "أنما" على الحصر. لزم أن يقال: إنه لم يوح إلى الرسول صلى الله عليه وسلم شيء إلا التوحيد. ومعلوم أن ذلك فاسد. قلنا: المقصود منه المبالغة"^(٦).

وقد رد ابن هشام على أبي حيان فقال^(٧): "وقول أبي حيان: "إن دعوى الحصر هنا باطلة لاقتضائها أنه لم يوح إليه غير التوحيد": مردود. بأنه حصر مقيد؛ إذ الخطاب مع المشركين؛ فالمعنى: ما أوحى إليّ في أمر الربوبية إلا التوحيد، لا الإشراف، ويسمى ذلك قصر قلب؛ لقلب اعتقاد المخاطب".

وفي الحقيقة أن أبا حيان كما ناقض نفسه في دلالة "إنما" على الحصر ناقض نفسه أيضاً في دلالة "أنما" على الحصر فقد وجدناه يقول في قوله تعالى: **﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرِّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا عِلْمُوا أَنَّمَا عَلَى**

رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (المائدة/٩٢).

(١) التفسير الكبير، مج ١١، ج ٢٢، ص ٣٢.

(٢) مغنى اللبيب، ص ٥٩.

(٣) تفسير أبي السعود، ج ٦، ص ٨٩.

(٤) البحر المحيط، ج ٦، ص ٣١٨.

(٥) التفسير الكبير، مج ١١، ج ٢، ص ٣٢.

(٦) المصدر السابق نفسه.

(٧) مغنى اللبيب، ص ٥٩.

إذ يقول^(١): "فإن أعرضتم فليس على الرسول إلا أن يبلغ أحكام الله ، وليس عليه خلق الطاعة فيكم ولا يلحق من توليكم شيء، بل ذلك لا حق بكم، وفي هذا من الوعيد البالغ ما لا خفاء به. إذ تضمن أن عقابكم إنما يتولاه المرسل لا الرسول، وما كلف الرسول من أمركم غير تبليغكم، ووصف البلاغ بالمبين، إما لأنه يبين في نفسه واضح جلي، وإما لأنه مبين لكم أحكام الله تعالى وتكاليفه. بحيث لا يعترىها شبهة، بل هي واضحة نيرة جلية .

واضح من قول أبي حيان أنه فسّر قوله تعالى: "أنما على رسولنا البلاغ المبين" بمفهوم الحصر إذ قال: "فليس على الرسول إلا أن يبلغ أحكام الله" وهذا يعني أن "أنما" تفيد الحصر. وفي هذا الصدد يقول الدسوقي^(٢) في حاشيتين: "واعلم أن الموجب للحصر في "إنما" بالكسر موجود في "أنما" بالفتح. فمن قال: سبب إفادة "إنما" الحصر تضمنها معنى "ما" و "إلا" قال بذلك في "أنما" المفتوحة لوجود هذا السبب فيها".

وبعد ذلك كله نخلص إلى أن "إنما" للحصر. وأنها مركبة ما أداتين: "إن" للتأكيد والإثبات، و "ما" الكافة الزائدة. وأنها في الحصر - كما سبق أن بينا - محمولة على معنى "ما" و "إلا" إذ إن الحصر في الأصل يكون بـ "ما" و "إلا" لقوتها في التأكيد وحاجة هذا الحصر إلى تلك القوة.

إلا أن الشيخ عبدالقاهر الجرجاني قد ضبط فرقا معنويا بين الحصر بـ "ما" و "إلا" والحصر بـ "إنما" إذ يقول^(٣): "اعلم أنهم وإن كانوا قد قالوا: هذا الذي كتبه لك (أي معنى: إنما يدافع عن حسابهم أنا؛ ما يدافع عن أحسابهم إلا أنا) فإنهم لم يعنوا بذلك المعنى في هذا هو المعنى في ذلك بعينه، وأن سبيلهما سبيل اللفظين بوضعان لمعنى واحد. وفرق بين أن يكون في الشيء معنى الشيء، وبين أن يكون الشيء وللشيء على الإطلاق. يبين لك أنهما لا يكونان سواء أنه ليس كل كلام يصلح فيه "ما" و "إلا" يصلح فيه "إنما"؛ لأنهما لو كان سواء لكان ينبغي أن

(١) البحر المحيط، ج ٤، ص ١٨.

(٢) شروح التلخيص، حاشية الدسوقي، ج ٢، ص ١٩٤.

(٣) دلائل الإعجاز، ص ٢١٥.

يكون في "إنما" من النفي مثل ما يكون في "ما" و "إلا"، وليس الأمر كذلك في الواقع؛ لأنهم كما يقول عبدالقاهر الجرجاني^(١): "...إذا أدخلوا "إنما" جعلوا (الخبر في: إنما هو أسد) في حكم الظاهر المعلوم الذي لا ينكر ولا يدفع ولا يخفى. أما "الخبر" بالنفي والإثبات نحو: "ما هذا إلا كذا، وإن هو إلا كذا" فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه".

(١) دلائل الإعجاز ، ص ٢١٧.

المبحث الخامس: التراكيب النحوية الدالة على الحصر باعتبار ما بعد "إنما" و "أنما"

المطلب الأول: التراكيب النحوية الدالة على الحصر باعتبار ما بعد - إنما -

ورد التركيب النحوي الدال على الحصر في القرآن الكريم باستعمال أداة الحصر "إنما" (١٤٢) مرة، وورد في استعمال أداة الحصر "أنما" (٤) مرات. وقد دخلت "إنما" و "أنما" على الجملتين الفعلية والإسمية، كما يلي:-

أ. الجملة الفعلية: استعملت أداة الحصر "إنما" مع الجملة الفعلية في القرآن الكريم (٧٥) مرة، وقد وردت (مرة واحدة) مع "أنما" كما سيأتي وقد وردت مع الفعل ماضيا ومضارعاً، وجاءت على الأنماط الآتية:

١. (إنما + فعل ماضٍ...) وردت (١٧) مرة على النحو الآتي:

- (إنما + فعل ماضٍ)، كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنَازِيرِ وَمَا أَهَلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ...﴾
(البقرة، ١٧٣)

﴿قُلْ: إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ...﴾ (الأعراف، ٣٣)

- (إنما + فعل ماضٍ مبني للمجهول)، كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا سَكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ (الحجر، ١٥)

﴿إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلُنَا...﴾ (الأنعام، ١٠٩)

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعْبَدَ اللَّهُ وَلَا أُشْرَكَ بِهِ...﴾ (الرعد، ٣١)

- (إنما + كان...)، كما في قوله تعالى:

﴿... إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ...﴾ (التوبة، ٦٥)

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا...﴾ (النور، ٥١)

- (إنما + فعل مضارع....)، وردت (٥٩) مرة على النحو الآتي:

- (إنما + فعل مضارع)، كما في قوله تعالى:

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ، فَيَكُونُ﴾ (ال عمران، ١٤٧)

﴿إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ
وَالْمَيْسِرِ...﴾ (المائدة، ٩١).

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ...﴾ (الأنعام، ٣٦)

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِي لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ (التوبة، ٤٢)

﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ (التوبة، ٥٥)

﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ...﴾ (يوسف، ٨٦)

﴿وَقَالَ: إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة، ٤٧)

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ...﴾ (النحل، ١٠٥)

﴿إِنَّمَا تَنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ...﴾ (فاطر، ١٨)

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...﴾ (فاطر، ٢٨)

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر، ٩)

﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ (محمد، ٣٨)

﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ (الفتح، ١٠)

﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ...﴾ (الممتحنة، ٢٠)

﴿قُلْ: إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ (الحج، ٢٠)

﴿إِنَّمَا نَطَعَكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ...﴾ (الإنسان، ٩)

﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي...﴾ (سبا، ٥٠)

- (إنما + فعل مضارع (من الأفعال الخمسة))، كما في قوله تعالى:

﴿لَنْ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا...﴾
(النساء، ١٠)

﴿لَنْ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يَبَايِعُونَ اللَّهَ...﴾ (الفتح، ١٠)

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ أَوْثَانًا﴾ (العنكبوت)

- (إنما + فعل مضارع (مبنى للمجهول))، كما في قوله تعالى:

﴿قَالَ: إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي...﴾ (القصص، ٧٨).

- (إنما + فعل مضارع (مبنى للمجهول من الأفعال الخمسة))، كما في قوله تعالى:

﴿وَإِنَّمَا تَوَعْدُونَ لِمَادِقٍ﴾ (الذاريات، ٥)

﴿إِنَّمَا تَجْزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الطور، ١٩)

- (إنما + ضمير (مبتدأ) + خبر كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ...﴾ (الكهف، ١١٠)

﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ (مريم، ١٩)

﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الحج، ٤٩)

﴿إِنَّمَا أَنَا مَنذُورٌ...﴾ (ص، ٦٥)

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصَلِحُونَ﴾ (البقرة، ١١)

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (البقرة، ١٤)

﴿إِنَّمَا نَحْنُ فَتَنَةٌ﴾ (البقرة، ١٠٢)

﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرٌّ مَّا تَشْرَكُونَ﴾ (الأنعام، ١٩)

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَخَّرُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ، إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّاي فَارْهَبُونَ﴾

(النحل، ٥١)

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (الصافات، ١٩).

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ...﴾ (البقرة، ١٣٧)

﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (هود، ٢)

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْمَرِّينَ﴾ (الشعراء، ١٥٣)

﴿فَإِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (النحل، ٩٢)

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ يَخْشَاهَا﴾ (النازعات، ٤٥)

- (إنما + اسم إشارة (مبتدأ) + خبر كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران، ١٧٥)

﴿إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَوَارِئِ﴾ (غافر، ٣٩).

- (إنما + شبه جملة جار ومجرور، وظرف (في محل رفع خبر مقدم) + اسم (مبتدأ مؤخر))... كما في قوله تعالى:

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (النحل، ٨٢).

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (الرعد، ٤٠)

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران، ٢٠)

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ، فَإِنْ تَوَلَّوْا، فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ...﴾ (النور، ٥٤)

﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (النحل، ٩٥).

ب. الجملة الاسمية: استعملت أداة الحصر "إنما" مع الجملة الاسمية في القرآن الكريم (٦٩) مرة وجاءت على الأنماط الآتية:

- إنما + اسم (مبتدأ) + خبر... كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْبَيْمُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحْلَ اللَّهُ الْبَيْمَ وَحَرَّمَ الرِّبَا...﴾ (البقرة، ٢٧٥)

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ...﴾ (النساء، ١٧)

﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ...﴾ (النساء، ١٧١)

﴿إِنَّمَا جِزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ...﴾ (المائدة، ٣٣)

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة، ٥٥)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا: إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة، ٩٠)

﴿قُلْ: إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرٌّ مِمَّا تَشْرِكُونَ﴾ (الأنعام، ١٩)

﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل: إنما علمها عند ربي...﴾

(الأعراف، ١٨٧).

﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم...﴾ (الأنفال/٤١)

﴿إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا...﴾

(التوبة، ٢٨)

﴿إنما النسبيء زيادة في الكفر...﴾ (التوبة، ٣٧)

﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم

وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله

والله عليم حكيم﴾ (التوبة، ٦٠)

﴿إنما السبيل على الذين يستأذنونكم وهم أغنياء...﴾ (التوبة، ٩٣)

﴿يا أيها الناس، إنما بغيتكم على أنفسكم﴾ (يونس، ٢٣)

﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات

الأرض...﴾ (يونس، ٢٤)

﴿إنما الحكم الله...﴾ (طه، ٩٨)

﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ (يس، ١٢)

﴿قال: إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به، ولكني أراكم قوماً

تجهلون﴾ (الأحقاف، ٢٣)

﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم...﴾ (الحجرات، ١٥)

﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم﴾ (التغابن، ١٥)

المطلب الثاني: التراكيب النحوية الدالة على الحصر باعتبار

ما بعد - إنما -

ورد التركيب النحوي الدال على الحصر في القرآن الكريم باستعمال أداة الحصر "إنما" المفتوحة الهمزة (١٢) اثنتي عشرة مرة وقد دخلت على الجملتين الاسمية والفعلية، وجاءت على الأنماط الآتية:

١. (إنما + اسم (مبتداً) + خبر)، كما في قوله تعالى:

﴿وَأَعْلَمُوا: إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾
(الأنفال، ٢٨)

﴿... إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ...﴾ (الكهف، ١١٠)

﴿... إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ. فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (الأنبياء، ١٠٨)

﴿أَعْلَمُوا: إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ، وَلَهُو، وَزِينَةٌ، وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ، وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ (الحديد، ٢٠).

- (إنما + ضمير (مبتداً) + خبر)، كما في قوله تعالى:

﴿... إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ...﴾ (ص، ١٨)

﴿وَلْيَعْلَمُوا: إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ...﴾ (إبراهيم، ٥٢).

- (إنما + شبه جملة جار ومجرور خبر مقدم) + مبتداً مؤخر)، كما في قوله تعالى:

﴿فَاعْلَمُوا: إِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (المائدة، ٩٥).

٢. (إنما + فعل ماض (...))، كما في قوله تعالى:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا...﴾ (المؤمنون، ١١٥).

- (إنما + فعل ماضي مبني للمجهول ... كما في قوله تعالى:

﴿فاعلموا: أنما أنزل بعلم الله...﴾ (هود، ١٤).

﴿أفمن يعلم: أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى﴾ (زعد، ١٩).

٣. (أنما + فعل مضارع...)، كما في قوله تعالى:

﴿فإن تولوا، فاعلم: أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم، وإن

كثيراً من الناس لفاسقون﴾ (المائدة، ٤٩).

﴿أيحسبون: أنما نمدهم به من مال وبغين نسارع لهم في الخيرات...﴾

(المؤمن، ٥٥-٥٦).

المبحث السادس

أسلوبا الحصر عند البلاغيين

ويقصد بذلك الحديث عن أسلوب الحصر من خلال الأداتين "إلا" و"إنما" بما قرره البلاغيون من اعتبار لحال المخاطب. وقد راعى هذا الاعتبار شيخ البلاغة العربية عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز فبحث هذين الأسلوبين بحثاً بلاغياً مستفيضاً تناول فيه دقائق هذين الأسلوبين. هذا ولا ينكر أن البلاغيين من بعده شرحوا ووضحوا وعلقوا وأضافوا إلى ما قاله الشيخ. وسنبدا حديثنا بأسلوب الحصر بالأداة "إلا"، أو "ما" و"إلا"، أو ما يسمى بالنفي والاستثناء أو "الاستثناء المفرغ" على رأي النحاة، أو ما قاله عبد القاهر الجرجاني "النفي والإثبات".

المطلب الأول: أسلوب الحصر بالأداة -إلا-

أولاً: الأصل في الحصر بـ"إلا": "أن تكون في ما يجهله المخاطب وينكره أو يشك فيه".

يوضح ذلك ما قاله عبد القاهر الجرجاني^(١) والبلاغيون^(٢) من بعده. يقول عبد القاهر الجرجاني^(٣): "وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو: "ما هذا إلا كذا، وإن هو إلا كذا" فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه. فإذا قلت: ما هو إلا مصيب، أو ما هو إلا مخطئ؛ قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما

(١) دلائل الإعجاز، ص (٢١٧-٢١٨)

(٢) شروح التلخيص، ج ٢، ص (٢١٣-٢١٤) وانظر البلاغية العالمية، ص (٥٣)

(٣) دلائل الإعجاز، ص (٢١٧-٢١٨)

قلته. وإذا رأيت شخصاً من بعيد فقلت: ما هو إلا زيد، لم تقله إلا لصاحبك
يتوهم أنه ليس بزيد وأنه إنسان آخر، ويجد في الإنكار أن يكون زيدا".
فعبد القاهر الجرجاني يصرح بأن استعمال "الخبر بالنفي أو الإثبات" أو
أداة الحصر "إلا" تكون للأمر الذي ينكره المخاطب ويشك فيه. أما الخطيب
القزويني^(١) وشرّاح التلخيص^(٢) فيرون أن الأصل في "النفي والاستثناء أو أداة
الحصر" إلا أن تستعمل في الحكم الذي يجهله المخاطب وينكره. ومثال ذلك ما
استعمل فيه "النفي والاستثناء" أو أداة الحصر "إلا" على الأصل قولك لصاحبك وقد
رأيتما شبها من بعيد: "ما هو إلا زيد" إذا اعتقد أن الشبح غير "زيد" مُصراً على
الإنكار، وقد قيّد هذا المثال "بالبعد" لأن الشيء البعيد من شأنه أن يُجهل ويُنكر.
ولما تحقق في هذا المثال الجهل والإنكار للمخاطب. فهذا الجهل والإنكار لا
يزولان إلا بال تأكيد لذا استعملت فيه "ما" و "إلا" أو أداة الحصر "إلا" على
الأصل^(٣).

(١) الإيضاح، ج ٢، ص (٣٤)

(٢) شروح التلخيص، ج ٢، ص (٢١٣، ٢١٤، ٢١٥)

(٣) شروح التلخيص (مواهب الفتاح، وحاشية الدسوقي) ج ٢، ص (٢١٥)

ومن شواهد الحصر بـ-إلا- فيما يجهله المخاطب وينكره أو يشك فيه

قوله تعالى: ﴿يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة، ٩) جاء أسلوب الحصر في الآية الكريمة خطاباً للذين يجهلون أنهم بخداعهم ذلك ما يخدعون إلا أنفسهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾ (البقرة، ٧٨) خطاباً لأولئك الذين يظنون أنهم يعلمون وهم في الحقيقة أميون لا يعلمون شيئاً فهم يجهلون أنهم لا يعلمون شيئاً من الكتاب فما هم إلا واهمون.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ (ال عمران، ١٢)، (ص، ٦٥) ورد تركيب الحصر ﴿لَوْ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ في موضعين من القرآن الكريم للرد على مطلق الشرك بالله. ففي الموضع الأول من سورة "آل عمران" أتى للرد على معتقد النصاري، وفي الموضع الثاني من سورة "ص" أتى للرد على معتقد العنوب في الجاهلية.

واضح أن تركيب الحصر أتى للرد على المشركين الذين ينكرون وحدانية الله سبحانه وتعالى ويشكّون فيها، ويلحظ أن استعمال تركيب الحصر للرد على الإشراك بالله سبحانه وتعالى في سياقين مختلفين دال على خصوصية مثل هذا التركيب في الرد على المشركين.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ (ال عمران، ١٢٦)، (الأنفال، ١٠). تركيب الحصر هذا يمثل خطاباً موجهاً للمؤمنين بعد انتصارهم الساحق على عدوهم في معركة بدر، وذلك لتأكيد اختصاص النصر وحصره في الله سبحانه وتعالى. وهذه الحقيقة قد يجهلها المؤمنون ويغفلونها لذا وجب عليهم أن يعلموا علم اليقين أن النصر على العدو مختص في الله سبحانه وتعالى ومحصور فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضْلَوْنَكُمْ وَمَا

يُضْلَوْنَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (ال عمران، ٦٩)، فهو لاء الكفيرة من أهل الكتاب يجهلون أن إضلالهم لا يقع إلا على أنفسهم، وأن الضلال محصور فيهم بحيث لا يتجاوزهم إلى غيرهم.

وقوله تعالى: ﴿يَعْدُهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾

(النساء، ١٢٠)، تركيب الحصر هذا موجه إلى الناس الذين يجهلون أن وعود الشيطان وأمانيه ما هي إلا أباطيل وتضليل.

يقول الفخر الرازي ^(١) في تركيب الحصر هذا: "إن عمدة أمر الشيطان إنما هو بإلقاء الأمان في القلب... ومثال هذا أن الشيطان يلقي في قلب الإنسان أنه سيطول عمره وينال من الدنيا أمله ومقصوده، ويستولي على أعدائه..." ويقول ^(٢) أيضا: "وفي الآية وجه آخر: وهو أن الشيطان يعدهم بأنه لا قيامة ولا جزاء فاجتهدوا في استيفاء اللذات الدنيوية".

ثانياً: قد تخرج أداة الحصر "إلا" عن الأصل فتستعمل فيما ينزل منزلة المشكوك فيه أو المنكر أو الجاهل:

وفي ذلك يقول عبد القاهر الجرجاني ^(٣): "وجملة الأمر متى رأيت شيئا هو من المعلوم الذي لا يشك فيه. قد جاء بالنفي لتقدير معنى صار في حكم المشكوك فيه".

وقد ضبط البلاغيون من بعده ما قاله بقولهم ^(٤): "وقد ينزل الحكم المعلوم حقيقة منزلة الحكم المجهول الذي يحتاج في نفي جهله إلى تأكيد".

ومن شواهد استعمال أداة الحصر "إلا" فيما ينزل منزلة الجاهل في

الحكم وهو في حقيقة الأمر ليس جاهلاً قوله تعالى: ﴿... وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ

خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ...﴾ (ال عمران، ١٤٤).

^(١) التفسير الكبير، مج ٦، ج ١١، ص (٥٢، ٥١)

^(٢) المصدر السابق نفسه.

^(٣) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص (٢١٩-٢١٨)

^(٤) شروح التلخيص، ج ٢، ص (٢١٤-٢١٥)

فالمتكلم هنا "رب العزة" والمخاطب "الصحابه" رضوان الله عليهم وقوله تعالى: ﴿لَوْ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أمر لا يجهله ولا ينكره ولا يشك فيه المخاطب وهم الصحابة رضوان الله عليهم، بل يعلمون علم اليقين أنه رسول كغيره من الرسل وما جرى عليهم من موت يجري عليه. لكنهم استعظموا نبأ موته حين أشيع في قلب المعركة وزلزلوا زلزالاً شديداً، وكلن هناك فرقاً بين العلم بالشيء وحقيقة الأمر الواقعة الملموسة، فحقيقة موت الرسول صلى الله عليه وسلم في معركة أحد كانت كالصاعقة على مسامعهم أنستهم كل شيء، فكانوا في حالهم هذه كحال من جهل هذه الحقيقة، وأنكرها وشك فيها ساعة وقوعها. لذا خطبوا خطاباً قوياً عنيفاً خطاب من يجهل وينكر أو يشك في تلك الحقيقة، وهي بشرية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وأن ما يجري على الرسل والأنبياء ممن سبقوه من موت وهلاك يجري عليه.

ويرى الدكتور محمد أبو موسى^(١) في جملة الحصر في قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾: "أن العبارة هنا أكثر امتلاءً، وأدخل في باب الاعتبار، وأجرى في باب مسالك الفن، ومسالك البيان لأنها تفيض بجملة معان، ففيها عتلاب عنيف، واستجهاال، وإشارة إلى غفلتهم، وأنهم لا يسلكون في المواقف الصعبة مسلماً ينبثق من مضمرات قلوبهم، ويلتزم بما ترسخ فيها من حقائق واعتقادات، وأنهم يوشكون أن يكون لهم ظاهر مخالف لباطنهم، وأن أصول الاعتقاد توشك أن تهتز بالنوازل العارضة، مع أنكم لا تزالون في نضارة اليقين، ولا يزال صليل الوحي يتردد صداه في أفاقكم".

ومن شواهد استعمال أداة الحصر فيما ينزل منزلة الجاهل. قوله تعالى: ﴿قَالُوا: إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا. فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (إبراهيم، ١٠).

(١) دلالات التراكيب، د. محمد أبو موسى، ص (١٠٧)

يقول شهاب الدين القرافي^(١) في هذه الآية: "إن حصر الكفار لهم (أي الرسل) حصر مطلق. وتقديره ما أنتم إلا مثلنا مطلقاً، في نفس الأمر وليس لكم مزية على ما نحن فيه، فحصرنا رسلهم في صفات البشرية ليمنعوهم من الاتصاف بغيرها في الواقع".

فالمتكلم هنا "الكفار" والمخاطب "الرسل" وقول الكفار للرسل: "إن أنتم إلا بشر" أمر لا يجهله المخاطب "وهم الرسل" ولا ينكره. لكن المتكلم الكفار أنزلوا المخاطب "الرسل" منزلة الجهل الذي لا يعرف حقيقة نفسه ويتطلع إلى ما ليس له. فمعنى جملة الحصر "إن أنتم إلا بشر" كما يقول البيضاوي^(٢): "لا فضل لكم علينا فلم تختصون بالنبوة دوننا؟ ولو شاء الله أن يبعث إلى البشر رسلاً لبعث من جنس أفضل".

ومن شواهد الحصر فيما ينزل منزلة الجاهل: قوله تعالى: ﴿لَوْ قَالُوا: لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً، أَوْ تُكُونَ لَكُنْجَةً مِنْ نُحَيْلٍ وَعَلَىٰ فَتَفْجُرَ الْأَنْهَارُ خَلَالَهَا تَفْجِيرًا، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زُعمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا، أَوْ يَكُونَ لَكُنْبُوتٌ مِنْ زُرْقٍ أَوْ تُرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تَنزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَهُمْ﴾ (الإسراء، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣).

جاء أسلوب القصر في الآية الكريمة خطاباً لكفار مكة الذين لا يجهلون حقيقة أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بشر مثلهم. فلا يحتاج في ذلك عندهم. ولكنهم يرون أن الرسول ينبغي أن يكون ملكاً رسولاً لا بشراً رسولاً، فتعجب منهم كل العجب فأنت الآية الكريمة على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم: "هل كنت إلا بشراً رسولاً.. فالرسول صلى الله عليه وسلم قصر نفسه على البشرية بحيث لا يتجاوزها إلى أن يكون ملكاً. وقصر نفسه على البشرية ما هو إلا إيقاف لجنونهم، وجنونهم هذا سيواجه الحقيقة ويصطدم بها، ويضاف إلى

(١) الاستغناء في أحكام الاستثناء، شهاب الدين القرافي، ص (٢٩٨)

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، ج ١، ص (٥٢٦)

قصر الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه على البشرية أنه متصف بالرسالة فهو
بشر رسول، والفرق بينه وبينهم أنه مأمور بتبليغ رسالة ربه.

ومثل هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾
(الأنبياء، ٣).

﴿... مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَرِيدُ أَنْ يَنْفَضِلَ عَلَيْكُمْ﴾ (المؤمنون، ٢٤).

﴿... مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ﴾ (المؤمنون، ٢٣).

﴿... مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الشعراء، ١٥٤).

﴿... وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (الشعراء، ١٨٦).

﴿قَالُوا: مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ...﴾ (يس، ١٥).

فأسلوب القصر في هذه الآيات الكريمة جاء للمخاطب الذي لا يجهل
حقيقة البشرية للرسول وإنما نزل المخاطب منزلة الجاهل وذلك لمنع الرسل
صلوات الله عليهم من الاتصاف بصفة الرسالة والتبليغ من ربهم.

المطلب الثاني: أسلوب الحصر بالأداة -إنما-

أولاً: الأصل في الحصر بـ"إنما" أن تكون فيما لا يجهله المخاطب ولا ينكره:

يوضح ذلك ما قاله عبد القاهر الجرجاني^(١) والبلاغيون^(٢) من بعده.

يقول الجرجاني^(٣): "اعلم أن موضوع "إنما"، على أن تجيء لخبر لا

جهله المخاطب، ولا يدفع صحته" وردد البلاغيون من بعده قوله فقالوا^(٤): "إن

"إنما" تستعمل في الحكم الذي يغلمه المخاطب ولا ينكره".

وهنا يطرح التساؤل الآتي: ما الفائدة من الحصر إذا كان المخاطب

عالمًا بالحكم غير جاهل به ولا منكر له؟ والإجابة عن ذلك: إن المخاطب وإن

(١) انظر دلائل الإعجاز، ص (٢١٦).

(٢) انظر الإيضاح، ج ٢، ص ٣٤-٣٥، وانظر شروح التلخيص، ج ٢، ص ٢١٤.

(٣) دلائل الإعجاز، ص ٢١٦.

(٤) الإيضاح، ج ٢، ص ٣٤-٣٥، وشروح التلخيص، ج ٢، ص ٢١٤.

كان لا يجهل الحكم ولا ينكره، فهذا لا يعني الاستغناء عن التأكيد بجملة الحصر للمخاطب؛ لأن ثمة خطأ لا بدَّ حاصل عند المخاطب ويحتاج معه إلى التأكيد الذي من شأنه أن ينبه المخاطب ويوقظه ويلفت نظره.

ويفسر ذلك عبد القاهر الجرجاني، فيقول^(١) في استعمال "إنما": "وتفسير ذلك أنك تقول للرجل: إنما هو أخوك، وإنما هو صاحبك القديم؛ لا تقوله لمن يجهل ذلك، ويدفع صحته، ولكن لمن يعلمه ويقرّ به. إلا أنك تريد أن تنبيهه للذي يجب عليه من حق الأخ وحرمة الصاحب.

ومثله قول الآخر (أي قول المتنبي)^(٢) يخاطب كافوراً في شأن ابن

الإخشيذ:

إنما أنت والد والأب القا طع أحنى من وأصل الأولاد

لم يُرد أن يعلم كافوراً أنه والد، ولا ذاك مما يحتاج كافور فيه إلى الإعلان، ولكنه أراد أن يذكره بالأمر المعلوم لينبني عليه استدعاء ما يوجبه كونه بمنزلة الوالد.

ومن شواهد الحصر بـ - إنما - فيما لا يجهله المخاطب

ولا ينكره في القرآن الكريم

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا لِلَّذِينَ تَارَكُوا بَعْضَ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ، وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (هود، ١٢).

(١) دلائل الإعجاز، ص ٢١٦.

(٢) ديوان المتنبي، ج ٢، ص ٣٣. المعنى: أنت في تربيتك إياه كالوالد. والوالد القاطع أبر من الولد، وإن كان يصله. يريد إنك ربيت ابن سيدك، وأنت أشفق عليه من كل أحد.

فقله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ أمر لا يجهله ولا ينكره سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فجملة الحصر ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ ضمن السياق كانت من باب الإشفاق على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم. "قليس عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك غير مبال بما صدر عنهم من الرد أو القبول"^(١) فأنت مقصور على الإنذار، فلا تتجاوز به إلى ما يضيق به صدرك من رد وتكذيب واستهزاء.

ومن الشواهد أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ...﴾ (الكهف، ١١٠).

المخاطب في هذه الآية يفترض أن الرسول صلى الله عليه وسلم ينبغي أن يحيط بكل شيء ويعلم كل شيء بفضل رسالته. فتأتي الآية الكريمة لسترد على هؤلاء على لسان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ...﴾. فجملة الحصر هذه كانت رداً على من يظن أن لدى الرسول صلى الله عليه وسلم قدرات وإمكانات أخرى تتجاوز بشريته. فأكدت الآية بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم باستخدام أسلوب الحصر فالرسول صلى الله عليه وسلم محصور في البشرية ومقصور عليها لا يتجاوزها إلى الإحاطة بكل شيء. وبعد أن حصر نفسه في البشرية وصف نفسه بقوله تعالى: ﴿...مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ...﴾ ، و"مِثْلُكُمْ" صفة تطابق الموصوف مطلق التطابق فهو مثلهم تماماً وهم لا يجهلون ذلك ولا ينكرونه. والرسول صلى الله عليه وسلم أراد من ذلك التأكيد تنبيههم إلى هذه الحقيقة. فما الفرق بينه وبينهم إلا بالوحي. فالمزية التي تميز بها عنهم هي صفة الوحي، وصفة الوحي لا تخرجه عن بشريته.

ومن الشواهد قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ: لَا تَتَخَذُوا إِلَهِينَ اثْنَيْنِ، إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُون﴾ (الأنحل، ٥١).

(١) تفسير أبي السعود ج ٤، ص ١٩١

واضح من سياق الآية الكريمة أن تخصيص لفظ الجلالة بالضمير "هو" بالذكر أتى للإيذان بأنه متعين الألوهية مما لا يجهله المخاطب ولا ينكره. إذ إن المنهي عنه هو الإشراك به. لا أن المنهي عنه مطلق اتخاذ إلهين بحيث يتحقق الانتهاء برفض أيهما كان. وقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾: "بذكر العدد مع أن صيغة التثنية^(١) مُغْنِيَةٌ عن ذلك دلالة على أن النهي موجه إلى مبدأ الاثنيتين؛ لأنها منافية للألوهية".

فقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أمر لا يجهله المخاطب ولا ينكره بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ. قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ. بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (لقمان، ٢٥).

يقول البيضاوي^(٢) بهذا الاعتراف (أي اعتراف الإنسان بخالقه): "لوضوح البرهان على تفرد بالخالقية".

ويقول أبو السعود^(٣): "لغاية وضوح الأمر بحيث اضطروا إلى الاعتراف به، ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على أن جعل دلائل التوحيد بحيث لا ينكرها المكابرون ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من الأشياء فلذلك لا يعلمون بمقتضى اعترافهم، وقيل لا يعلمون أن ذلك يلزمهم".

ومن الشواهد أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ (الأنعام، ٣٢)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ (الحجرات، ١٢) وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات، ١٠). وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (التوبة، ١٨).

ثانياً: قد تخرج أداة الحصر "إنما" عن الأصل فتستعمل للمخاطب الذي ينزل منزلة العالم بالشيء غير المنكر له:

(١) تفسير أبي السعود، ج ٥، ص ١١٩.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج ٢، ص ٣٢٣.

(٣) تفسير أبي السعود، ج ٧، ص ٣١١.

يوضح ذلك عبد القاهر الجرجاني^(١) والبلاغيون^(٢) من بعده.

يقول عبد القاهر الجرجاني في جمعه لاستعمالي أداة الحصر "إنما" بقوله^(٣): "أعلم أن موضوع "إنما" على أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته أو لما ينزل هذه المنزلة". أي للمخاطب الذي ينزل منزلة العالم بالشيء غير الجاهل أو المنكر له. وقد ردد البلاغيون^(٤) من بعده قوله من أن "إنما" تستعمل في الحكم الذي يُنزل المخاطب فيه منزلة العالم به".

"ومثال ما ينزل هذه المنزلة قول ابن قيس الرقيات^(٥) بمدح مصعب بن الزبير رضي الله عنهما:

إنما مصعب شهاب من اللب به تجلت عن وجهه الظلماء

ادّعى الشاعر في كون الممدوح بهذه الصفة أنه أمر ظاهر معلوم للجميع على عادة الشعراء، إذا مدحوا، أن يدعوا في الأوصاف التي يذكرون بها الممدوحين أنها ثابتة لهم، وأنهم قد شهرُوا بها، وأنهم لم يصفوا إلا بالمعلوم الظاهر الذي لا يدفعه أحد^(٦).

ومن شواهد الحصر بـ"إنما" فيما ينزل فيه المخاطب منزلة العالم بالشيء غير المنكر له في القرآن الكريم قوله تعالى: **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا: إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ** (البقرة، ١١، ١٢).

(١) دلائل الإعجاز، ص (٢١٦)

(٢) انظر الايضاح، ج ٣، ص (٣٧)، وشروح التلخيص، ج ٢، ص (٢١٤، ٢١٥)

(٣) دلائل الإعجاز، ص (٢١٦)

(٤) انظر الايضاح، ج ٣، ص (٣٧)، وشروح التلخيص، ج ٢، ص (٢١٤، ٢١٥)

(٥) عبيد الله قيس بن شريح بن مالك بن بني عامر بن لؤي، شاعر قريش في العصر الأموي، كان مقيما في المدينة، خرج مع مصعب بن الزبير على عبد الملك بن مروان، لقب بابن قيس الرقيات؛ لأنه كان يتغزل بثلاث نسوة اسم كل واحدة منهن رقيه، توفي سنة ٨٥هـ (الاعلام، ج (٤)، ص (١٩٦).

(٦) دلائل الإعجاز ص (٣١٧).

جاءت هذه الآية الكريمة حكاية عن اليهود الموسومين بالنفاق. فإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا: إنما نحن مصلحون. بأسلوب الحصر. وفي هذا الأسلوب أرادوا أن يثبتوا أن مسألة إصلاحهم معلومة ظاهرة للجميع ولا ينبغي لأحد أن يشك فيها أو ينكرها. فأسلوب الحصر في الآية الكريمة أنزل المنكر منزلة غير المنكر.

ومن الشواهد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خُلُوا إِلَىٰ شِيعَتِهِمْ قَالُوا أُنَا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ (البقرة، ١٤). فالمنافقون أرادوا أن يكشفوا لشياطينهم أن العلاقة بينهم وبين المؤمنين إنما هي على سبيل السخرية والاستهزاء بهم وجاءت الآية بأسلوب الحصر ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصَلِّحُونَ﴾ لتؤكد لشياطينهم أن الاستهزاء بالمؤمنين مسألة لا ينبغي أن يشك فيها أو ينكرها. فأسلوب الحصر أنزل المنكر منزلة غير المنكر.

ومن الشواهد قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا...﴾ (البقرة، ٢٧٥). فأكلوا الربا أرادوا أن يثبتوا "أن الربا أصل في الحل" فقالوا: "إنما البيع مثل الربا" بأسلوب الحصر جاعلين بذلك الأصل في القياس "الربا" والفرع: "البيع". والشك في القياس إنما يتداخل الفرع ولا يتداخل الأصل. فعندما قالوا: "إنما البيع مثل الربا" قصروا الفرع على الأصل فأبعدوا الشك عن الأصل وجعلوه أمراً لا يرتاب فيه.

ومن الشواهد القرآنية التي لا ينبغي لأحد أن يرتاب فيها أو ينكرها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ (التوبة، ٢٨).

﴿لَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرَجُونَ لَقَالُوا: إِنَّمَا سَكِرَاتُ أَبْصَارِنَا بِئْسَ قَوْمٌ مُّسْمُورُونَ﴾ (الحجر، ١٤-١٥).

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (النمل، ١٠٥).

﴿فَإِنَّمَا يَسِرُنَا بِلِسَانِكَ لَنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنَتَذَرُ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾
 (مريم، ٩٧)، ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ (مريم، ٨٤).
 ﴿فَاقْضَ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (طه، ٧٢).
 ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (طه، ٩٨).
 ﴿يَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا
 يَشْعُرُونَ﴾ (المؤمنون، ٥٦، ٥٥).
 ﴿فَحَسْبُكُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون، ١١٥).
 ﴿وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت، ٦).
 ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى بَأْيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ
 وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (السجدة، ١٥).
 ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخَذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ
 السَّعِيرِ﴾ (فاطر، ٦).
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يَبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ
 فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُيَوَّتِّهِ أَجْرًا
 عَظِيمًا﴾ (الفتح، ١٠).

المطلب الثالث: الحصر بـ - إنما - يفيد التعريض

يتميز أسلوب الحصر بـ "إنما" بقيمة بيانية عالية، وذلك بإفادتها
 "التعريض". إضافة إلى الحصر. وقد اكتسب أسلوب الحصر بـ "إنما" هذه القيمة
 البيانية العالية بما يتمتع به من خصوبة في التركيب وغازارة في المعنى. وقد
 كشف عن هذا المعنى شيخ البلاغة العربية عبد القاهر الجرجاني، ويرى أن
 "التعريض" أحسن مواقع "إنما" وأنها فيه أقوى ما تكون وأعلق ما ترى بالقلب.

يقول الجرجاني^(١): "ثم أعلم أنك إذا استقرت وجدتها أقوى ما تكون، وأعلق ما ترى بالقلب إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه، نحو إنا نعلم أن ليس الغرض من قوله تعالى: "إنما يتذكر أولو الألباب"، أن يعلم السامعون ظاهر معناه فالمعنى الظاهر للآية أن التذكر مقصور على أولي الألباب لا يتجاوزهم إلى غيرهم فالمقصود كما يقول الجرجاني: "أن يذم الكفار (الذين لا يستعملون عقولهم)؛ لأنهم من فرط العناد، ومن غلبة الهوى عليهم في حكم من ليس بذي عقل. وإنكم إن طمعت منهم في أن ينظروا ويتذكروا كنتم كمن طمع ذلك في غير أولي الألباب"، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مِّنْ يَّخْشَاهُ﴾ (النازعات، ٧٩)، وقوله عز اسمه: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ (فاطر، ٣٥) (فليس المقصود من الآيتين الكريمتين قصر الإنذار على من يخشون بحيث لا يتجاوزهم إلى غيرهم؛ لأن هذا أمر بديهي ومتحقق. ومن يستفيدون من الإنذار هم الذين يخشون، لكن هناك معنى آخر إضافيا مستقادا من التركيبين وهو من لم تكن له هذه الخشية فهو كأنه ليس له أذن تسمع وقلب يعقل فالإنذار معه كلا إنذار) (٢) ويمثل الجرجاني لذلك من الشعر قول الشاعر (٣):

أنا لم أرزق محبتها إنما للعبد ما رزقا

فالغرض أن يفهمك عن طريق التعريض أنه قد صار ينصح نفسه، ويعلم أنه ينبغي له أن يقطع الطمع من وصلها، ويأس من أن يكون منها إسعاف. ومن ذلك قوله (٤): "وإنما يعذر العشاق من عشقا

يقول: إنه ليس ينبغي للعاشق أن يلوم من يلومه في عشقه، وإنه ينبغي أن لا ينكر ذلك منه، فإنه لا يعلم كنه البلوى في العشق، ولو كان ابتلي به لعرف ما هو فيه فعذره"

(١) دلائل الإعجاز، ص (٢٣١)

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٢٣١.

(٣) المصدر السابق نفسه ص ٢٣١.

(٤) دلائل الإعجاز، ص ٢٣٢.

وقوله (١): "

ما انت بالسبب الضعيف وإنما نُجْحُ الأمور بقوة الأسباب
فاليوم حاجتنا إليك، وإنما يُدْعَى الطبيب لساعة الأوصاب

يقول في البيت الأول: إنه ينبغي أن أنجح في أمري حين جعلتك السبب إليه.
ويقول في الثاني: إنا قد وضعنا الشيء في موضعه، وطلبنا الأمر من جهته حين
استعنا بك فيما عرض من الحاجة، وعوّلنا على فضلك. كما أن من عوّل على
الطبيب. فيما يعرض له من السقم كان قد أصاب بالتعويل موضعه، وطلب الشيء
من معدته".

ويشير عبدالقاهر الجرجاني إلى أن معنى التعريض ملتصق التصاقاً بـ
"إنما" فيقول (٢): "ثم إن العجب في أن هذا التعريض الذي ذكرت لك لا يحصل من
دون "إنما" فلو قلت: إنما يتذكر أولو الألباب، لم يدل على ما دل عليه فسي الآية،
وإن كان الكلام لم يتغير في نفسه، وليس إلا أنه ليس فيه "إنما".

والسبب في ذلك أن هذا التعريض إنما وقع بأن كان من شأن "إنما" أن
تضمّن الكلام معنى النفي من بعد الإثبات، والتصريح بامتناع التذكر ممن لا يعقل.
وإذا أسقطت من الكلام فقيل: يتذكر أولو الألباب، كان مجرد وصف لأولى الألباب
بأنهم يتذكرون، ولم يكن فيه معنى نفي للتذكر عن من ليس منهم ومحال أن يقع
تعريض لشيء ليس له في الكلام ذكر، ولا فيه دليل عليه.

فالتعريض يمثل هذا؛ أعني بأن يقول: يتذكر أولو الألباب، بإسقاط "إنما"
يقع إذاً إن وقع بمدح إنسان بالتيقظ، وبأنه فعل ما فعل، لما تنبه له لعقله ولحسن
تمييزه، كما قال: كذلك يفعل العاقل، وهكذا يفعل الكريم. وهذا موضع فيه دقة
وغموض، وهو مما لا يكاد يقع في نفس أحد أنه ينبغي أن يتعرّف سببه، ويبحث
عن حقيقة الأمر فيه".

(١) المصدر السابق نفسه ص ٢٣٢

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٢٣٢

ومن شواهد "إنما" التي تفيد التعريض في القرآن الكريم: قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
يَرْجِعُونَ﴾ (الأنعام، ٣٦)

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر، ٢٨)

﴿إِنَّمَا تَنْذَرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ
كَرِيمٍ﴾ (يس، ١١)

﴿أَمِنْ هُوَ قَائِلٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ، وَيَرْجُو رَحْمَةً مِنْ رَبِّهِ قُلْ هَلْ
يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو
الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر، ١٠).

الفصل الثالث

دلالات في أسلوب الحصر

الكشف عن دلالات أسلوب الحصر بـ "إلا" و "إنما" في القرآن الكريم يتطلب دراسة فقه التراكيب أو فقه الدلالة أو فقه الأسلوب و تحليله. والمقصود فقه الأسلوب دراسة المعنى الدقيق الذي يتضمنه هذا الأسلوب دراسة تتجاوز ظاهره إلى معناه كما فعل عبد القاهر الجرجاني عندما درس أسلوب الحصر بـ "إنما". فقد كشف أن أسلوب الحصر بـ "إنما" يتضمن قيمه بيانية عالية بإفادتها التعريض إضافة إلى الحصر -كما مر سابقاً-.

"ومن المسلم به أن علم النحو وعلم المعاني درساً فقه التراكيب ودلالاتها. إلا أنه وبالرغم من ذلك فإن كثيراً من مسائل التراكيب ما تزال دون نظر. و أن أكثر هذه المسائل لم تبحث لا في كتب النحو و لا في كتب البلاغة"^(١)، و من هذه التراكيب على سبيل المثال؛ أسلوب الحصر في القرآن الكريم.

فمسائل أسلوب الحصر في القرآن الكريم دقيقة ولافتة للنظر. والمتأمل في هذه المسائل يجد بينها فرقاً دقيقاً يمكن أن يلحظ من خلال دراسة هذا الأسلوب دراسة دلالية.

في هذا الفصل يحاول الباحث الكشف عن دقائق الحصر ضمن المبحثين الآتيين:

(١) انظر معاني النحو، فاضل السامرائي، ج ١، ص ٨.

المبحث الأول: مقابلة أساليب الحصر المتشابهة من حيث أداة الحصر "إلا"
و من حيث المقصور عليه في سياقاتها المختلفة و من ثم عقد
المقارنة بينها.

المبحث الثاني: الكشف عن دقة موقعية أسلوب الحصر بأداة الحصر "إنما"
بالنظر إلى الأساليب الأخرى من خلال تحليل نماذج مختارة
من القرآن الكريم.

المبحث الأول

يقوم هذا المبحث على مقابلة أساليب الحصر المتشابهة من حيث أداة الحصر "إلا" ومن حيث المقصور و المقصور عليه في سياقاتها المختلفة، و من ثم عقد المقارنة بينهما. والأمثلة القرآنية المعدة للدراسة الآيات التالية:

﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الشعراء، ١١٥)

و ﴿لَوْ مَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الأحقاف، ٩).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (ص، ٨٧)

و ﴿مَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (القلم، ٥٢).

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الأنعام، ٢٥)

وما هذا إلا أساطير الأولين ﴿ (الأحقاف، ١٧).

ونظراً إلى أن أسلوبَي الحصر بـ "إن و إلا" و "ما و إلا" متشابهان من حيث أداة الحصر، والمحصور أو المقصور، والمحصور فيه أو المقصور عليه، يتبادر إلى الذهن التساؤلات الآتية: هل يمكن لهذه الأساليب أن تتبادل المواقع في القرآن الكريم نظراً لتشابهها؟ وهل يجوز أن يحل هذا الحرف مكان هذا الحرف؟ وهذا يقودنا إلى السؤال الكبير هل هناك ترادف في القرآن الكريم في أساليب الحصر؟ وإذا كان ثمة فرق دقيق بين هذين الأسلوبين فما هو الفرق الدقيق بينهما؟

للإجابة عن هذه التساؤلات ندرس استعمال "إن" و "ما" النافيتين ضمن السياق القرآني عندما نقترنان بـ "إلا" و المقارنة بينهما من خلال المطالبين الآتين:

المطلب الأول: يتمثل بعرض معالجة علمائنا

القدامي ل - إن - و - ما - النافيتين ضمن

السياق القرآني

فكما هو معلوم فإن "إن" و "ما" النافيتين تدخلان على الجملة الاسمية والفعلية فتفيدان معنى النفي، و تعملان عمل ليس - كما ذكرنا سابقاً - لذا فهما تشتركان في المعنى و العمل في بناء الجملة العربية.

وبالرغم من اشتراكهما في المعنى والعمل في بناء الجملة، فإن لكل منهما معنى وظيفياً مختلفاً عن الآخر يقتضيه السياق القرآني، فالسياق القرآني يكشف لنا بدقة الفرق بين "ما" و "إن" النافيتين. يتضح ذلك في أثناء معالجة علمائنا القدامي ل - "إن" في السياق القرآني الذي ورد فيه. فهي - كما هو الفراء^(١) في معاني القرآن يذهب إلى أن "إن" بمنزلة "ما" في الجحد. ولعل أقرب النحويين إلى القول الفصل في هذه الأداة ما ذهب إليه أبو علي الفارسي^(٢) في أن "إن" تأتي في الكلام لمطلق النفي، "والنفي المطلق" يعني: أن "إن" تتمحض لنفي الماضي و الحاضر و المستقبل حسب ما يقتضيه السياق. و هذا ما لم يذكر في "ما" النافية و يمكن أن نلمس هذا المعنى فيما ذكر أبو حيان الأندلسي في معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ (الزخرف، ٨١) إذ يقول^(٣): "لا يجوز أن تكون "إن" بمعنى "ما" النافية، لأنه يوهم أنك إنما نفيت عن الله الولد فيما مضى دون ما هو آت، وهذا محال".

(١) معاني القرآن، ج ٣، ص ٥٦.

(٢) شرح الرضي على الكافية ج ٤، ص ٢٨.

(٣) البحر المحيط، ح ٨، ص ٢٩.

يلاحظ أن علماءنا القدامى قد فرقوا في الاستعمال بين "إن" و "ما" النافيتين من حيث العموم، ويلحظ أيضاً مما ذكر أبو حيان أن "إن" أكد من "ما" و أقوى منها إذ إن "ما" النافية لا يتوافر فيها نفي المستقبل في هذا السياق كـ "إن". وهذا يعني أن السياق القرآني الذي تصلح فيه "إن" لا تصلح فيه "ما".

يضاف إلى ذلك ما نص عليه العلماء أيضاً من حيث الخصوص أي من حيث استعمال "إن" و "ما" النافيتين عندما تقتربان بـ "إلا". فالرمانى^(١) يرى أن كل "إن" بعدها "إلا" هي للنفي، وما قاله الراغب الأصفهاني^(٢) أيضاً في "إن" النافية إذ يقول: "وأكثر ما يجيء يتعقبه "إلا" نحو قوله تعالى: ﴿لَنْ نَنْظُرَ إِلَّا ظَنًّا﴾ (الجاثية، ٣٢). ويذكر السيوطي أن "إن" لا تأتي إلا مع "إلا".

وكلام العلماء صحيح ولكن ليس على إطلاق ما ذكر السيوطي. وهذا يعني أن "إن" النافية مختصة بأداة الحصر "إلا" دون غيرها من حروف النفي وهذا الاختصاص يزيد التأكيد قوة وسيوضح ذلك من تحليل نماذج مختارة من أساليب الحصر بـ "إن" و "إلا".

فكما هو واضح فالعلماء نصوا في معنى "إن" و "إلا" أنها تؤكد معنى النفي. وتزيد النفي قوة لكن ما نصوا عليه يبقى كلاماً عاماً، و غير كاف لنقل ما قرروا ومن ثم نقرر أيضاً أن "إن" و "إلا" أكد من "ما" و "إلا" في القرآن الكريم. إذ إن مثل هذا القرار يحتاج إلى أدلة وبراهين لإثباته من السياق القرآني مقارنة مع "ما" و "إلا".

وهذا يقودنا إلى المطلب الثاني للتأكيد على خصوصية استعمال أسلوب الحصر بـ "إن" و "إلا" في السياق القرآني مقارنة مع أسلوب الحصر بـ "ما" و "إلا".

(١) معاني الحروف، الرمانى، ص ٧٥.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٢٧.

المطلب الثاني: المقارنة بين أسلوبَي الحصر بـ

— إن و إلا— و —ما و إلا— ضمن السياق القرآني

و تتم هذه المقارنة من خلال الآتي:

المسألة الأولى: الدراسة الإحصائية. إذ من شأن هذه الدراسة أن تكشف خصوصية استعمال أسلوب الحصر في السياق القرآني.

المسألة الثانية: دراسة القرائن أو الجمل الممهدة لأسلوب الحصر التي تعطيه خصوصية في الاستعمال غير موجودة في أسلوب الحصر الآخر.

المسألة الثالثة: المقارنة العملية بين أسلوبَي الحصر بـ "إن و إلا" و "ما و إلا" ضمن السياق القرآني من خلال ما تقدم من نتائج. التعقيب على هذه المقارنة.

المسألة الأولى: تتمثل في الدراسة الإحصائية. وهذه الدراسة من شأنها أن تكشف لنا خصوصية استعمال أسلوب الحصر في السياق القرآني. والذي أغرى بهذه الدراسة الراغب الأصفهاني بقوله في "إن" النافية: "وأكثر ما يجيء يتعقبه "إلا" نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ (الجاثية، ٣٢)، وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (المدثر، ٢٥)، وقوله تعالى: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ الْمُتَنَبِّئِينَ بِسُوءِ﴾ (هود، ٥٤).

فمن خلال الإحصاء نجد أن "ما" النافية استعملت في القرآن الكريم (٣٨٨) مرة منها (١٨٨) مرة استعملت فيها مقترنة بـ "إلا" أي بنسبة قدرها (٤٨%). أما "إن" فقد استعملت في القرآن الكريم (١١٠) مرات منها (٨٥) مرة استعملت فيها مقترنة بـ "إلا" أي بنسبة قدرها (٧٧%).

وعلى هذا فهذه النسبة تدل بشكل واضح أن نسبة استعمال "إن وإلا" أكثر من نسبة استعمال "ما وإلا". وهذا دليل على أن "إن" مختصة بـ "إلا" أكثر من "ما" واختصاصها يدل على أنها أكد من "ما". فخصوصية "إن"، باقترانها بـ "إلا" يعطيها قوة وتأكيداً، وذلك لأن طبيعة تركيب جملة الحصر فيها قوة وتأكيد. وخصوصية "إن" تجعلها ضيقة ومحصورة في الاستعمال على "إلا" في الغالب. بينما "ما" النافية نجد أنها أوسع استعمالاً وأعم وأشمل من "إن" النافية.

ولعل عدم شيوع أسلوب الحصر بـ "إن وإلا" في النثر والشعر أت من مسألة التضمين فكانهم قالوا: لما كانت "إن" النافية بمعنى "ما" النافية أتوا بالأصل وتركوا الفرع متناسين الفروق الدقيقة بينهما. وهذا يعني لنا بوضوح أن ما تستعمل فيه "ما" لا يصلح أن تستعمل فيه "إن" والعكس صحيح.

المسألة الثانية: وتتمثل في دراسة القرائن أو الجمل الممهدة لأسلوب الحصر التي تعطيها خصوصية في الاستعمال غير موجودة في أسلوب الحصر الآخر. ويتم ذلك من خلال دراسة جملتين مؤكدتين لأسلوب الحصر تسبقانه هما:

أولاً: جملة القسم.
ثانياً: جملة النفي.

أولاً: ورد أسلوب الحصر بـ "إن وإلا" بعد القسم ولم يرد بعده أسلوب الحصر بـ "ما وإلا" والغرض من القسم كما نص عليه النحويون: تأكيد ما يقسم عليه وتقويته، والاسم الذي يلصق به يُعْظَم ويفخَّم ويؤكد. ويطلق على القسم "الحلف"^(١).

وأصل الحلف: اليمين^(٢) ومن معاني اليمين: القوة^(٣). وقد قيل للحلف: يمين باسم يمين اليد، وكانوا يبسطون أيمنهم إذا حلفوا وتحالفوا وتعاهدوا وتبايعوا^(٤)، وحالف فلان فلاناً فهو حليف، وبينهما حلف، لأنهما تحالفا "بالأيمان" أن يكون أمرهما واحداً بالوفاء. فلما لزم ذلك عندهم في الأحلاف التي في العشائر والقبائل صار كل شيء. لزم شيئاً فلم يفارقه فهو حليفه حتى يقال: فلان حليف الجود، وفلان حليف الإكثار، وفلان حليف الإقلال^(٥).

وجاء في أساس البلاغة^(٦): "حلف بالله على كذا حلفاً ... وحالفه على كذا وتحالفوا عليه واختلفوا عليه. فجعل صاحب أساس البلاغة الحلف بالله المعنى الأول، ونقل منه معنى الحلف الذي هو العهد والمخالفة والمعاقدة ... ولعل الذي جعله يضع "الحلف بالله" في المعنى الأول اقتران الحلف بلفظ الجلالة "بالله" فاقتترانه بلفظ الجلالة جعله في أقوى صورة. ومهما يكن من أمر فمطلق الحلف فيه معنى القوة

وقد ورد أسلوب الحصر بـ "إن وإلا" بعد القسم بلفظ "الحلف" في سياقين اثنين في القرآن الكريم مفيداً القوة والتوكيد للحكم .
السياق الأول: ويتمثل ذلك في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابْتُمُ

(١) انظر شرح المفصل، ج ٩، ص (٩٠).

(٢) المفردات، ص ١٢٩.

(٣) لسان العرب، مادة حلف.

(٤) لسان العرب، مادة حلف.

(٥) لسان العرب، مادة حلف.

(٦) أساس البلاغة، ج ١، ص ١٩٢-١٩٣.

مصيبية بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً
وتوفيقاً. أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظّمهم
وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً» (النساء، ٦٢، ٦٣).

والسياق الثاني : في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً
ضُرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
مَنْ قَبْلَ وَلِيحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحَسَنَ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾
(التوبة، ١٠٧).

ففي السياق الأول، واضح أن أسلوب الحصر بـ "إن وإلا" جاء
ادعاءً كاذباً بحلف كاذب على لسان المنافقين الذين لمسوا إنكاراً قوياً من
الرسول صلى الله عليه وسلم لفعلتهم القبيحة عندما احتكموا إلى الطاغوت -
إلى غير شريعة الله- لذلك أرادوا قلب اعتقاد الرسول صلى الله عليه وسلم
فجاءوا إليه شخصياً جميعاً دون استثناء يعتذرون منه حالفين بالله له: "إن
أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً، أي ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك إلا الفصل بالوجه
الحسن والتوفيق بين الخصمين ولم نرد مخالفة لك ولا تسخطاً لحكمك فلا
تؤاخذنا بما فعلنا"^(١).

ويرد الله سبحانه وتعالى على ادعائهم بأسلوب آخر من أساليب
الحصر وهو "تقديم ما حقه التأخير" بقوله تعالى مباشرة رداً على ادعائهم
﴿وَأُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ والمعنى: لا يعلم ما في قلوبهم
من النفاق والغيب والعداوة إلا الله.

أما السياق الثاني فقد جاء أسلوب الحصر بـ "إن وإلا" ادعاءً
كاذباً بحلف كاذب على لسان المنافقين أيضاً.

ويرى الباحث أن القسم بلفظ "الحلف" وأسلوب الحصر في السياق
الثاني كان أقوى منه في السياق الأول . ويدلل الباحث على ذلك من خلال

(١) تفسير أبي السعود، ج ٢، ص ١٩٦.

عقد مقارنة بين أسلوبَي الحصر في السياقين نظراً للتشابه الواضح بينهما من خلال الآتي:

١. المخاطب في السياق الأول: هو الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو في حالة إنكار لما حدث، وهو معين محدد. بينما السياق الثاني المخاطب غير معين وغير محدد، إلا أنه في حالة جهل فيها ما يحدث وعدم تعيين المخاطب دال على احتمال كونه الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم جميعاً.

٢. المخاطب في السياق الأول يقتضى المجيء إليه للاعتذار منه، وذلك لأن خطأ المنافقين "المتكلم" مكشوف للمخاطب الذي أنكر عليه ذلك. بينما المخاطب في السياق الثاني لم يقتض المجيء إليه؛ لأن خطأ المنافقين "المتكلم" لم يكشف. لذا لم يكثرثوا له ولم يلقوا له بالاً.

٣. في السياق الأول جاء القسم بلفظ "يخلفون بالله" غير مؤكد. بينما جاء في السياق الثاني بلفظ "وليخلفن" أكثر تغليطاً إذ أكد بأداتي تأكيد هما لام التأكيد ونون التوكيد الثقيلة، أضف إلى ذلك أن القسم في السياق الأول اقتصر بلفظ الجلالة بينما لم يقتصر بلفظ الجلالة في السياق الثاني. والذي جعل المنافقين يخلفون بالله؛ انكشاف أمرهم أمام المخاطب وهو: الرسول صلى الله عليه وسلم، وحجتهم الضعيفة الواهية أمامه؛ فلجأوا إلى إصاق الحلف بالله لتقوية حجتهم. بينما نراهم لا يلجأون إلى الحلف بالله في السياق الثاني؛ ومن وجهة نظرهم ليسوا بحاجة إليه، ولا داعي له؛ لأن أمرهم غير مكشوف أمام المخاطب. والمخاطب جهله. فالواضح أنهم بنوا مسجداً. وأرادوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلي فيه، ويدعو لهم بالبركة كما بنى الصحابة - رضوان الله عليهم - مسجد قباء وصلى النبي صلى الله عليه وسلم فيه، وهنا لا يمكن لأحد أن يكشف أمر المنافقين في أنهم إنما أرادوا من بناء المسجد أن يكون مركزاً لهم لتدمير الإسلام وأهله بكل الوسائل. ونظراً لعدم

انكشاف أمرهم وافتضاحه فموقفهم قوي و حجتهم قوية أيضاً. فلا قسوة
تستطيع إنكار إرادتهم الحسنة لذا فليسوا بحاجة إلى الحلف بما يؤمن به
المخاطب ليقتنع.

من جهة أخرى فإن الاستعاضة عن "الحلف بالله" بتغليظ وتأكيد قوله
تعالى "وليحلفن" أن "القسم" هنا دال على مطلق "الحلف الغليظ"، وكأنهم
سيحلفون أيماناً مغلظة بشئى الطرق، وأن مثل هذا الحلف جاهز لديهم
يردون به عليهم في أي وقت كعادتهم. واضح هنا أن القسم بلفظ الحلف
في السياق الثاني أقوى من السياق لأول.

٤. وبالنظر إلى المقصور عليه في كلا السياقين، نجد أن جملة الحصر في
السياق الثاني: في قوله تعالى: ﴿لَنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحَسَنَ﴾ أقوى من جملة
الحصر السياق الأول: في قوله تعالى: ﴿لَنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا
وَتَوْفِيقًا﴾. وبيان ذلك: المقصور عليه في السياق الثاني أتى معرفاً بال
التعريف العهدية بينما أتى المقصور عليه في السياق الأول نكرة.
والتعريف في السياق الثاني أكد من "النكرة" في السياق الثاني الأول؛ لأن
المتكلم بالتعريف حدد وعين ما يريد بذاته. وما يزيد يعرفه المخاطب.
فليس ثمة هدف من بناء المسجد غير الحسنى وفي هذا الصدد يقول
الزمخشري^(١): "ما أردنا ببنائه إلا الخصلة الحسنى، أو الإرادة الحسنى
وهي: الصلاة والذكر والتوسعة على المصلين".

بينما ورد المقصور عليه في الآية الأولى "نكرة" وذلك لأن المخاطب في
هذا السياق ينكر أن هناك "إحساناً" في إرادتهم فكيف لو عُرِفَ؟ وهنا
يلحظ أن كلمة توفيقاً أتت في مكانها المناسب إسناداً لكلمة "إحساناً"
المنكرة غير المتحققة. فإذا كان المخاطب غير مقتنع بإرادة الإحسان
فلعله يقتنع بها إذا اقترنت بإرادة التوفيق بين الخصمين فهي جزء من
الإحسان.

(١) الكشاف، ج ٢، ص ٣٠٠.

٥. والذي يبين أن القسم وأسلوب الحصر في السياق الثاني أقوى من القسم وأسلوب الحصر في السياق الأول - الآيتان اللتان ردتا على ادعائي المنافقين في الأسلوبين. إذ إن الرد في السياق الثاني كان أقوى منه في السياق الأول يتضح بقوله تعالى: ﴿وَاللّٰهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فالرد هنا ثلاثة أساليب تأكيد مجتمعة معاً هما: الأول: تقديم ما حقه التأخير بقوله تعالى: والله يشهد، وهذا يفيد الحصر واختصاص الله بالشهادة وحده أقوى من القسم، والثاني: التأكيد بـ "إن". والثالث: اللام المزحقة، والمعنى أن الله سبحانه وتعالى أطلع الرسول صلى الله عليه وسلم أنهم حلفوا كاذبين لنهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن الإقامة فيه.

بينما في السياق الأول كان الرد كما ذكرنا بأسلوب الحصر بقوله تعالى ﴿وَلِلّٰهِ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّٰهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ لتنبية الرسول صلى الله عليه وسلم بكشف ما في قلوبهم من النفاق والغيب والعداوة له، وليكنون موقف الرسول صلى الله عليه وسلم: "الإعراض عنهم بعدم الاكتراث لهم ومعاقبتهم وشغل البال بهم وقبول إيمانهم وأعدائهم بعد ذلك. ولا يسراد بالإعراض القطيعة والهجر، بدليل قوله تعالى "وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً" (١)

وبعد ذلك كله، بخلص إلى أن ورود أسلوب الحصر بـ "إن وإلا" مقترناً "بالقسم" المؤكداً لما يُقسم عليه قد جعل لأسلوب الحصر بـ "إن وإلا" خصوصية في التأكيد ليست متوافرة في أسلوب الحصر بـ "ما وإلا".
ثانياً: ورد أسلوب الحصر بـ "إن وإلا" بعد جملة منفية مؤكداً لها ولم يرد بعدها بـ "ما وإلا" وقد ورد أسلوب الحصر بـ "إن وإلا" بعد جملة منفية مؤكداً لها (٣٦) مرة في القرآن الكريم ويمكن توضيح ذلك بالمعادلة الآتية:

(١) انظر أبي السعود ج(٣)، ص(٢٩٣).

جملة منفية + أسلوب حصر مؤكد لها بـ "إن وإلا"

والغرض من جملة النفي التمهيد لتأكيد قوي مستأنف مؤكد لها.

وكان أقوى تأكيد يأتي بعدها أسلوب الحصر بـ "إن وإلا".

وأبرز من أشار إلى هذا المعنى أبو السعود. إذ يرى أن جملة

الحصر المسبوقة بجملة منفية تأتي لتقرير مضمون الجملة المنفية. ففي

قوله تعالى: ﴿لَا أُولِمُ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جُنَّةٍ إِنَّهُ لَا يَذِيرُ مَبِينٌ

﴿ (الأعراف، ١٨٤) يقول أبو السعود ^(١): وقوله تعالى: ﴿لَا إِنَّهُ لَا يَذِيرُ

مَبِينٌ﴾ جملة مقررة لمضمون ما قبلها (أي للجملة المنفية: ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ

مِنْ جُنَّةٍ﴾ ومبينة لحقيقة حاله صلى الله عليه وسلم. على منهاج قوله تعالى:

﴿لَا إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿لَا مَا هَذَا بِبَشَرٍ﴾ (يوسف،

٣١). ولعل السبب الذي جعل أبا السعود يتخذ من قوله تعالى: ﴿لَا مَا هَذَا

بَشَرًا إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (يوسف، ٣١) منهاجاً يقيس عليه الآيات المتشابهة

لهذه الآية -مع العلم أن سورة الأعراف قبل سورة يوسف- أن هذه الآية

الكريمة من الآيات التي توقف عندها العلماء كثيراً

وإلى مثل هذا المعنى يشير الدكتور إبراهيم أنيس ^(٢): "ونحن حين

ننتبع هذا الأسلوب (القصر بالنفي مع الاستثناء) في القرآن الكريم نراه دائماً

لنفي ما سبق، سواء كان هذا الذي سبق ملفوظاً أو ملحوظاً، ونراه في غالب

الأحيان معنى منفي، ثم يأتي هذا الأسلوب مؤكداً لذلك المعنى المنفي، فهو

أسلوب نفي يؤكد نفيًا سابقاً بطريقة غير مباشرة".

ويمثل الدكتور إبراهيم أنيس ^(٣) لذلك بقوله تعالى: ﴿لَا أُولِمُ

يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جُنَّةٍ إِنَّهُ لَا يَذِيرُ مَبِينٌ﴾ (الأعراف، ١٨٤) و

(١) تفسير أبي السعود، ج (٣)، ص (٢٩٨).

(٢) أسرار اللغة، ص (١٧٩).

(٣) أسرار اللغة، ص (١٧٧).

﴿لَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَا سْتَكْثَرْتَ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ

السُّوءَ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف، ١٨٨).

ففي هاتين الآيتين يقول الدكتور إبراهيم أنيس^(١): "فقد نفى سبحانه وتعالى في الآية الأولى إن به جنة، أو بعارة أدق أكد هذا النفي الذي يستفاد من كلام سابق. وفي الآية الثانية أكد نفي أن الرسول قد مسه سوء".

يلحظ مما قاله الدكتور إبراهيم أنيس أنه تناول بعض الأمثلة من أسلوب الحصر بـ "إن وإلا" المسبوقة بجمل منفية بعد أن تتبعها في القرآن الكريم، ثم قرر أن مثل هذا الأسلوب في الغالب يكون مسبوقاً بجمل منفية، مؤكداً لمعناها. إلا أن تناوله هذا كان من حيث العموم أي كان دليلاً عاماً على أن أسلوب "القصر بالنفي مع الاستثناء" يأتي لتأكيد معنى النفي. ولم يكن في باله التفريق بين أسلوب الحصر و "إن وإلا" و "ما وإلا".

ويرى الباحث أن يستعرض الآيات الكريمة التي ورد أسلوب الحصر بـ "إن وإلا" فيها بعد جمل النفي. ومن ثم يأخذ آية من الآيات الكريمة، ويحاول كشف بديع النظم في أسلوب الحصر في هذه الآية. وقد جاء أسلوب الحصر بـ "إن وإلا" في الآيات الكريمة الآتية في قوله تعالى:

- ﴿لَا قُلَّ لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ، وَلَا أَقُولُ لَكُمْ

إِنِّي مُلْكٌ إِنْ اتَّبَعُوا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ (الأنعام، ٥٠).

- ﴿لَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بَصَّاحِبُهُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

(الأعراف، ١٨٤).

- ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ

الْغَيْبُ لَا سْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ، وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ

لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف، ١٨٨).

(١) أسرار اللغة، ص (١٧٨).

- ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ، إِنْ أَوْلِيَائُوهُ إِلَّا الْمُتَفَقُّونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾
(الأنفال، ٣٤).

- ﴿وَإِذَا تَنَزَّلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَأَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تِلْكَاءِ نَفْسِي إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾
(يونس، ١٥).

- ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس، ٧٢).

- ﴿وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا. قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ، مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ (هود، ٥٠).

- ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا، إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (هود، ٥١).

- ﴿قَالَ: يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالَفَكُمْ إِلَيَّ مَا أَخْلَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِسْلَامَ مَا اسْتَطَعْتُ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود، ٨٨).

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكِنًا وَأَنْتِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ: أَخْرِجْ عَلَيَّهِنَّ. فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ: حَاشَ لِلَّهِ، مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾
(يوسف، ٣١).

- ﴿لَمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ...﴾
(يوسف، ٤٠).

- ﴿وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة، وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتكول المتوكلون﴾ (يوسف، ٦٧).

- ﴿وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ (يوسف، ١١٠٤).

- ﴿مالهم به من علم ولا لأبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون إلا كذبا﴾ (الكهف، ٥).

- ﴿قال المأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم، ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين﴾ (المؤمنون، ٢٤، ٢٥).

- ﴿هيئات هيئات لما توعدون، إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين﴾ (المؤمنون، ٣٧).

- ﴿قال: وما علمي بما كانوا يعملون، إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون﴾ (الشعراء، ١١٣).

- ﴿وما أنا بطارذ المؤمنين، إن أنا إلا نذير مبين﴾ (الشعراء، ١١٤، ١١٥).

- ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾ (الشعراء، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤).

- ﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تنفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾ (سبا، ٤٦).

- ﴿وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور إن أنت إلا نذير﴾ (فاطر، ٢٣).

- ﴿قَالُوا: مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا، وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ (يس، ١٥).
 - ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمَلَأَةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ﴾ (ص، ٧).
 - ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ (الشورى، ٤٨).
 - ﴿وَإِذَا قِيلَ: إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِينَ﴾ (الجاثية، ٣٢).
 - ﴿قُلْ: مَا كُنْتُ بِدَعَاءٍ مِنَ الرِّسْلِ وَمَا أَدْرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مَا يَوهِي إِلَيَّ..﴾ (الأحقاف، ٩).
 - ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى، وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَهْيُ يَوهِي﴾ (النجم، ٢-٤).
 - ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيْنُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ (النجم، ٢٣).
 - ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ (النجم، ٢٨).
 - ﴿مَا مِنْ أَمْهَاتِهِمْ إِنْ أَمْهَاتِهِمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ، وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُو غُفُورٌ﴾ (المجادلة، ٢).
 - ﴿قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا، وَقُلْنَا: مَا نَزَلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ (الملك، ٩).
 - ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ فَأَيُّنَ تَذْهَبُونَ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (التكوير، ٢٦، ٢٧).
- يتضح من خلال عرض هذه الآيات الكريمة تحقق المعادلة المشار إليها سابقاً في الآيات الكريمة:

جملة نفي + أسلوب حصر مؤكد بـ "إن وإلا"

ورأينا كيف تمهد جملة النفي للتأكيد القوي المتمثل بأسلوب الحصر بـ "إن وإلا" لا بأسلوب الحصر بـ "ما وإلا" الذي لم يرد بعد جملة نفي إطلاقاً. وهذا يعني أن أسلوب الحصر بـ "إن وإلا" أخذ أقوى المواقع في السياق القرآني في مواقع متعددة.

ولتوضيح ذلك نأخذ من أسلوب الحصر بـ (إن وإلا) في القرآن الكريم ما يجلي ذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكاً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِيناً وَقَالَتْ: أَخْرِجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ: هَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (يوسف، ٣١) لننظر إلى جملة الحصر في الآية الكريمة من خلال التركيب الآتي: الإكبار تم التعبير عنه بالآتي:

وقطعن أيديهن + وقلن: حاش لله ما هذا بشراً + إن هذا إلا ملك

كريم

+

↓ ↓ ↓ ↓ ↓
فعل قوي قول قوي تنزيهية جملة نفي أسلوب الحصر

فالإكبار تم التعبير عنه بصورتين قويتين:

١. بفعل قوي جداً أقوى من الكلام

تمثل في تقطيع أيديهن.

٢. بقول يوازي الفعل من حيث

القوة.

فالإكبار والتعظيم لهذا الشخص الكريم كان قوياً عنيفاً، وقد تم وصفه بدقة متناهية. وقد وقع بعد أن وضعت النسوة في موقف صعب مفاجئ غير معد له مسبقاً، وتم التعبير عنه بصدق وعفوية الإنسان الطبيعي، بعيداً عن مكرهن وكيدهن فماذا فعلن؟

عبرن عن الإكبار بصورة فعلية مثلت أقوى درجات التعبير في مثل هذا الموقف، وعكست قوة الإكبار وعظم المشهد الذي رأينه، إنه مشهد

عظيم فيه سحر غريب، سحره غيب عقولهن فقطعن أيديهن. وهنسا تقدم
"الفعل" على "القول" لقوته وشدته.

وعبرن عن الإكبار أيضاً بالقول وقد تم ضمن الترتيب الآتي:
أولاً: "قلن: حاش الله" بحذف الألف الأخيرة تخفيفاً وتعلي: تنزيهاً لله^(١)، أو
براءة لله من كذا^(٢) (أي فعل المنكر)، أو بعداً منه^(٣). يقال لك مثلاً:
أتفعل كذا؟ أو أفعلت كذا؟ فتقول: حاشا لله، فإنما هذه بمعنى تبرأت لله
براءة من هذا الفعل^(٤).

ويرى الباحث أن حاش لله تأتي للرد بشكل حاسم على تهمة ما أو ما
يمثل تهمة ونفيها تماماً، وكأنها أنت للرد على سؤال خاطف تكسوّن
من خلال الموقف على النحو الآتي: هل على مثل هذا الشخص
الكريم من سوء؟ فتأتي الإجابة بالنفي: حاش لله.

ثانياً: "ما هذا بشراً": جملة نفي أنت بعد أن مهد لها النفي بـ "حاش الله".
"فحاش لله" نفت السوء عن هذا الشخص الكريم نفيّاً تاماً خالصاً. ثم
أنت "ما هذا بشراً" مؤكدة لـ "حاش لله" بنفي آخر يتسق معها.
فالنفي الأول: منع السوء "بحاش لله"، والنفي التالي: تجاوزه تجاوزاً
بعيداً. فنفي البشرية هو الخروج بسيدنا يوسف عليه السلام من
دائرة السوء جملة وتفصيلاً ليصل إلى مرتبة الكمال.

ثالثاً: "إن هذا إلا ملك كريم": التأكيد بأسلوب الحصر، وهو أقصى أساليب
التوكيد لجملة النفي السابقة "ما هذا بشراً". ولننظر إلى مفردات
جملة الحصر هذه: فهذا اسم إشارة، واسم الإشارة كما يقتضيه
السياق هنا يفيد تعظيم المشار إليه.

(١) انظر الكشف، ج ٢، ص (٤٤٧، ٤٤٨)، التفسير الكبير، ج ١٨، ص (١٣١)، البحر المحیط، ج ٥،
ص (٣٠٣، ٣٠٤)، مغني اللبيب، ص (١٦٤، ١٦٥، ٨٩٣)، تفسير أبي السعود، ج ٤، ص (٢٧٢).

(٢) مغني اللبيب، ص (١٦٥).

(٣) المفردات، ص (١٣٦).

(٤) مغني اللبيب ص (٨٩٣).

ووصف "ملك" بأنه "كريم": مبالغة في تفضيله في جنس الملائكة
تعظيماً لشأنه^(١)، فهو ليس أي ملك ١. إنه ملك كريم.

ثم تأتي هذه المفردات لتكون جملة الحصر: "إن هذا إلا ملك كريم"
فهذه الجملة حسب مفهوم الحصر تعني: إن الشخص المشار إليه
مقصور على الملكية لا يتجاوزها إلى غيرها، وحسب هذا المفهوم
فهو ملك حقيقي. وليس من جنس البشر. هكذا رأته النسوة.!!!

فجملة الحصر **"إن هذا إلا ملك كريم"** أتت في أقوى مكان لها
بعد نفيين متتاليين، ويمكن توضيحها بالآتي:

حاش لله	ما هذا بشراً	إن هذا إلا ملك كريم
↓	↓	↓
هذا النفي وفر	وهذا النفي وفر خروجه	ثم جاء التأكيد بأسلوب الحصر.
منع السوء	من دائرة البشرية	بنفي البشرية عنه، وإثبات الملكية
	والارتقاء به إلى مرتبة	له. فهو مقصور عليها لا
	الكمال	يتجاوزها إلى البشرية.
↓	↓	↓
أو رداً على	ورداً على من يشك أو	ورداً على من ينكر أنه ملك،
سؤال سائل هل	ينكر أنه خارج دائرة	والرد هنا أشد من النفيين
على مثل هذا	البشرية.	السابقين، لأن فيه نفيًا وإثباتاً نفي
الشخص الكريم		البشرية وإثبات الملكية، ولأنه وقع
من سوء؟		بعد نفيين متتاليين.
↓	↓	↓
ويمكن القول من	نغمة ثانية صعدت به	إغلاق السياق بقلل أقوى من تلكما
الناحية الموسيقية	أقصى ما يمكن أن يرتقي	النغمتين الصاعدتين بحيث يبقى
أن النفي الأول:	إليه.	راقياً محلقاً في القمة.
نغمة أولى		

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج ٩، ص (١٦٠).

صاعدة افتتحت

السياق.

وبعد ذلك كله، نخلص من المسألتين الأولى والثانية أن أسلوب الحصر بـ "إن وإلا" أكد من أسلوب الحصر بـ "ما وإلا". وهذا يعني أن أسلوب الحصر بـ "إن وإلا" يأتي للرد على المخاطب شديد الإنكار. بينما أسلوب الحصر بـ "ما وإلا" يأتي للرد على المخاطب الأقل إنكاراً.

المسألة الثالثة

المسألة الثالثة: ونقوم على المقارنة بين أسلوب الحصر بـ "إن وإلا" و "ما وإلا" في الآيات المتشابهة ضمن السياق القرآني. وتتم هذه المقارنة ضمن تلك النتيجة التي استنتجناها سابقاً من أن أسلوب الحصر بـ "إن وإلا" أكد من أسلوب الحصر بـ "ما وإلا"، ومن أن أسلوب الحصر بـ "إن وإلا" يأتي للرد على المخاطب الشديد الإنكار، وأن أسلوب الحصر بـ "ما وإلا" يأتي للرد على المخاطب الأقل إنكاراً. والأمثلة القرآنية المعدة للدراسة هي النماذج الآتية:

التمودج الأول:

﴿لَإِنْ أُنِصِرَ إِلَّا نَصِيرُ اللَّهِ﴾ (الشعراء، ١١٥)

و ﴿لَوْ مَا أُنِصِرَ إِلَّا نَصِيرُ اللَّهِ﴾ (الأحقاف، ٩).

التمودج الثاني:

﴿لَإِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (ص، ٨٧)

و ﴿لَوْ مَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (القلم، ٥٢).

الانموذج الثالث:

﴿لَإِنْ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الأنعام، ٢٥).

و ﴿لَوْ مَا هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الأحقاف، ١٧).

وعلى ضوء تلك النتيجة نستطيع أن نقارن بين هذه الآيات القرآنية المتشابهة من حيث أداة الحصر "إلا" ومن حيث المقصور والمقصور عليه. ونستطيع أيضاً أن نجيب عن التساؤلات التي طرحناها في مقدمة المبحث الأول وهي: هل يمكن لهذه الأساليب أن تتبادل المواقع في القرآن الكريم نظراً لتشابهها؟ وهل يجوز أن يحل هذا الحرف مكان هذا الحرف؟ وهذا يقودنا إلى السؤال الكبير: هل هناك ترادف في القرآن الكريم في أساليب الحصر؟ وإذا كان ثمة فرق بين الأسلوبين فما هو الفرق الدقيق بينهما؟

نحجب عن هذه الأسئلة بعد تحليل تلك النماذج ضمن السياق القرآني كما سيأتي.

الانموذج الأول: ويتم تحليله من خلال طرح السؤال الآتي: ما الفرق الدقيق بين جملتي الحصر الآتيتين:

﴿لَإِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الشعراء، ١١٥)

و ﴿لَوْ مَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الأحقاف، ٩).

للإجابة عن الفرق بين هذين الأسلوبين نتبع الآتي:

أولاً: نضع الأسلوبين في سياقهما القرآني الكريم. فالأسلوب الأول ورد في السياق القرآني الآتي: قال تعالى: ﴿قَالُوا: أَنْزِلْهُمْ أَتُجْعَلُ الْأَرْذَلُونَ؟ قَالَ وَمَا عَلَّمِي مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى

فالغرض من جملة النفي - كما أسلفنا- التمهيد لتأكيد قوي مستأنف مؤكد لها. و كان أقوى تأكيد يأتي بعدها أسلوب الحصر "إن وإلا" والذي استدعى مثل هذا الأسلوب حالة الإنكار الشديدة التي عليها المخاطب. لنعد إلى السياق القرآني ففي قول الكفرة المتكبرين: أنؤمن لك واتبعك الأرذلون؟

استفهام استنكاري الغرض منه رفض الدين ورفض الإيمان به، وقد سوغ هذا الرفض بإيمان الأراذل.

ووصف الكفرة المتكبرين المؤمنين -وهم في العادة من الفقراء والمساكين والبسطاء- بأنهم أراذل فيه استكبار واستعلاء شديدان. وهذا يعني أن هؤلاء الكفرة المتكبرون ينكرون على "الدين" أن يقبل مثل هؤلاء الأراذل في زمرة؟

والمخاطب وهو في حالة الاستكبار والاستعلاء يكون في أشد حالات الإنكار والجحود. فقوم نوح عليه الصلاة والسلام أقفلوا قلوبهم فقسست وجعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا .. فأى المواعظ ينتفع بها هؤلاء؟ وأي الآيات تقنعهم؟

ولقد صدق قول الله سبحانه وتعالى فيهم: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ. وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغِي يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف، ١٤٦).

ففي قولهم: أنؤمن لك واتبعك الأرذلون؟ تطالب أسلوب حصر مسبقين بجملة نفي للرد على قولهم . لما يحمله هذا القول من إنكار شديد.

فهؤلاء كما تبين لن ينتفعوا بالدعوة، وهم كما قال الله سبحانه وتعالى لسيدنا نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأَوْحِي إِلَى نوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ (هود، ٣٦).

ويتمثل الرد عليهم بالآتي:

الأول : وما علمي بما كانوا يعملون إن حسابهم إلا على ربي لو

تشعرون



أسلوب حصر مؤكد بـ "إن

جملة نفي

والا"

إن أنا إلا نذير مبين

وما أنا بطارد المؤمنين

الثاني :



أسلوب حصر مؤكد بـ "إن

جملة نفي

والا"

الرد عليهم يمثل حكمه الداعي في معالجة هكذا حالة. فإن كان الغرض من قولهم: "أنؤمن لك، واتبعك الأرذلون؟" هو طرد المؤمنين حتى يؤمنوا بحجة أنهم "أراذل" فما المقصود بـ "الأراذل"؟

الأراذل - كما قلنا - هم الفقراء والمساكين والبسطاء الذين يقومون بأعمال وصنائع و حرفه حقيرة لا تتناسب مع الأغنياء أصحاب المهن الشريفة. لكنها - أي الأراذل - هنا تهمة كبرى يراد منها أنهم يمارسون السلوكات الخسيسة نظراً لطبقتهم الاجتماعية الحقيرة المسحوقة. وكان الأغنياء يغفر لهم ممارستهم السلوكات الخسيسة، ولا بأس عليهم من فعل ذلك فطبقتهم الاجتماعية تحميهم من شر الوقوع في فضائح الرذيلة.

والرد على ادعائهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا

يعملون﴾ كان رداً حكيماً ؛ لأن الرذالة قضية ليست في متناول يد النبي

عليه الصلاة والسلام . وهو غير قادر على أن يسميهم أراذل ، ثم إنه ليس من السهولة أن يأخذ النبي عليه الصلاة والسلام بادعائهم، ثم يحكم على المؤمنين بالطرد. فالقضية إنما هي قضية خفية باطنية . ليس للنبي اطلاع عليها. وفي ذلك يقول الطبري^(١) : "وما علمي بما كان الثباغي يعملون، إنما لي منهم ظاهر أمرهم دون باطنه، ولم أكلف علم باطنهم، وإنما كلفت الظاهر، فمن أظهر حسناً ظننت به حسناً، ومن أظهر سيئاً ظننت به سيئاً".
وبما أن النبي عليه الصلاة والسلام له الظاهر من أمرهم وليس الباطن، فمن الطبيعي أن لا يملك حق محاسبتهم فضلاً عن طردهم .

ويمكن تمثيل الرد على ادعائهم بالآتي :

الرد وما علمي بما كانوا يعملون إن حسابهم إلا على ربي لو الأول: تشعر

↓

↓

أسلوب حصر مؤكد بـ "إن و جملة نفي

إلا "

↓

تمثل جملة النفي قبل أسلوب الحصر نفي أي مقوم من مقومات المحاسبة للنبي نوح عليه الصلاة والسلام .

لأن المحاسبة تحتاج إلى علم البواطن والخفايا، والنبي عليه الصلاة والسلام بشر العجز فيه صفة دائمة. لا يدرك إلا الأفعال الظاهرة فلا علم له ببواطن الأمور وخفاياها .

(١) جامع البيان، مج ١١، ج ١٩، ص (١١٢).

وإذا كانت المحاسبة تحتاج إلى
علم دقيق ببواطن الأمور
وخفاياها تتجاوز قدرات البشر
فالنبي عليه الصلاة والسلام هنا
سلب قدرته على العلم والمعرفة
ببواطن الأمور ومن ثم
المحاسبة سلباً قطعياً.

وهذا النفي، وهذا السلب مهد
للإجابة عن صاحب الحق في
المحاسبة فإذا لم تكن المحاسبة
من قدرات البشر، فمن هو
صاحب الحق في المحاسبة ؟

بعد سلب قدرة النبي نوح عليه
الصلاة والسلام باستعمال جملة
النفي، تم سلبها مرة ثانية
باستعمال أسلوب الحصر " إن و
إلا " يقول تعالى: ﴿لَا إِنْ

حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ

نَشْعُرُونَ﴾ فالحساب محصور
في رب العزة لا يتجاوزه إلى
غيره من الأنبياء عليهم السلام
فضلاً عن البشر.

فالهدف من جملة النفي سلب والهدف من جملة الحصر
المحاسبة وتفريغها من يد النبي تخصيص المحاسبة بالله سبحانه

عليه الصلاة والسلام بقطع وتعالى وحده، وسلبها عن غيره
نسبتها إلى أي أحد.
بأسلوب حصر متين موثق محكم
مؤكد. وكان أقوى الأساليب
الذي يحقق ذلك الهدف هو
أسلوب الحصر بـ "إن وإلا".

واضح هنا أن الرد منطقي لأن عملية الطرد تحتاج إلى محاسبة.
والنبي نوح عليه الصلاة والسلام غير مؤهل لمحاسبتهم. فأراد أن يقول
لهم: إذا كانت محاسبة المؤمنين ليست من شأني وغير مكلف بها.
فالمحاسبة ليست من حقي ولا أقدر عليها. وإذا كانت مسألة الطرد مبنية
على المحاسبة فكيف سأطرد المؤمنين؟
وهنا نأتي إلى تحليل الأسلوب الثاني:

وما أنا بطارد المؤمنين إن أنا إلا نذير مبين

+

↓

كما هو واضح فإن جملة النفي هنا
خبرها مقترن "بالباء" الزائدة المؤكدة
لمعنى النفي. وهذا يعني أن النفي
في هذه الجملة أقوى من النفي في
الجملة السابقة: "وما علمي بما كانوا
يعملون" وذلك لعدم اقترانها "بالباء"
الزائدة المؤكدة لمعنى النفي.

والسبب في ذلك أن المنفي في قول
النبي عليه الصلاة والسلام "ما علمي
بما كانوا يعملون" لا جدل فيه ولا

مراء. فافتضى جملة نفي غير مؤكدة.

بينما النفي الثاني كان رداً قوياً صلباً إذ لم يأت بـ: "وما أنا طارد المؤمنين" وإنما أتى "بالباء" المؤكدة لمعنى النفي:

وما أنا بطارد المؤمنين

ليؤكد لهم أنه لن يقوم بهذا الفعل أبداً. وبيان هذا الموقف لا يعني أن النبي عليه الصلاة والسلام مغامر، أو أنه أراد أن يعرض نفسه للتهلكة. فالمقصود من هذا الموقف هو بيان الحقيقة البسيطة ليس أكثر. وقد مهد لهذا الموقف بالأسلوب السابق:

ثوما علمي بما كانوا يعملون، إن حسابهم إلا على ربي أسو تشعرون.

وقد عبر سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام عن حقيقة موقفه التي ينبغي لهم أن يدركوها ويأخذوها بأريحية ولا يتحسسون منها.

وقد جاء هذا التعبير بأقوى أساليب النفي المستعملة في اللغة فالهدف من جملة النفي هو الرد على المنكرين الذي يريدون من سيدنا نوح عليه

الصلاة والسلام طرد المؤمنين فقال لهم: "وما أنا بطارد المؤمنين" ولم يقل: "وما أنا بطارد" إذ لو قال كذلك لأشبه قوله قول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: "ما أنا بقارئ" أي "أنا أمي" فلو قال: "ما أنا بطارد" لكان لها معنى واحد هو سلب القدرة على الطرد؛ لأنه ليس من وظيفته الطرد. وقوله: "وما أنا بطارد المؤمنين" بتعدية الطرد إلى المؤمنين جعل جملة النفي تفيد معنيين :

الأول: سلب القدرة على الطرد لأنه ليس من وظيفتي ولا من مسئوليتي طرد المؤمنين.

الثاني: بناءً على الأول، لئن أقوم بطرد المؤمنين أبداً. وجملة النفي هذه تجعل موقفه عليه الصلاة والسلام صلباً.

وما أنا بطارد المؤمنين + إن أنا إلا نذير مبين



فإذا كانت عملية الطرد ليست من مسؤولية النبي، فما هي المسؤولية التي يضطلع بها؟

بعد سلب مسؤولية سيدنا نوح عليه

الصلاة والسلام عن الطرد. تم
سلبها مرة ثانية باستعمال أسلوب
الحصر "إن وإلا" بقوله تعالى: "إن أنا
إلا نذير مبين" فسيدينا نوح عليه
الصلاة والسلام محصور في النذارة
لا يتجاوزها إلى طرد المؤمنين.
فالهدف من جملة الحصر بيان حدود
مسؤولية النبي عليه الصلاة والسلام
من الدعوة بحيث لا يتعداها. فعملية
الحصر خصصت مسؤولية النبي
عليه الصلاة والسلام بالنذارة لا
يتعداها إلى طرد المؤمنين؛ وقد تم
ذلك بأسلوب حصر متين موثق
مؤكد. وكان أقوى الأساليب الذي
يحقق ذلك الهدف هو أسلوب الحصر
بـ "إن وإلا".

ولدى استعراض آيات النذارة في القرآن الكريم فقد وجد الباحث
أن النذارة وردت في أربعة مواضع بأسلوب الحصر بـ "إن وإلا" ضمن
المعادلة السابقة: جملة نفي + أسلوب حصر مؤكد بـ "إن وإلا"
ويرى الباحث أن يستعرض هذه المعادلة من خلال سياقاتها
القرآنية الآتية:

السياق الأول: قال تعالى: ﴿وَكَذِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مَعْشَارَ مَا
آتَيْنَاهُمْ فكَذَبُوا بِرُسُلِي. فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ. قُلْ: إِنَّمَا
أَعْظِيكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى خِزْفٍ ثُمَّ تَذْكُرُوا

ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب
شديد ﴿٤٥﴾ (سبا، ٤٥، ٤٦).

السياق الثاني: ﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا
يعلمون، وأملئ لهم إن كيدي متين، أو لم يتفكروا ما
بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين﴾ (الأعراف،
١٨٢-١٨٤).

السياق الثالث: قال تعالى: ﴿وما يستنوي الأعمى والبصير، ولا الظلمات ولا
النور، ولا الظل ولا الحرور، وما يستنوي الأحياء ولا الأموات إن
الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور، إن
أنت إلا نذير﴾ (فاطر، ١٩-٢٣).

السياق الرابع: قال تعالى: ﴿قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء
الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير، وما
مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾
(الأعراف، ١٨٨).

ففي كل من هذه السياقات الأربعة كان المخاطب في حالة إنكار
شديدة إذ تطلب في كل منها الرد بجملة نفى، وذلك للتمهيد بتأكيد قوي
بأسلوب الحصر بـ: "إن وإلا".
ففي السياق الأول:

ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة + إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد.



قبل البدء بتحليل جملة النفي "ما بصاحبكم من جنة" أبدأ بهذه المقدمة وهي:

عامّة الناس في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وفي كل زمن
أسيرو الإشاعة التي يبيها رؤوس الكفر وينقلها الطابور الخامس. وهم في

العادة يتلقفون الإشاعة وكأنها حقيقة من الحقائق المنزلة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

والإشاعة التي اصطلح عليها رؤوس الكفر هنا هي أن الرسول صلى الله عليه وسلم "مجنون" وهي إشاعة قديمة في تاريخ الأنبياء و الرسل ليست غريبة قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ (الذاريات، ٥٢). كما يقال اليوم للمسلمين الذين يحلمون بإصلاح أحوالهم بأنهم متطرفون، وأصوليون، وإرهابيون، وقتلة .. وهنا كيف يمكن الرد على هذا الإدعاء الكاذب؟ وكيف يمكن معالجته؟ يتمثل الرد على ذلك الإدعاء الكاذب بتوجيه الله سبحانه وتعالى أمراً شديداً للرسول صلى الله عليه وسلم لمخاطبة رؤوس الكفر فقال تعالى: ﴿قُلْ: إِنَّمَا أُعْطِكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ أي أمركم بواحدة (أي بكلمة واحدة يا رؤوس الكفر" وهي "أن تقوموا لله مثني وفرادي" أي تقوموا لله قياماً خالصاً من غير هوى ولا عصبية"^(١) ناشدين للحقيقة، ثم تتفكروا" في أمره صلى الله عليه وسلم. وما جاء به لتعلموا حقيقته وحقيقته"^(٢) فإذا تفكرتم، وتأملتم، ونظرتهم وتحققتم عندها تعلمون علم اليقين أن "ما بصاحبكم من جنه". أي: ما بصاحبكم من أدنى جنون فجملته النفي هنا أتت بعد التفكير في أمره صلى الله عليه وسلم. فرؤوس الكفر سيدخلون مرحلة تفكير عميق يكون من بعدها قرار حاسم. وبعد التفكير العميق الصحيح المثمر ما الجواب المقترح الذي ينبغي أن يكون بعد ذلك الإدعاء الكاذب؟

لقد كان الجواب بالنفي: ﴿لَمَّا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَةٍ﴾ ولم يكن بإثبات ونفي مثلاً. كقولنا "إن صاحبكم ذو عقل راجح، وما به من جنه"؛ لأن الجواب بالنفي أغنى عن الإثبات. وليس الغرض من جملة النفي هنا سلب تهمة "الجنون" عن الرسول صلى الله عليه وسلم بحد ذاتها إذ لو كان الأمر

(١) تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص (٥٥١).

(٢) تفسير أبي السعود، ج ٧، ص (١٣٩).

كذلك لأنت جملة النفي على قوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾^(١)
(التكوير، ٢٢).

فالغرض من جملة النفي سلب كل أنواع الجنون، ومراتبه التي
يمكن أن تصيب الإنسان، والذي أفاد ذلك: النكرة وهي "جنة" التي دخلت
عليها "من" الزائدة الاستغرافية التي استغرقت جنس الجنون في سياق النفي
فأفادت العموم. فالرسول صلى الله عليه وسلم بريء من كل أنواع الجنون
أصنافه ومراتبه.

ويلاحظ من مجيء قوله تعالى بلفظ "بصاحبكم" في جملة النفي
دلالة لها أهميتها وهي أن الصحبة تقتضي العشرة الطويلة والمعرفة الحقيقية
للصاحب "فالتعبير عنه صلى الله عليه وسلم "بصاحبكم" للإيذان بأن
مصاحبتهم له صلى الله عليه وسلم مما يطلعهم على نزاهته من كل شائبة
وبرأته من كل سوء"^(١).

وفي عملية النفي "وما بصاحبكم من جنة" يقول أبو السعود^(٢):
"استئناف مسوق من جهته تعالى للتنبيه على طريقة النظر والتأمل بأن مثل
هذا الأمر العظيم الذي تحته ملك الدنيا والآخرة لا يتصدى لادعائه إلا
مجنون لا يبالى بافتضاحه عند مطالبته بالبرهان وظهور عجزه، أو مؤيد
من عند الله مرشح للنبوة واثق بحجته وبرهانه. وإذ قد علمتم أنه صلى الله
عليه وسلم أرجح العالمين عقلاً وأصدقهم قولاً وأنزههم نفساً وأفضلهم علماً
وأحسنهم عملاً وأجمعهم للكمالات البشرية وجب أن تصدقوه في دعواه.
فكيف وقد انضم إلى ذلك معجزات تخر لها صم الجبال؟".

وعلى ذلك فجملة النفي تمثل اعترافاً وشهادة صادقة ببراءة
الرسول صلى الله عليه وسلم من كل سوء. وذلك آت من جراء التفكير
بأمره صلى الله عليه وسلم ورسالته.

(١) تفسير أبي السعود، ج (٣)، ص (٢٩٨).

(٢) تفسير أبي السعود، ج ٧، ص (١٣٩).

وبعد التمهيد بجملة النفي تتبعها أسلوب الحصر المؤكد لها — "إن
والإ" على النحو الآتي: ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة + إن هو إلا نذير
لكم بين يدي عذاب شديد. يعني أن الرسول صلى الله عليه وسلم محصور
في النذارة لهم لا يتعداها ولا يتجاوزها إلى أنواع الجنون كلها. فهو
محصور في النذارة بالنسبة لكل أنواع الجنون. وأسلوب الحصر هنا سلبها
كلها مرة ثانية بعد أن تم سلبها بجملة النفي السابقة. وعلى ذلك فأسلوب
الحصر أكد مضمون جملة النفي السابق. ولما كان أسلوب النفي لسلب
ادعائهم الكاذب قوياً تطلب أسلوب حصر أقوى لتأكيد ذلك المعنى. لذلك تم
وضع النذارة بأسلوب حصر متين موثق محكم مؤكد لإندارهم وتحذيرهم
تحذيراً شديداً بعد اعترافهم وشهادتهم تلك.

وتجدر الإشارة إلى ما رواه الإمام البخاري^(١) في قوله
تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ إذ قال: عن ابن
عباس رضي الله عنهما قال: صعد النبي صلى الله عليه وسلم الصفا ذات
يوم. فقول: يا صباحاه^(٢) فاجتمعت إليه قريش. قالوا: مالك؟ قال: أرأيتم لو
أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقوني؟ قالوا: بلى. قال:
فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.....".

يلاحظ من سؤاله صلى الله عليه وسلم: "أرأيتم لو أخبرتكم أن
العدو يصبحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقوني؟" أن الإجابة من قريش له
كانت إقراراً صريحاً بصدقه صلى الله عليه وسلم. إذ كانت بحرف الجواب
"بلى" الذي يفيد الإقرار والاعتراف الصريح بتصديقهم له، ويلاحظ أن الإجابة
كانت بناءً على خبرة وطول مصاحبة له صلى الله عليه وسلم. وبناءً على
ذلك فالتصديق به صلى الله عليه وسلم أمر حتمي لا مفر منه. ولو استطاع

(١) مختصر صحيح البخاري، ج ٢، ص (٤١٣).

(٢) صباحاه: كلمة يعنادونها (أي العرب) عند وقوع أمر عظيم، فيقولونها ليجمعوا ويتأهبوا له. انظر

صحيح مسلم بشرح النووي، مج ٢، ص (٨٥).

أهل قريش الإنكار لفعّلوا. لكن لكونهم مجتمعين مع بعضهم لا يستطيعون أن ينكروا ويفضحوا أمرهم أمام الناس، ويخالفوا الواقع الذي يشهد بصدقه صلى الله عليه وسلم.

والاعتراف بصدقه صلى الله عليه وسلم يقضي الإنذار والتحذير الشديد النابع من حرصه صلى الله عليه وسلم الشديد على نصحتهم وهدايتهم من جراء اعترافهم.

ويرى الباحث أن يقارن بين السياقين الأول والثاني نظراً لتشابههما. ويمكن توضيح هذا التشابه على النحو الآتي:

السياق الأول: ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

السياق الثاني: أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين.

هنا نرى أن الخطاب في السياق الثاني موجه إلى مخاطبين غائبين بدلالة: أولم يتفكروا، وما بصاحبهم.

ويلحظ هنا أن جملة الحصر في السياق الثاني اختلفت عنها في السياق الأول. ففي السياق الأول جاءت جملة الحصر على النحو الآتي: "إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد" بينما جاءت جملة الحصر في السياق الثاني على النحو الآتي: "إن هو إلا نذير مبين".

والسبب في اختلاف جملتي الحصر في كلا السياقين هو التحول من خطاب الحاضر إلى خطاب الغائب. ففي خطاب الحاضر كان هناك عرض قائم على رؤوس الكفر بأن يتفكروا. بينما في خطاب الغائب فقد انقضى العرض وانتهى. فقد عرضت عليهم فرصة التفكير وانتهت. لذا جاء خطاب الغائب بقوله تعالى: ﴿أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة﴾

باستفهام استنكاري توبيخي: يقول أبو السعود^(١) في ذلك: "...لإنكار عدم تفكرهم في شأنه صلى الله عليه وسلم، وجهلهم بحقيقة حاله الموجبة للإيمان به وبما أنزل عليه من الآيات التي كذبوا بها. والهمزة للإنكار والتعجيب والتوبيخ....".

فالتفكير في السياق الأول اقتضى الإنذار والتحذير الشديد لأن مقام الدعوة يقتضي الإخلاص في النصيح. بينما عدم التفكير في السياق الثاني يعني رفض الانتفاع بالدعوة، ويعني أن الإخلاص في النصيح ضرب من العبث. وعلى ذلك فعدم التفكير لم يقتض التحذير في الثاني فجاء قوله تعالى: **«لَإِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ»** مؤكداً لمضمون جملة النفي السابقة مبيناً لحقيقة حاله صلى الله عليه وسلم وفي ذلك يقول أبو السعود^(٢): "أي ما هو صلى الله عليه وسلم إلا مبالغ في الإنذار، مظهر له غاية الإظهار، إبراز لكمال الرأفة ومبالغة في الأعذار".

ثم إن مجيء أسلوب الحصر بقوله تعالى: **«لَإِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ»** مفرغاً من التحذير يتناسب مع مقدمة السياق يتضح في قوله تعالى: **«وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ، وَأَمْلِي لَهُمْ أَنْ كَيْدِي مَتِينٌ...»**.

فهذا السياق يوضح الوعيد لهؤلاء المتمثل باستدراجهم والاملاء لهم والكيد عليهم لعدم تفكرهم. فناسب هذا الوعيد تفريغ أسلوب الحصر من التحذير الشديد لهم.

وبعد ذلك يلحظ من الادعاء الكاذب في السياقين بحق الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان هجوماً شخصياً تمثل بالنيل من شخصه صلى الله عليه وسلم وهو شأنه الكفرة في كل حين، ولم يكن هجوماً على الدعوة والدين لأن الدين أبهرهم وأعجزهم.

(١) تفسير أبي السعود، ج (٣)، ص (٢٩٨).

(٢) المصدر السابق نفسه، والصفحة نفسها.

ورؤوس الكفر لم يجدوا مثلمة واحدة بشخص الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ينفذوا من خلالها للطعن فيه صلى الله عليه وسلم. ويشرعوا من بعد ذلك في إقامة الأدلة والبراهين وشرح أسباب ذلك الطعن. فالرسول صلى الله عليه وسلم كما يعلم رؤوس الكفر ولد تحت أشعة الشمس، والحقيقة كل الحقيقة معروفة عنه ومكتشفة لهم. وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

وبعد ؛ فهذا درس للدعاة في سبيل الله من بعده صلى الله عليه وسلم . يتمثل بأن الداعي طالما تجرد للدعوة في سبيل الله سينجد كثيرا من المارقين الذين امتنوا واحترفوا أسلوب الطعن ، والتشكيك في اخلاص الدعاة . وهؤلاء المارقون هم هم قديما وحديثا .. مفلسون فكرا وأخلاقا . قد أعجزهم الداعي وأبهرهم بحجته . فلجأوا إلى الطعن في شخصه . ولكن الله رد كيدهم في نحورهم ؛ لأن تلك سنة نبوية ، والله سبحانه وتعالى يدافع عن الذين آمنوا ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وفي السياق الثالث أيضاً جاءت جملة النفي للتمهيد بتأكيد قوي

بأسلوب الحصر بـ "إن وإلا" متمثلاً بقوله تعالى:

"وما أنت بمسمع من في القبور" + إن أنت إلا نذير



تظهر جملة النفي بكل وضوح بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لديه هم كبير وحلم عظيم ونفس طويل واستعداد هائل للدعوة لا يعرف المستحيل فهو حريص كل الحرص على هداية كل البشر ، لذا يخشى أن

يكون التقصير من نفسه صلى الله عليه وسلم لعدم استجابة رؤوس الكفر لدعوته. لذا فهو في حركة دائبة وجهد موصول منقطع النظير لا يعرف الوقوف أو التوقف في سبيل دعوتهم. فهو كما قال تعالى:

﴿فَلَمَّا كَبِهَاجِمْ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف، ٦)، فالرسول صلى الله عليه وسلم مهلك نفسه ومُعذِّبها من أجل أن يكون هؤلاء مهتدين فالرسول صلى الله عليه وسلم فعل كل ما بوسع لإسماعهم كلام الله سبحانه وتعالى وتجاوز حدود طاقته ظاناً بأنه لديه قدرة على إسماعهم. ويأتي التعقيب على ذلك في قوله تعالى: **﴿... وَلَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَالْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ. وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ..﴾** ((فالأحياء هم المؤمنون والأموات هم الكفرة، والفريقان لا يستويان بل بينهما فرق وبون شاسع. **﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ..﴾** أي يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها

(١) في تفسير القرآن العظيم، ج (٣)، ص (٥٦٠).

والانقياد لها^(١).

فالرسول صلى الله عليه وسلم يستطيع أن يسمع الأحياء الذين يتفكرون ويعقلون، ويبصرون وينشدون الحقيقة ويفتحون لها قلوبهم أما الموتى العمى الذين لا يتفكرون ولا يعقلون ولا ينشدون الحقيقة ويغلقون قلوبهم لها. أما هؤلاء فلا يستطيع الرسول صلى الله عليه وسلم إسماعهم؛ لأن في إسماعه لهم خرقاً لنظام الكون ونواميس الحياة، وخروجاً عن طبيعته الإنسانية، وتجاوزاً لمهمته الحقيقية. فالقادر على إسماع الفريقين معاً الأحياء والموتى الله سبحانه وتعالى وحده. فجملة النفي: "وما أنت بمسمع من في القبور"، جاءت بالباء الزائدة في الخبر لتأكيد معنى النفي، ولسلب قدرة النبي صلى الله عليه وسلم على إسماع الموتى تأكيداً لبشريته صلى الله عليه وسلم، وإبرازاً لمعنى القدوة به صلى الله عليه وسلم وبيانا لحقيقة مهمته الموكول بها.

"وما أنت بمسمع من في القبور" + إن أنت إلا نذير



وبعد التمهيد بجملة النفي بسلب قدرة الرسول صلى الله عليه وسلم على إسماع الموتى يأتي أسلوب الحصر: "إن أنت إلا نذير" تأكيداً لمعنى الجملة السابقة وسلبها مرة ثانية فالرسول صلى الله عليه وسلم محصور في النذاره لا يتجاوزها إلى إسماع الموتى.

ولما كان أسلوب النفي في سلب قدرة الرسول صلى الله عليه وسلم على

إسماع الموتى قوياً تطلب أيضاً
أسلوب حصر أقوى لتأكيد ذلك
المعنى.

لذلك تم وضع النذارة بأسلوب حصر
متين موثق محكم مؤكد لتحديد مهمة
الرسول صلى الله عليه وسلم بالضبط
بحيث لا يتجاوزها.

ويلحظ في هذا السياق أن المحصور
فيه أي "النذارة" لم تقتصر بصفة
الإبانة كما في السياق الثاني: "إن هو
إلا نذير مبين". والسبب في ذلك أن
الخطاب في أسلوب الحصر "إن هو
إلا نذير مبين" موجه إلى الناس
وخطاب الناس يحتاج إلى إبراز
الغاية في الإبانة والفصاحة كوسيلة
من وسائل الرسول صلى الله عليه
وسلم لإنجاح مهمة الدعوة.

بينما الخطاب في أسلوب الحصر:
"إن أنت إلا نذير مبين" جاء مفرغاً
من صفة الإبانة؛ لأنه موجه من الله
سبحانه وتعالى إلى رسول الله صلى
الله عليه وسلم لتحديد مهمته ووظيفته
بالضبط "نذير".

أما الإبانة فمسألة متحققة في كل نبي
من الأنبياء فلا حاجة إلى التصريح

بها هنا وسيدنا محمد صلى الله عليه
وسلم أفصح العرب، وأوتي جوامع
الكلم.

وفي السياق الرابع كذلك جاءت جملة النفي للتمهيد بتأكيد قوي بأسلوب
الحصر بـ "إن وإلا" متمثلاً: بقوله تعالى:

"... وما مسني من سوء + إن أنا إلا نذير وبشير لقوم

يؤمنون"



يمثل النفي هنا سلب مقسرة النبي صلى الله عليه وسلم على دفع سوء
عن نفسه لانتفاء علمه للغيب وقسده على دفع سوء عن نفسه لانتفاء
سلب من قبل مقدرته على النفع والضرر. وذلك لأن هذه الأمور ليست من وظيفته أو مهمته صلى الله عليه وسلم.

وبعد التمهيد بجملة النفي بسلب مقسرة الرسول صلى الله عليه وسلم على دفع سوء عن نفسه لانتفاء علمه للغيب يأتي أسلوب الحصر "إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون" تأكيداً لمعنى الجملة السابقة وسلبها مرة ثانية. فالرسول صلى الله عليه وسلم محصور في النذارة والبشارة لا يتجاوزها إلى علم الغيب.

وأسلوب الحصر هنا حدد مهامه بدقة فهو نذير وبشير. والمنفع الوحيد من النذارة والبشارة هم المؤمنون الأحياء الذين يتفكرون لا الأموات، وكان ذلك تعريض بغير المؤمنين إذ إن عدم انتفاعهم بالنذارة والبشارة كونهم غير مؤمنين. فلو جربوا

الآيمان ودخلوا فيه لانتفعوا بذلك.
ويلحظ هنا أن النذارة سبقت البشارة
في أسلوب الحصر وعادة الآيات
القرآنية أن تسبق البشارة النذارة فيها
كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ
بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (البقرة، ١١٩)
وقوله تعالى: ﴿لَوْ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا
كَافَّةً النَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾
(سبا، ٢٨٠) والسبب في ذلك أن
المخاطب في هذا السياق في حالة
إنكار شديدة والمنكر يحتاج إلى
الإنذار والتهديد والتحذير فناسبت
حالته تقديم النذارة على البشارة.

يخلص الباحث من استعراض السياقات القرآنية الأربعة أن جمل
الحصر بـ "إن وإلا" التي تم حصر الرسول صلى الله عليه وسلم في النذارة
فيها كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بجملة النفي الممهدة لها ضمن قاعدة مطردة
لا تتخلف عنها في السياقات المذكورة على النحو الآتي:
جملة نفي + أسلوب حصر مؤكد لها بـ "إن وإلا"

وهذا يعني أن النذارة التي تم حصر الرسول صلى الله عليه وسلم
فيها ضمن أسلوب الحصر بـ "إن وإلا" لا يمكن تصورها دون جملة نفي
ممهدة لها في حالة الإنكار الشديدة.
وبعد ذلك كله نرجع إلى أسلوب الحصر بـ "إن وإلا" في السياق
القرآني الأول. قال تعالى: ﴿قَالُوا: أَتُؤْمِنُ لَكُوا تَتَّبِعُكَ الْأَرْدَلُونَ؟ قَالَ:

وما علمي بما كانوا يعملون إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون، وما أنا بطارد المؤمنين إن أنا إلا نذير مبين. قالوا: لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين. قال: ربي إن قومي كذبون^١ (الشعراء، ١١١-١٢١).

يوضح هذا السياق إنكار المخاطب (وهم الكفرة) بمجادلتهم واستعلائهم وإعلان الحرب على سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام في نهاية الأمر. أما موقف سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام فيتمثل بالجهاد بالقول. ويمكن تلخيص هذا الإنكار على النحو الآتي:

١. وصف المؤمنين بالأراذل وقد مثل هذا الوصف المخاطب وهو في حالة الاستكبار والاستعلاء، وهي أشد حالات الإنكار والجحود.
٢. موقف سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام الجهادي تمثل بردين عليهم:

الرد الأول: "وما علمي بما كانوا يعملون إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون" وهذا كما أسلفنا يمثل حكمة الداعي -كما أسلفنا- ومهّد للرد الثاني.

الرد الثاني: "وما أنا بطارد المؤمنين إن أنا إلا نذير مبين" مثل موقف سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام الجهادي بأنه لن يطرد المؤمنين أبداً.

٣. تهديد سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام وتحذيره بالانتهاء والكف عن الدعوة، وإلا رجموه. ويتمثل هذا التهديد بقوله تعالى على لسانهم: "لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين".

نخلص إلى أن حالة الإنكار الشديدة تطلبت للرد عليها أكد أساليب الحصر وأقواها المتمثلة بأسلوب الحصر بـ "إن وإلا" في قوله تعالى: "إن أنا إلا نذير مبين"، وإن هذه النذارة التي يتم حصر الرسول صلى الله عليه

وسلم فيها ضمن أسلوب الحصر هذا لا يمكن تصورهما دون جملة نفي
ممهدة ومؤكدة لها في حالة الإنكار الشديدة.

بعد تحليل جملة الحصر «لأن أنا إلا نذير مبين» (الشعراء،
١١٥) وبيان دقة المكان الذي يتموضع فيه:

ننتقل إلى جملة الحصر الثاني «لوما أنا إلا نذير مبين»
(الأحقاف، ٩) ونضعها في سياقها القرآني الكريم على النحو الآتي: قال
تعالى: «... أم يقولون افتراه؟ قل: إن افتريته فلا تملكون لي من الله
شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو
الغفور الرحيم قل ما كنت بدعاً من الرسل، وما أدري ما يفعل بي ولا
بكم إن اتبع إلا ما يوحى إلي، وما أنا إلا نذير مبين، قل أرأيتم إن كان
من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن
واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين» (الأحقاف، ٧-١٠).

يوضح هذا السياق حالة إنكار المخاطب المتمثلة بقول الكفرة
"افتراه" ويتمثل الرد عليهم بأقوال ثلاثة:

القول الأول: «قل: إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما
تفيضون فيه، كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو
الغفور الرحيم».

القول الثاني: «قل: ما كنت بدعاً من الرسل، وما أدري ما يفعل بي ولا
بكم إن اتبع إلا ما يوحى إلي، وما أنا إلا نذير مبين».

القول الثالث: «قل: أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به، وشهد
شاهد من بني إسرائيل على مثله، فآمن واستكبرتم، إن
الله لا يهدي القوم الظالمين».

من خلال اختبار حالة إنكار المخاطب في هذا السياق يمكن تحديد
موقعية أسلوب الحصر بـ "ما وإلا" في قوله تعالى: "وما أنا إلا نذير مبين"

مقارنة مع أسلوب الحصر بـ "إن وإلا" في قوله تعالى: "إن أنا إلا نذير مبين" على النحو الآتي:

أولاً: يلاحظ من جملة الحصر "وما أنا إلا نذير مبين" أن النذارة محصورة في الرسول صلى الله عليه وسلم بالنسبة للافتراء. أي إن الرسول صلى الله عليه وسلم محصور في النذارة لا يتجاوزها ولا يتعداها إلى الافتراء. فهو نذير مبين لا مفتر. والذي جعل حصر النذارة في الرسول صلى الله عليه وسلم بالنسبة للافتراء هو أن جملة الحصر **﴿وما أنا إلا نذير مبين﴾** معطوفة على جملة "وما كنت بدعا من الرسل" وفي عطفها على هذه الجملة يقول الطاهر بن عاشور^(١): "... لأنه الغرض المسوق له الكلام" أي أنه نذير لا مفتر."

ويلحظ هنا أن جملة الحصر **﴿وما أنا إلا نذير مبين﴾** مقارنة مع جملة الحصر في السياق الأول أنت دون جملة نفي سابقة ممهدة لها كما هو واضح فإن سلب الافتراء هنا تطلب جملة حصر بـ "ما وإلا" بينما سلب طرد المؤمنين في السياق الثاني تطلب سلبين اثنين : السلب الأول: جملة نفي.

السلب الثاني: جملة حصر بـ "إن وإلا" مؤكدة لجملة النفي. نخلص إلى أن مجيء جملة الحصر "وما أنا إلا نذير مبين" كان بسلب واحد في السياق الثاني، بينما مجيء جملة الحصر "إن أنا إلا نذير مبين" كان مقترنا بجملة نفي ممهدة لها مفيدة سلبين اثنين -كما ذكرنا-. وهذا يعني أن المخاطب في السياق الثاني كان في حالة إنكار أقل شدة منها في السياق الأول فتطلب معها استخدام جملة الحصر "وما أنا إلا نذير مبين" بينما كان المخاطب في السياق في حالة إنكار شديدة تطلب معها استخدام جملة الحصر **﴿إن أنا إلا نذير مبين﴾**.

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ج ٢٦، ص ١٨.

ثانياً: إن خاتمة السياق الأول انتهت بالتهديد والوعيد والتحذير لسيدنا نوح عليه الصلاة والسلام بالانتهاء عن الدعوة والكف عنها ويتمثل هذا التهديد بقوله تعالى على لسانهم: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ

من المرجومين﴾.

بينما خاتمة السياق الثاني انتهت في صالح الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى جانبه، وذلك ببيان حجة أخرى عليهم لعلها تردهم إلى الحق وتتمثل في خاتمة هذا السياق بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَّا إِنْ كَفَرْتُمْ إِنْ لَمْ يَهْدِ الْقَوْمُ الظَّالِمِينَ﴾ (الأحقاف، ١٠).

يقول الطاهر بن عاشور^(١): "وهذا استدراج لهم بالوصول إلى الحق في درجات النظر فقد بادأهم بأن ما أحالوه من أن يكون رسولا من عند الله ليس بمحال إذ لم يكن أول الناس جاء برسالة من الله. ثم أعقبه بلأن القرآن إذا فرضنا أنه من عند الله وقد كفرتم بذلك كيف يكون حالكم عند الله تعالى؟".

ثالثاً: يلحظ من الأقوال الثلاثة في السياق الثاني أن المخاطب في حالة إنكار -كما أسلفنا- . ولكن ليست شديدة كتلك التي في السياق الأول. ودليل ذلك أن الأقوال الثلاثة التي أتت على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم كانت طويلة. مما أتاح له مساحة واسعة في الرد عليهم. وسعة المساحة هذه تعني أن الكفرة المنكرين كانوا ما يزالون في حالة استماع للرسول صلى الله عليه وسلم، وسماعهم هذا له صلى الله عليه وسلم يقتضي الإسهاب في القول، ويقتضي أيضاً التخفيف من حدة أسلوب الحصر المستعمل في الرد على المخاطب، لما تحفل به العربية من أساليب لغوية دقيقة.

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ج ٢٦، ص ١٨.

بينما في السياق الأول كانت مساحة الرد ضيقة، وذلك لأن حالة الإنكار الشديدة لا يفيد معها الإسهاب في القول، ولأن المخاطب شديد الإنكار فلن ينتفع به، وإنما يفيد معه الإيجاز والقطع ما أمكن لذا تطلب أسلوب حصر أكد من أسلوب الحصر في السياق الثاني.

انظر إلى قوم سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام فقد وجهوا له تهمة شبيهة بالتهمة التي وجهت إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في السياق الثاني تتمثل في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افترأه؟ قل: إن افتريته فعلي إجرامي وأنا بريء مما تجرمون﴾ (هود، ٣٥).

هذه الآية الكريمة أتت خاتمة لسياق طويل كان المخاطب فيه في حالة إنكار شديدة، وكما هو واضح فرد سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام على "الافتراء" يتمثل بقول واحد. بينما رد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على "الافتراء" في السياق الثاني تمثل بثلاثة أقوال. لماذا؟

لأن الحالة التي عليها قوم سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام حالة إنكار شديدة لا ينفع معها الإسهاب في القول.

انظر إلى الآية التي تلت "افتراءهم الكاذب" فقد جاء قوله تعالى تسلياً لسيدنا نوح عليه الصلاة والسلام لشدة إنكار قومه فقال: ﴿وَأَوْهِي إِلَى نَوْمِ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (هود، ٣٦).

وانظر إلى الآيات التي تدل على أن قوم نوح عليه الصلاة والسلام كانوا في حالة إنكار شديدة، وأنهم غير مستعدين لسماع الكثير من سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام:

قال تعالى: ﴿قَالُوا: يَا نَوْمُ قَدْ جَاءَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَادِقِينَ﴾ (هود، ٣٢).

﴿قال: رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا، فلم يزدتهم دعائي إلا فرارا وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أطابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا﴾ (نوح، ٥-٧).

رابعاً: ويلاحظ من الأقوال الثلاثة أيضاً في السياق الثاني أنها أتت بأسلوب هادئ مقنع مقارنة مع السياق الأول. ودليل ذلك؛ سعة المساحة التي أخذتها هذه الأقوال، وإحكام الرد عليهم. إذ إن الأقوال الثلاثة أتت متصاعدة بأسلوب هادئ، ورد محكم. فالقول الأول مهد لرد أقوى منه في القول الثاني والقول الثالث كان خاتماً للسياق ومغلقاً له. وفي ذلك يقول الطاهر بن عاشور^(١) في عدم عطف جملة: "قل: ما كنت بدعا من الرسل" على جملة "قل: إن افتريته ..": "لأن المقصود الارتقاء في الرد عليهم من رد إلى أقوى منه فكان هذا التعدد والتكرير" وسيأتي بعده قوله: "قل: أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به ... رداً ثالثاً.

لذا فطبيعة الأسلوب الهادئ المقنع يتطلب جملة حصر تتناسب معه فجاءت جملة الحصر في هذا السياق الأول بقوله تعالى: ﴿لَوْما أنا إلا نذير مبين﴾ في الموقع المناسب.

بينما في السياق الأول يلحظ أن جملة الحصر ﴿إن أنا إلا نذير مبين﴾ كانت تعبر عن موقف جهادي في القول يستلزم الحزم والحسم والقطع ويظهر ذلك بوضوح في قوله تعالى على لسان سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿لَوْما أنا بطارد المؤمنين﴾.

نخلص من ذلك كله إلى أن السياق الذي استعملت فيه الحصر '﴿لَوْما أنا إلا نذير مبين﴾' مختلف تماماً عن السياق الذي استعملت فيه جملة الحصر ﴿إن أنا إلا نذير مبين﴾. مما يؤكد - ما ذكرناه سابقاً - من

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ج ٢٦، ص ١٨-١٩.

أن المخاطب في السياق الثاني كان في حالة إنكار أقل شدة منها في السياق الأول . فتطلب معها استخدام جملة الحصر **﴿لَوْ مَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مَبِينٌ﴾** بينما كان المخاطب في السياق الأول في حالة إنكار شديدة تطلب معها استخدام جملة الحصر **﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مَبِينٌ﴾**.

الأنموذج الثاني

الأنموذج الثاني: ويتم تحليله أيضا من خلال طرح السؤال الآتي:
ما الفرق الدقيق بين جملتي الحصر الآتيتين:

﴿إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (ص، ٨٧)

و **﴿لَوْ مَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾** (القلم، ٥٢).

نضع هاتين الجملتين في سياقهما القرآني على النحو الآتي:

السياق الأول: قال تعالى: **﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ، إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ وَلِتَعْلَمَ نَبَأَهُ بَعْدَ هَبِينٍ﴾** (ص، ٨٦-٨٨).

السياق الثاني: قال تعالى: **﴿لَوْ إِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ، وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾** (القلم، ٥١، ٥٢).

يلحظ من السياق الأول أنه أتى خاتما لسورة "ص" ومنهيا لها.
وفيه يقول الطاهر بن عاشور^(١): "لما أمر الله رسوله بإبلاغ المواعظ والعبر

(١) التحرير، والتنوير، ج ٢٣، ص (٣٠٨).

التي تضمنتها هذه السورة أمره عند انتهائها أن يقرع أسماعهم بهذا الكلام الذي هو كالفذلكة^(١) للسورة تنهيه لها تسجيلا عليهم أنه ما جاءهم إلا بما ينفعهم وليس طالبا من ذلك جزاء، أي لو سألهم عليه أجرا لراج اتهامهم إليه بالكذب لنفع نفسه، فلما انتفى ذلك وجب أن ينتفي توهم اتهامه بالكذب لأن وازع العقل يصرف صاحبه عن أن يكذب لغير نفع يرجوه لنفسه.

وبلحظ من السياق الأول أيضا أن جملة الحصر **«إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ»** أتت على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم ردا على المخاطبين وهم في أشد حالات الإنكار والتكذيب، ويمكن توضيح حالة الإنكار الشديدة هذه على النحو الآتي:

١. **«وَقَالَ الْكَافِرُونَ: هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ»** (ص، ٤) هذه الآية أتت في مقدمة سورة (ص) وهي تمثل الإنكار الشديدة لدى المخاطبين، وهذه الآية أيضا ليست من السياق، وإنما أتت السياق خاتما لهذه السورة ردا على هذه الآية:

وفي هذه الآية يقول أبو السعود^(٢): "وقال الكافرون: وضع فيه الظاهر موضع الضمير غضبا عليهم وإيدانا بأنه لا يتجاسر على مثل ما يقولونه إلا المتوغلون في الكفر والفسوق. "هذا ساحر": فيما يظهروه من الخوارق. "كذاب": فيما يسنده إلى الله تعالى من الإرسال ولا تزال".

ويرى الباحث أن مثل هذا الادعاء قد قيل في سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام قال تعالى: **«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا: سَاحِرٌ كَذَّابٌ»** (غافر، ٢٣، ٢٤) فكما هو واضح في هاتين الآيتين فأصحاب هذا الادعاء هم أعتسى رؤوس كفر

(١) الفذلكة: أصلها: "فذلك حسابه: أنهاه وفرغ منه، مخترعه (أي منحوته) من قوله إذا أجمل حسابه: فذلك كذا وكذا" انظر القاموس المحيط، ص(١٢٢٧) والفذلكة: مجمل ما فصل وخلصته

(محدثه) انظر: المعجم الوسيط، إبراهيم انيس، ج ٢، ص ٦٧٨.

(٢) تفسير أبي السعود، ج ٧، ص(٢١٤).

عرفتهم الخليفة. ففرعون وهامان وقارون مضرب المثل في الكفر والإنكار والتكذيب وكفار قريش على خطاهم ساروا.

وهناك جامع بين هؤلاء وأولئك وهو أن الآيات البينات لما أبهرت كلا من الفريقين وأعجزتهم ، ولم يستطيعوا الطعن فيها عمدوا إلى الطعن في صاحبها وشخصيتها. والهروب من الطعن في الآيات إلى الطعن في صاحبها يجعل ادعاءهم ضعيفا وحيلتهم واهية أمام أنفسهم وأمام الناس. إذ بالرغم من طعنهم في صاحبها تبقى الآيات باهرة، قيمة، معجزة. وهذا يكشف لنا غظيهم وحقدهم وكراهيتهم لصاحبي الآيات.

٢. ﴿قُلْ: مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾: يقول الطاهر بن عاشور^(١): "وضمير "عليه" عائد إلى القرآن المعلوم من المقام فإن مبدأ السورة قوله: ﴿وَالْقُرْآنُ ذِكْرٌ لَكَ﴾ (ص، ١) فهذا من رد العجز على الصدر".

ويرى الباحث أن قول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: "قل ما أسألكم عليه من أجر، هو رد على قولهم: "ساحر كذاب" في مقدمة السورة، وقد أتى الرد متأخرا في خاتمة السورة بعد إبلاغهم المواعظ والعبر ليقرع أسماعهم به. وكأننا أمام تفكير منطقي عقلي مطروح على رؤوس الكفر والناس من حولهم أيضا؛ وهذا التفكير هو: لو كان الرسول صلى الله عليه وسلم ساحرا كذابا كما تدعون لطلب منكم أجرا جزاء على هذه الآيات. فهل طلب منكم أجرا؟ فيأتي الرد عليهم جميعا: "قل ما أسألكم عليه من

أجر".

فالآيات الصادقة البينة أبهرت الناس وأعجزتهم . فأعطت الرسول صلى الله عليه وسلم مصداقية مطلقة أمام الناس. فسأراد الكافرون من غيظهم التشكيك فيها. فقالوا: "ساحر كذاب" ؛ أي يبتغي وراء ذلك أجرا كما

(١) التحرير والتنوير، ج(٢٣)، ص(٣٠٨).

يفعل السحرة عادة. فيبرىء الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه ويزيدهم غيظا بقوله: **﴿قل: ما أسألكم عليه من أجر﴾**.

٣. **﴿وما أنا من المتكلفين﴾**: عطف على الجملة السابقة. والتكلف: "اسم لما يفعل بمشقة أو تصنع أو تشيع .." ^(١) والتكلف هنا: "معالجة الكلفة، وهي ما يشق على المرء عمله والتزامه لكونه يخرجه أو يشق عليه، ومادة التفعّل تدل على معالجة ما ليس بسهل، فالمتكلف هو الذي يتطلب ما ليس له أو يدعي علم ما لا يعلمه" ^(٢). وتركيب **﴿وما أنا من المتكلفين﴾** أشد في نفي التكلف من أن يقول: ما أنا بمتكلف. لأن تركيب **﴿وما أنا من المتكلفين﴾** أفاد انتفاء جميع التكلف عن النبي صلى الله عليه وسلم ^(٣).

فالمعنى كما يقول أبو السعود: "وما أنا من المتصنعين مما ليسوا من أهله حتى انتحل النبوة أو أتقول القرآن على الله" ^(٤). أو كما يقول الطاهر بن عاشور ^(٥): "ما أنا بمدع النبوة باطلا من غير أن يوحى إلي، وهو رد لقولهم: "كذاب"، وبذلك كان كالنتيجة لقوله: **﴿ما أسألكم عليه من أجر﴾** لأن المتكلف شيئا إنما يطلب من تكلفه نفعاً، فالمعنى: وما أنا ممن يدعون ما ليس لهم.

ويؤخذ من قوله: **﴿وما أنا من المتكلفين﴾** أن ما جاء به من الدين لا تكلف فيه، أي لا مشقة في تكاليفه وهو معنى سماحة الإسلام.

٤. وجملتا النفي هنا أتتا للتمهيد لجملة الحصر **﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾** فلما نفى بقوله: **﴿قل: ما أسألكم عليه من أجر﴾** أن

(١) المفردات، ص (٤٣٩).

(٢) التحرير والتنوير، ج (٢٣)، ص (٣٠٨، ٣٠٩).

(٣) التحرير والتنوير ج (٢٣)، ص (٣٠٩).

(٤) تفسير أبي السعود، ج ٧، ص (٢٣٩).

(٥) التحرير والتنوير، ج (٢٣)، ص (٣٠٩).

يكون هدفه من تلاوة القرآن عليهم ودعوتهم به الأجر الدنيوي ولما نفى أيضا بقوله ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أن يكون نقول القرآن على الله ثبت من ذلك أن القرآن ذكر للناس ذكرهم به، أي ليس هو بالأساطير أو الترهات^(١).

والمحصور في جملة الحصر ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ الضمير "هو" العائد إلى القرآن الكريم، والمحصور فيه "ذكر" موصوف بأنه "للعالمين" أجمعين أي: غير مختص بأمة دون أخرى. فالقرآن الكريم محصور في كونه ذكرا للعالمين لا يتجاوز به إلى كونه سحرا أو أساطير أو شعرا أو غير ذلك. فجملة الحصر أتت للرد على المخاطبين وهم رؤوس الكفر الذين يسمون القرآن الكريم بأوصاف غير حقيقية.

وفي جملة الحصر هذه يقول الطاهر عاشور "وهذا الإخبار عن موقع القرآن لدى جميع أمة الدعوة. لا خصوص المشركين الذين كان في مجادلتهم. لأنه لما ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يرجو من معانديه أجرا. وثبت بذلك أنه ليس بمتقول ما لم يوح إليه. انتقل إلى إثبات أن القرآن ذكر للناس قاطبة. فيدخل في ذلك مشركو أهل مكة وغيرهم من الناس"^(٢).

يلحظ من جملة الحصر "إن هو إلا ذكر للعالمين، أنها أتت متسقة مع مقدمة سورة (ص) على النحو الآتي: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَلَا هِيَ كَالْأَلْبَانِ﴾ إن هو إلا ذكر للعالمين^(٣).

يقول سيد قطب^(٣) "إنه الختام الذي يتناسق مع افتتاح السورة ومع موضوعها والقضايا التي تعالجها، وهو الإيقاع المدوي العميق بضخامة ما سيكون: ولتعلمن نبأه بعد حين^(٤)".

(١) التحرير والتنوير، ج(٢٣)، ص(٣٠٩).

(٢) التحرير والتنوير، ج(٢٣)، ص(٣٠٩، ٣٠٩).

(٣) في ظلال القرآن، ج(٢٣)، ص(١١٢).

٥. ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾: "لتعلمن": جواب قسم^(١) مقدر. ومعناه: لتعرفن يا كفار مكة "نبأه" أي صدقه. يقول الطاهر بن عاشور^(٢): "وجملة "ولتعلمن نبأه بعد حين، عطف على جملة "إن هو إلا ذكر للعالمين" باعتبار ما يشتمل عليه القصر (الحصر) من جانب الإثبات (أي كونه ذكرا لا شعرا ولا غيره)، أي: و ستعلمون خبر هذا القرآن بعد زمان علما جزما فيزول شككم فيه، فالكلام إخبار عن المستقبل كما هو مقتضى وجود نون التوكيد".

وبناء على ذلك فجملة "ولتعلمن نبأه بعد حين" تتطوي على تهديد عنيف لكفار مكة، وهذا التهديد يتناسب مع عظم الإنكار.

بعد تحليل السياق الذي وردت فيه جملة الحصر: ﴿لَإِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ وبيان دقة المكان الذي تتموضع فيه ننقل إلى جملة الحصر ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ونضعها في سياقها القرآني الكريم على النحو الآتي:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (القلم، ٥١، ٥٢).

بهذا السياق اختتمت "سورة القلم". وفيه يقول سيد قطب^(٣): "وهذا السياق يرسم مشهدا للكافرين وهم يتلقون الدعوة من الرسول الكريم، في غيظ عنيف، وحسد عميق ينسكب في نظرات مسمومة قاتلة يوجهونها إليه. فهذه النظرات تكاد تؤثر في أقام الرسول صلى الله عليه وسلم. فتدعها تزل وتزلق، وتفقد توازنها إلى الأرض وثباتها. وهو تعبير فائق عم تحمله هذه النظرات من غيظ وحق وشر وحسد ونقمة وضغن وحسبي

(١) سراج المنير، الخطيب الشربيني، ج ٣، ص ٤٣.

(٢) تحرير والتنوير، ج (٢٣)، ص (٣١٠).

(٣) في ظلال القرآن، ج ٢٩، ص (٢٤٣).

وسم .. مصحوبة هذه النظرات المسمومة المحمومة بالسب القبيح، والشتم البذيء والافتراء الذميم: "ويقولون أنه لمجنون"^(١).

"وهو مشهد تلتقطه الريشة المبدعة وتسجله من مشاهد الدعوة العامة في قلة. فهو لا يكون إلا في حلقة عامة بين كبار المعاندين المجرمين، الذين ينبعث من قلوبهم وفي نظراتهم كل هذا الحقد الذميم المحموم"^(٢).

فكما هو واضح فهذا السياق يمثل حالة من الإنكار تصور موقفا معينا يعيشه رؤوس الكفر وهنا نريد أن نحلل جزئيات هذا السياق ضمن هذا الموقف على النحو الآتي:

وإن: "هي المخففة من الثقيلة"^(٣). يقول أبو السعود^(٤): "والدليل على أن "إن" هي المخففة من الثقيلة - اللام في "ليزلقونك"^(٥)". يقول الطاهر بن عاشور^(٦): "واللام في "ليزلقونك" لام الابتداء التي تدخل كثيرا في خبر "إن" المكسورة، وهي أيضا تفرق بين "إن" المخففة وبين "إن" النافية". ولعل الأنسب في تسمية اللام هنا: "اللام الفارقة"^(٧) التي تفرق بين "إن" المخففة وبين "إن" النافية وذلك لسببين:

الأول: لأنه ليس هناك دليل على أن "إن" مخففة من الثقيلة إلا اللام. الثاني: كما يقول ابن هشام^(٨) إن "إن" المخففة إن دخلت على الفعل أهملت وجوبا وإهمالها يعني أنه ليس هناك مسوغ لاعتبارها لام ابتداء.

(١) في ظلال القرآن، ج ٢٩، ص (٢٤٣).

(٢) في ظلال القرآن، ج (٢٩)، ص (٢٤٣).

(٣) انظر القرطبي، ج ١٨، ص (٢٣٥) و انظر تفسير أبي السعود، ج ٩، ص (٢٠) والتحرير والتنوير، ج (٢٩)، ص (١٠٨).

(٤) تفسير أبي السعود، ج ٩، ص (٢٠).

(٥) تفسير أبي السعود، ج ٩، ص (٢٠).

(٦) التحرير والتنوير، ج (٢٩)، ص (٢٠).

(٧) مصطلح اللام الفارقة صاحبة أبو علي الفارسي انظر مغني اللبيب، ص (٣٠٦).

(٨) مغني اللبيب، ص (٣٧).

وكون اللام فارقة هنا وليست لام ابتداء لا يعني نزع معنى التوكيد منها بل تفيد هذا المعنى لأن اللام الفارقة هي التي دلت على "إن" المخففة المؤكدة من الثقيلة.

"يكاد": يقول الطاهر بن عاشور: وجاء "يكاد" بصيغة المضارع للدلالة على استمرار ذلك في المستقبل. وجاء فعل "سمعوا" ماضياً لوقوعه مع "لما" وللإشارة إلى أنه قد حصل منهم ذلك وليس مجرد فرض^(١).

ليزلقونك بأبصارهم: نقل الطبري^(٢) في معناها أي "ينفذونك بأبصارهم" (أي يرمونك) ونقل^(٣) أيضاً "ليزلقونك بأبصارهم"، وفي معنى زلق: يقول الراغب^(٤) الأصفهاني: "الزلق و الزلل متقاربان قال تعالى:

﴿معيذاً زلقاً﴾ (الكهف، ٣٩) أي دحضاً لا نبات فيه؛ والمزلق:

المكان الدحض. قال تعالى: ﴿ليزلقونك بأبصارهم﴾ وكذلك كقول

الشاعر: "نظراً يزيل مواضع الأقدام"

ونقل الراغب^(٥) عن يونس بن حبيب أنه "لم يسمع الزلق و

الازلاق إلا في القرآن".

ونقل القرطبي^(٦) في معنى ﴿ليزلقونك بأبصارهم﴾ معاني عدة

"قيل ينفذونك بأبصارهم؛ يقال زلق السهم وزهق إذا نفذ، وقيل: يصرعونك، وقيل: يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة، وقيل: ليقتلونك".

(١) التحرير والتنوير، ج ٢٩، ص (١٠٨).

(٢) جامع البيان عن تأويل القرآن، ج ٢٩، ص (٥٦).

(٣) جامع البيان عن تأويل القرآن، ج (٢٩)، ص (٥٦)/المصدر نفسه.

(٤) المفردات، ص ٢١٥.

(٥) المفردات، ص ٢١٥، المصدر نفسه.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، ج (١٨)، ص (٢٣٥، ٢٣٦).

ويقول الطاهر^(١) بن عاشور أيضاً: "والزلق بفتحيتين زلزل الرجل من ملأسة الأرض من طين عليها على وجه الكناية، ومنه قوله هنا "يزلقونك" أي يسقطونك وبصر عونك".

وقول ابن عاشور^(٢) أيضاً: "وعلى جميع الوجوه فقد جعل الزلاق بأبصارهم على وجه الاستعارة المكنية، شبهت الأبصار بالسهام ورمز إلى المشبه به بما هو من رواد منه وهو فعل يزلقونك".

ونقل المفسرون^(٣) أيضاً: "أن قريشاً عاينت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصيبوه بالعين، فنظروا ليعينوه، وقالوا: ما رأينا رجلاً مثله .. قاصدين قتله، حتى إن أبا السعود^(٤) يقول: "دواء الإصابة بالعين أن تقرأ هذه الآية".

كما هو واضح فمعنى هذا السياق يتمحور في قوله تعالى ﴿يَزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ والمفسرون - كما رأينا - انصب تفسيرهم له على إظهار ما في داخل نفوس رؤوس الكفر من حقد وكراهية وغيظ وحسد تجله الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته. وذلك بتصويره نظراتهم وعنفها تصويراً أخذاً بحيث تظهر وكأنها زلزلة تريد أن تزلزل الأرض من تحت أقدام الرسول صلى الله عليه وسلم.

ولكن الباحث يرى أن قوة نظراتهم في قوله تعالى: ﴿يَزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾، تكشف بوضوح تام ضعف موقفهم الذي هم عليه. فرؤوس الكفر في هذا الموقف ذهلوا وبهتوا .. فلم يستطيعوا فعل شيء .. ووقفوا مكتوفي الأيدي .. لم يبدوا حراكاً .. تجمدوا .. وتصنموا .. فماذا سيقولون؟ وماذا سيفعلون؟ فالرسول صلى الله عليه وسلم مبين وفصيح

(١) التحرير والتنوير، ج ٢٩، ص (١٠٧).

(٢) التحرير والتنوير، ج ٢٩، ص (١٠٨).

(٣) انظر جامع البيان عن تأويل القرآن، ج (٢٩)، ص (٥٦) والجامع لأحكام القرآن، ج (١٨)، ص (٢٣٥).

(٢٣٦) والتفسير لأبي السعود، ج (٩)، ص (٢٠).

(٤) تفسير أبو السعود، ج ٩، ص ٢٠.

ومقنع والقرآن الكريم معجزته قاهرة .. وساطعة .. فما السبيل إلى التخلص من سماع القرآن الذي يضرب على أوتار القلوب . فيهزها هزا عنيفا حيناً ولينا حيناً آخر ؟ وما السبيل إلى إيقاف الرسول صلى الله عليه وسلم الذي هو كالنهر الزخار في اندفاعه باتجاههم ؟ وما الحيلة ؟

لا سبيل ولا حيلة سوى رمي الرسول صلى الله عليه وسلم بالنظرات المزلزلة .. إنها قمة العجز تملكت رؤوس الكفر . فلم يستطيعوا شيئاً أمامها سوى النظرات ... إنها قمة الضعف أيضاً . فلو كانوا أقوياء ففي هذا الموقف لكان لهم تصرف آخر غير النظرات . وما قولهم له بعد ذلك : "إنه لمجنون" . إلا إنهم أرادوا أن يستروا عجزهم وانبهارهم أمام تأثير القرآن الكريم ووقعه في قلوبهم . فضلا عن عامة الناس الذين سمعوه معهم . فالقرآن الكريم وآياته أبهرتهم وأعجزتهم . فلم يجدوا مجالا للطعن فيها فهربوا منها إلى الطعن في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم - كما أشرنا سابقا - . فالتعن في الأشخاص هو حيلة من لا حيلة له . وهي كما يقول سيد قطب^(١) : "سب قبيح، وشتم بذيء" ، ولا شك أن السب والشتم يمثل موقف الضعيف الذي أخذته العزة بالإثم .

﴿لَوْ مَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ : تأتي جملة الحصر هذه متناسقة أيضا مع مقدمة السورة على النحو الآتي : **﴿لَنْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ...﴾** ثم يأتي قوله التالي في خاتمة السورة **﴿يُوقِلُونَ: إِنَّهُ مُجْنُونٌ﴾** ثم يعقبه مباشرة القول الفصل **﴿لَوْ مَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾** .

يقول الطبري^(٢) في معنى جملة الحصر **﴿لَوْ مَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾** : "وما محمد إلا ذكر الله به العالمين : الثقلين : الجن والإنس" .

^(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج ٢٩، ص ٢٤٣ .

^(٢) جامع البيان ج ٢٩، ص (٥٧) و انظر الجامع لأحكام القرآن، ج (١٨)، ص ٢٣٦ .

يلحظ من قول الطبري أن الضمير في جملة الحصر ليس عائداً إلى القرآن الكريم وإنما عائد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا يعني أن جملة الحصر هنا أتت رداً على قولهم: ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾.

ويقول أبو السعود^(١) في جملة الحصر ((إنها حال من فاعل "يقولون" مفيدة لغاية بطلان قولهم، وتعجيب للسامعين من جرأتهم على تفوه تلك العظيمة. أي: يقولون ذلك والحال؛ أنه ذكر للعالمين أي تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمور دينهم. فأين من أنزل عليه ذلك؟ وهو مطلع على أسرار طرا ومحيط بجميع حقائقه خبراً...)).

واضح أن أبا السعود يرى أن الضمير في جملة الحصر عائد إلى القرآن الكريم مخالفاً بذلك الطبري علماً بأن أبا السعود ينقل رأي الطبري إلا أنه يضعه في مؤخرة أقواله. والسبب في ذلك لأنه معلوم من المقام والضمير في جملة الحصر وإن كان عائداً إلى القرآن الكريم فإن ذلك لا يعني أنه لم يبطل قولهم: ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾. يقول الطاهر بن عاشور^(٢): "أبطل الله قولهم: إنه لمجنون"، بقوله تعالى ﴿لَوْ مَا هُوَ إِلَّا ذَكَرُ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي وما القرآن إلا ذكر للناس كلهم وليس بكلام المجانين، وينتقل من ذلك إلى أن الناطق به ليس من المجانين في شيء. فإذا ثبت أن القرآن ذكر بطل أن يكون مبلغه مجنوناً. وهذا من قبيل الاحتياط إذ التقدير: ويقولون: إنه لمجنون، وإن القرآن كلام مجنون، وما القرآن إلا ذكر وما أنت إلا مذكر^(٣).

يتضح من تحليل السياق الثاني أن موقف رؤوس الكفر في هذا السياق كان ضعيفاً. وهذا يعني أن حالة الإنكار بالنظر إلى موقفهم كانت أقل شدة من السياق الأول.

(١) تفسير أبي السعود، ج (٩)، ص ٢٠.

(٢) التحرير والتنوير، ج ٢٩، ص ١٠٨.

(٣) التحرير والتنوير، ج ٢٩، ص ١٠٩.

ويلاحظ أن جملة الحصر ﴿لَوْ مَا هُوَ إِلَّا ذَكَرَ لِلْعَالَمِينَ﴾ كانت تعقيباً من الله عز وجل وقولا فصلا لينهي كل قول في خاتمة السورة. وما قاله المفسرون من أن جملة الحصر أبطلت قولهم ﴿لَوْ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ صحيح. إلا أن جملة الحصر إضافة إلى ذلك تحمل معنى العموم. أي أن مجيئها لم يكن خاصاً برؤوس الكفر وحدهم وإنما تعدادهم إلى الناس كافة. فجملة الحصر "وما هو إلا ذكر للعالمين" أتت بأسلوب موثق متين محكم لتقرع مسامع الناس كافة مما يتناسب مع حالاتهم جميعاً بنبرة أخف وأقل شدة من جمل الحصر في السياق الأول.

بينما جملة الحصر في السياق الأول: ﴿لَوْ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذَكَرَ لِلْعَالَمِينَ﴾ أتت على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم في حالة خاصة، وفي موقف خاص. هذا الموقف يمثل رؤوس الكفر وهم في أشد حالات الإنكار والتكذيب. وعلى ذلك فجملة الحصر هنا أتت لتقرع مسامعهم بالذات بنبرة قوية عنيفة فيها الوعد والوعيد. ودليل ذلك - كما أشرنا سابقاً:

- جملة النفي الأولى: قل ما أسألكم عليه من أجر.
 - جملة النفي الثانية: وما أنا من المتكلفين.
 - التعقيب بالتهديد العنيف: ولتعلمن نبأه بعد حين.
- وهذا يعني أن خصوصية الموقف الذي هم عليه رؤوس الكفر في السياق الأول تطلب أسلوب حصر أكد من أسلوب الحصر في السياق الثاني.

الأنموذج الثالث

الأنموذج الثالث: ويتم تحليله -أيضاً- من خلال طرح السؤال الآتي: ما الفرق بين جملتي الحصر الآتيتين :

﴿لَوْ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الأنعام، ٢٥)

و ﴿لَوْ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الأحقاف، ١٧).

نضع هنا جملتي الحصر في سياقهما الموضوعي عل النحو الآتي:
السياق الأول: ﴿لَوْ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ
يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا
بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا: إِنْ
هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الأنعام، ٢٥).

السياق الثاني: ﴿لَوْ الَّذِي قَالُوا لَوَالِدِيهِ: أَفْ لَكُمْ أَنْتُمْ تَدْعُونَنِي أَنْ أَخْرَجَ، وَقَدْ
خَلَقْتُ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي، وَهُمْ يَسْتَفْهِثُونَ اللَّهَ وَيَلْكَ أَمْنٌ، إِنْ
وَعَدَ اللَّهُ حَقَّ فَيْقُولَ: مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ
الْأَوَّلِينَ﴾ (الأحقاف، ٣٧).

يلحظ من السياق الأول: أن جملة الحصر ﴿لَوْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ
الْأَوَّلِينَ﴾ أتت على لسان رؤوس الكفر وهم في أشد حالات الإنكار
والاستعلاء والمعاداة والمكابرة. وتتضافر كل جزئية من جزئيات هذا
السياق التي تظهر فيها حالة الإنكار الشديدة على النحو الآتي:

١. ﴿لَوْ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾: يقول الطاهر بن عاشور^(١): "والضمير
المجرور بـ "من" التبعية عائد إلى المشركين الذين الحديث معهم
وعنهم ابتداء من قوله: ﴿لَوْ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾
(الأنعام، ١) أي ومن المشركين من يستمع إليك. وقد انتقل الكلام إلى
أحوال خاصة عقلاهم الذين يربأون بأنفسهم عن أن يقابلوا دعوة
الرسول صلى الله عليه وسلم بمثل ما يقابله سفهاؤهم من الإعراض
التام (أي دون مناقشة أو مجادلة)، ولكن هؤلاء العقلاء يتظاهرون
بالحلم والأناة، والإنصاف ويخيلون للدهماء أنهم قادرون على مجادلة
الرسول عليه الصلاة والسلام وإبطال حججه ثم ينهون الناس عن
الإيمان به".

(١) التحرير والتوير، ج٧، ص ١٧٨-١٧٩.

وروى الواحدي^(١) عن ابن عباس: "أن أبا سفيان بن حرب، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، وعتبة وشيبة ابني ربيعة، وأميمة وأبي بن خلف (اجتمعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستمعون القرآن فلما سمعوه قالوا للنضر): يا أبا قتيلة ما يقول محمد؟ قال: والذي جعلها بيته (يعني الكعبة) ما أدري ما يقول إلا أنني أرى يحرك شفثيه يتكلم بشيء وما يقول إلا أساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية". (ويقول الطاهر بن عاشور^(٢) هنا: "أن النضر" قال ذلك مكابرة منه للحق وحسدا للرسول عليه الصلاة والسلام" وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأولى وكان يحدث قريشا (عن قصص العجم) فيستملحون حديثه" يقول الطاهر بن عاشور^(٣) عن "النضر" أنه: "كان صاحب أسفار إلى بلاد الفرس وكان شديد البغضاء للرسول صلى الله عليه وسلم وهو الذي أهدر الرسول عليه الصلاة والسلام دمه فقتل يوم فتح مكة".

مما رواه الواحدي نخلص إلى أن قوله تعالى: ﴿لَا وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ جاء خاصا بأشراف قريش وساداتها الذين يمثلون رؤوس الكفر. والحديث عن موقفهم مرتبط بالإنكار الشديد. فالأشراف والسادة وعلية القوم في العادة لهم موقف شديد من الدعوة وأصحابها ليس لأنهم غير مقتنعين بها بل لأنه الكبر والتعالي المعتمل في نفوسهم المريضة يقف حائلا دون الدخول فيها، ولأن الدعوة تسحق شموخهم وكبرياءهم وعظمتهم وأنفتهم، وتفقدتهم مصالحهم وما يتمتعون به من نفوذ وسلطان. ورؤوس الكفر -أيضا- أصحاب فلسفة باهرة في الرفض والتكذيب والإنكار، وفلسفتهم هذه تقوم على خداع شعوبهم وأقوامهم

(١) أسباب النزول، للإمام الحسن بن أحمد الواحدي النيسابوري، مكتبة القرآن، القاهرة، (د.ت).

ص (١٤٧)، وانظر التحرير والتقدير، ج ٧، ص ١٧٩.

(٢) التحرير والتتوير، ج ٧، ص (١٧٩).

(٣) المصدر السابق نفسه.

وتضليلهم وتزوير الحقيقة لهم مستخدمين أقوى الوسائل والأساليب في ذلك. ولو لمست قريش ضعفا في موقف ساداتها من دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لما وجدت مانعا من الإيمان بها. وهذه الحقيقة يعلمها سادات قريش، ودليل ذلك أنه عندما ذهب كبيرهم الوليد بن المغيرة للاستماع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم قالوا (خائفين من اقتناعه بدعوته صلى الله عليه وسلم): "والله لئن صبا الوليد لتصبأن قريش"^(١). وعلى ذلك، فسلطات قريش اجتمعوا وانفقوا ووطنوا أنفسهم على كلمة واحدة. فخرجوا بإنكار شديد وإصرار أشد على مجابهة دعوته صلى الله عليه وسلم.

وعلى هذا، فمجيء جملة الحصر "إن هذا إلا أساطير الأولين" على لسان رؤوس الكفر يؤكد أساليب الحصر في هذا السياق يعبر عن حالة الرفض والتكذيب والإنكار بأقصى درجاتها.

٢. ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾: و"الأكنة" جمع "كنان" وهو "الغطاء الذي يكون فيه الشيء"^(٢) أي يستره أو يغلفه. ومعناه: أن قلوبهم مغطاة ومغلقة ومحجوبة عن الحق فلا يخلص الحق إلى قلوبهم، فتبقى قلوبهم مغلقة لا تفهم ما يرد إليها.

٣. ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾: و"الوقر" "الثقل في الأذن"^(٣)، أو "ذهاب السمع كله"^(٤) أي "الصمم الشديد"^(٥) الذي يحول دون هذه الأذان أن تؤدي وظيفتها في السمع"^(٦).

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٢٩، ص (١٩٥).

(٢) المفردات (٤٤٢).

(٣) المفردات ص (٥٢٩).

(٤) القاموس المحيط، ص (٦٣٥).

(٥) الظلال، ج (٧)، ص (١٧٥).

(٦) أنظر التحرير والتنوير، ج ٧، ص ١٧٨-١٧٩.

٤. ﴿إِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾: هذه الجملة نتيجة لما على

قلوبهم من أعطية ولما في أذانهم من صم شديد. وعليه فمن الطبيعي بعد ذلك أن يحيدوا عن الحق وأن يروا كل آية ولا يؤمنوا بها.

وجعل الأكنة على قلوبهم، والوقر في أذانهم كان بسبب استكبارهم وتعاليتهم على آيات الله فانطبق عليهم قوله تعالى: ﴿لَسَاءَ صَرَفَ عَنْ

آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ. وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا

يُؤْمِنُوا بِهَا. وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا. وَإِنْ يَرَوْا

سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَكَانُوا

عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف، ١٤٦). وهذا يعني أن آيات الله كانت

معروضة عليهم ليؤمنوا، وكانوا مكلفين بخطاب الإيمان إلا أنهم

استكبروا وتعالوا فجعل الله الأكنة على قلوبهم والوقر في أذانهم.

٥. ﴿لَحْنِي إِذَا جَاؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾: وفي معنى هذه الجملة أقوال عدة

يمكن أن تحتلها هذه الجملة وهي:

الأول: "إنهم أرادوا أن يظهروا لقومهم أنهم أكفيا لهذه المجادلة" (١)

وقادرون على ردها وتكذيبها والتشكيك فيها.

الثاني: "إنهم حين يجيئون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لا يجيئون

مفتوحين الأعين والأذان والقلوب ليتدبروا ما يقوله لهم تدبر الباحث

عن الحق؛ ولكن ليجادلوا ويتلمسوا أسباب الرد والتكذيب" (٢).

الثالث: إن مجيئهم للمجادلة كان بسبب استماعهم دون فهم ولوجود الأكنة

على قلوبهم والوقر في أذانهم.

الرابع: إن مجادلتهم للرسول صلى الله عليه وسلم كانت مستمرة بدلالة الفعل

المضارع "يجادلونك" ويلحظ من ارتباط سادة قريش بالمجادلة دون

(١) التحرير والتنوير، ج ٧، ص ١٧٨-١٧٩.

(٢) في ظلال القرآن، ج ٧، ص ١٧٦-١٧٧.

غيرهم إصرار على المعاندة والمكابرة والإنكار نظرا لمكانتهم من قريش وقوتهم.

٦. وفي قوله تعالى: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: يقول الطاهر بن عاشور^(١) في وصفهم هذا: "لزيادة التسجيل عليهم بالكفر، وأنهم ما جاءوا طالبين الحق كما يدعون، ولكنهم قد دخلوا بالكفر وخرجوا به فيقولون: "إن هذا إلا أساطير الأولين"، فهم قد عدلوا عن الجدل إلى المباينة والمكابرة".

يلحظ من جزئيات هذا السياق أننا أمام حالة شديدة من الإنكار والتكذيب يتطلب معها أسلوب حصر يعبر عن هذه الحالة بدقة. فتجيء جملة الحصر "إن هذا إلا أساطير الأولين" بأكد أساليب الحصر. والمحصور هنا اسم الإشارة "هذا" العائد إلى القرآن الكريم والمحصور فيه "أساطير الأولين".

والأساطير: "جمع أسطورة نحو أرجوحة وأراجيح وأحدوثة وأحاديث"^(٢)، ومعناها: "فكانهم قالوا: إن هذا الكلام من جنس سائر الحكايا المكتوبة، والقصص المذكورة للأولين، وإذا كان هذا من جنس تلك الكتب المشتملة على حكايات الأولين وأقاصيص الأقدمين لم يكن معجزا خارقا للعادة"^(٣)، "وهم كانوا يعلمون جيدا أن هذا القرآن ليس بأساطير الأولين، ولكنهم إنما كانوا يجادلون ويبحثون عن أسباب الرد والتكذيب، ويتلمسون أوجه الشبهات البعيدة وكانوا يجدون فيما يتلى عليهم من القرآن قصصا من الرسل وأقوامهم؛ وعن مصارع المكذبين. فمن باب التمثل والتماس أوهى

(١) التحرير والتنوير، ج ٧، ص ١٨٠-١٨١.

(٢) المفردات، ص (٢٣٢).

(٣) التفسير الكبير، ج (١٢)، (١٩٨).

الأسباب، قالوا عن هذا القصص وعن القرآن كله: ﴿لَإِنْ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^(١).

"وإمعانا في صرف الناس عن الاستماع لهذا القرآن، وتثبيت هذه الفرية . إن هذا القرآن **إِنْ هُوَ إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** . كان النضر بن الحارث، وهو يحفظ أساطير فارسية عن رستم وإسفنديار من أبطال الفرس الأسطوريين، يجلس مجلسا قريبا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتلو القرآن. فيقول للناس: إن كان محمد يقص أساطير الأولين، فعندي منها! ثم يروح يقص عليهم مما عنده من الأساطير ليصرفهم عن الاستماع إلى القرآن الكريم"^(٢).

بعد تحليل السياق الذي وردت فيه جملة الحصر **﴿لَإِنْ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ...﴾** وبيان دقة المكان الذي تتموضع فيه. ننتقل إلى جملة الحصر **﴿لَمَّا هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ...﴾** ونضعها في سياقها القرآني الكريم على النحو الآتي: قال تعالى: **﴿وَالَّذِي قَالَ لُؤَالِدٍ: أَفْ لَكُمْ، أَنْتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي؟ وَهَما يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ، وَيْلَكَ، أَمْنَ، إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقَّ فَيَقُولُ: مَا هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾** (الأحقاف، ١٧).

يلحظ من جزئيات هذا السياق أن درجة التكذيب والإنكار فيه أقل شدة منها في السياق الأول وذلك لأن صفات المكذبين (وهم رؤوس الكفر من سادة قريش) في كل جزئية من جزئيات السياق الأول كانت أشد درجة في التكذيب والإنكار من صفات المكذب في السياق الثاني.

وهذا يعني أن المكذب وهو "الابن" في السياق الثاني لم يكن فسي حالة كفر شبيهة بتلك الحالة التي وصف بها سادة قريش. ومما يدل على أن

(١) في ظلال القرآن، ج ٧، ص (١٧٧).

(٢) المصدر السابق نفسه، ج ٧، ص ١٧٧.

درجة الإنكار والتكذيب في السياق الثاني أقل شدة منها في السياق الأول
الآتي:

١. قول المكذب "الابن" لو الدية: "أف لكما": و "أف": اسم فعل بمعنى
"أضجر" وهو هنا مستعمل كناية عن أقل الأذى. فيكون الذين يؤذون
والديه بأكثر من هذا أو غل في العقوق الشنيع..^(١)

ويرى الباحث أن استهلال قول "الابن" بـ "أف" ردا على والده يدل
بوضوح على أن الابن في حالة إنكار لهما، ولكنها ليست شديدة. إذ لو
كان في حالة إنكار شديدة لتمادى في العقوق الشنيع، إذ لسخر أو استهزا
بهما أو لشمتهما أو لضربهما أو لقتلهما.. وكون قصارى قوله "أف" ردا
على والده يدل على أن "الابن" ما يزال يحب والده ويودهما. وذلك لأن
علاقة الأبوة أقوى من أية علاقة أخرى، ولأن قوة علاقة الأبوة لا
تقتضي الإنكار الشديد لهما. وإنما تقتضي التلطف بالرد عليهما.
والداه اللذان يدعوانه للإيمان لم يواجها بالرفض المطلق لدعوتهما من
ابنهما.

٢. "أتعداني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي؟" هذه الجملة توضح لنا
السبب الذي جعل "الابن" يقول لو الدية "أف لكما"، وتوضح لنا أيضا حالة
الإنكار التي يعيشها "الابن".

ففي قوله "أتعداني أن أخرج" استفهام الغرض منه الإنكار والتعجب،
والمقصود بالإخراج البعث بعد الموت. وجعلت جملة الحال وهي "وقد
خلت القرون من قبلي" قيداً لمنتهى الإنكار، أي كيف يكون ذلك في حال
مضي القرون والقرون: جمع قرن "وهو القوم المقترنون في زمن
واحد". ومعناه: الأمم السابقة، و "القرن مئة سنة"^(٢).

(١) التحرير والتنوير، ج ٢٦، ص (٣٨).

(٢) المعجم الوسيط، ج ٢، ص (٧٣١).

إذا كانت هذه الجملة توضح لنا السبب الذي جعل "الابن" يقول
لوالديه "أف لكما"، وتوضح لنا حالة الإنكار التي يعيشها "الابن"؛ فهل هذا
السبب منطقي لقوله ذلك؟ وحالة الإنكار هذه : هل هي مبنية على علم
راسخ الثبوت عنده أم عن جهل مطبق وسوء فهم ؟

وللإجابة عن ذلك يقول الطاهر^(١) بن عاشور : "والمعنى : أنه أحال
أن يخرج هو من الأرض بعد الموت، وقد مضت أمم كثيرة وطال عليها
الزمن فلم يخرج منهم أحد. وهذا من سوء فهمه في معنى البعث أو من
المغالطة في الاحتجاج لأن وعد البعث لم يؤقت بزمن معين ولا أنه يقع في
هذا العالم".

واضح أن حالة الإنكار التي يعيشها "الابن" في السياق الثاني مبنية
على جهل مطبق وسوء فهم. وفرق كبير بين المنكر على علم والمنكر على
جهل. فالمنكر على علم كسادة قریش يعلمون حقيقة صدق الدعوة علم
اليقين. فاستكبروا وتعالوا. فجعل الله على قلوبهم الأكنه وفي آذانهم الوقر.
فلن ينتفعوا من استماعهم للدعوة أبداً.

بينما المنكر عن جهل ما تزال هناك بارقة أمل في دعوته وإقناعه
وتصحيح فهمه بإزالة الجهل الذي غشيه نظراً لارتباط إنكاره بالجهل.

٣. ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ، وَيْلَكَ آمَنَ، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ : "ومعنى
﴿يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ يطلبان الغوث من الله، أي يطلبان من الله
الغوث بأن يهديه، فالمعنى: يستغيثان الله له " (٢).

وطلب الاستغاثة من الله سبحانه وتعالى يرسم صورة عاطفة الأبوة
الحارة وهي محلقة في السماء، ومجيؤها بالفعل المضارع يجسد الحب
الأبوي المتصل والحنان المتدفق والحرص الشديد على الابن. فتسأتي
صورة الأبوين حية ملتزمة وكأننا نراهما أمام أعيننا ونحس بهما "وهما

(١) التحرير والتنوير، ج ٢٦، ص (٣٨-٣٩).

(٢) المصدر السابق نفسه .

يستغيثان الله" في صورة مستمرة دائمة متصلة غير منقطعة. فهما لا يكفان عن الاستغاثة من أجل ابنهما.

﴿وَيْلَكَ آمَن﴾: (الويل: الشر. واصل ويلك: ويل لك كما في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ (البقرة)، فلما كثر استعماله وأرادوا اختصاره حذفوا اللام ووصلوا كاف الخطاب بكلمة (ويل)، ونصبوه على نزع الخافض^(١). وكلمة "ويلك" كلمة تهديد وتخويف^(٢). وهو أسلوب تربوي ناجع. نابع من الحرص الشديد على سلامة الابن.

﴿آمَن﴾: يقول الطاهر بن عاشور^(٣): "وفعل ﴿آمَن﴾ منزل منزلة اللازم (أي منزل منزلة الأمر اللازم)، أي اتصف بالإيمان وهو دعوة الإسلام".

﴿إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾: فبعد قولهما له ﴿آمَن﴾ كأننا بين يدي سؤال من الابن لوالديه: لماذا أؤمن؟ ما علة ذلك؟ فيجيبه التعليل للأمر بالإيمان في قولهما له: ﴿إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ يقول الطاهر بن عاشور^(٤): "وجملة ﴿إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ تعليل للأمر بالإيمان وتعريض له بالتهديد من أن يحق عليه وعد الله".

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ، وَيْلَكَ آمَن، إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ هناك ملاحظتان أيضا هما:

الأولى: وكأننا أمام تناقض في موقف الأبوين نحو ابنهما، وإلا فكيف يستغيثان بالله سبحانه وتعالى؟ ثم يردان عليه بقولهما: "ويلك"

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) التحرير والتنوير، ج (٢٦)، ص (٣٩).

(٤) المصدر السابق نفسه.

هذه يرد بها على أشد الكافرين المنكرين وكأن ابنهما في مثل
هذه الحالة

لا تتناقض في هذه العبارة ؛ لأنها تكشف مرة أخرى مدى عاطفة
الأبوة الحارة. "قالاستغاثه والويل" نابعان من عاطفة الحب الشديد للابن.
وبقدر ما يكون الحب قويا شديدا للابن تكون القسوة عليه على أقل خطأ
أشد. فأمر طبيعي أن يدعوا عليه بالويل لأنهما لا يحقدان عليه؛ بل يحقدان
على سلوكه. فهما يريدانه إنسانا أنموذجا مبرأ من العيوب.

الثانية: إن الابن بالرغم من إنكاره لهما كان ما يزال في حالة استماع لهما.
ودليل ذلك عدم وجود الأكنه على قلبه ، والوقر في أذانه ؛ ولأنه لم
يكن جدلا. بينما سادة قريش كانوا ما يزالون في حالة استكبار
واستعلاء . إذ إن مجيئهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن
للاستماع إليه. وإنما كان للمجادلة والمعاندة والمكابرة.

يتضح من تحليل جزئيات السياق الثاني أن درجة الإنكار
والتكذيب فيه أقل شدة منها في السياق الأول، وذلك لأن الصفات التي
تستدعي الإنكار والتكذيب كانت في المكذب في السياق الثاني أقل شدة منها
في المكذبين في السياق الأول. وعلى ذلك فمجيء جملة الحصر "ما هذا إلا
أساطير الأولين" بـ "ما وإلا" يتناسب مع صفات المكذب في السياق الثاني.
وهذا يحدد بدقة المكان الذي تتموضع فيه جملة الحصر.

وبعد هذا التطواف في المقارنة بين أسلوبَي الحصر بـ "إن وإلا" و "ما وإلا" في السياق القرآني يتبين لنا أن أسلوب الحصر بـ "إن وإلا" أكد من أسلوب الحصر بـ "ما وإلا" وأقوى منه، وأن المقام أو المخاطب في أسلوب الحصر بـ "إن وإلا" يكون في حالة إنكار شديدة أشد منها في أسلوب الحصر بـ "ما وإلا".

والسياق القرآني الذي اطرده فيه استعمال أسلوب الحصر بـ "إن وإلا" في حالة الإنكار الشديدة لم يتخلف عنها، ولم يستعمل فيه في مثل هذه الحالة أسلوب الحصر بـ "ما وإلا" مما يدل على خصوصية استعمال أسلوب الحصر بـ "إن وإلا".

وهذا يجيب عن التساؤلات السابقة التي طرحناها في مقدمة هذا الفصل. من أنه لا ترادف بين أسلوبَي الحصر بـ "إن وإلا" و "ما وإلا"، ولا يمكن أن يكون هناك ترادف. فالحرف "إن" لا يمكن أن يحل مكان الحرف "ما" إطلاقاً فلا يوجد تناوب بين الأسلوبين في السياق القرآني. وهذا يبين بكل وضوح دقة استعمال أسلوب الحصر في السياق القرآني.

التعقيب على المقارنة السابقة

رابعاً: بالرغم من أن أسلوب الحصر بـ "إن و إلا" أكد من أسلوب الحصر بـ "ما و إلا" فإن هناك نمطا لأسلوب الحصر بـ "ما و إلا" يؤدي القوة والتأكيد للحكم. يتضح ذلك في التركيب الآتي لهذا النمط:

ما + من (المؤكد أو الاستغرافية) + صفة (نكرة دالة على العموم)

+ إلا + مفرد (موصوف، اسم ذات)

وقد ورد هذا النمط من أسلوب الحصر مؤكداً لمعنى التوحيد في مواضع ثلاثة من القرآن الكريم في قوله تعالى:

أولاً: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ (المائدة، ٧٣)

↓

إله واحد
(نكرة
موصوفة)

↓

من المؤكدة أو
الاستغرافية.
إله صفة
(نكرة دالة
على العموم)

↓

ثانياً: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ (ال عمران، ٦٢)

↓

مفرد : اسم
ذات

↓

المؤكد أو
الاستغرافية.
صفة (نكرة
دالة على
العموم)

↓

ثالثاً: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

↓	↓	↓	↓
بصفتين	مفرد	صفة (نكرة	المؤكدّة أو
	موصوف	دالة على	الاستغراقية.
		العموم)	

والذي جعل أسلوب الحصر بـ "ما وإلا" ضمن هذا النمط يؤدي القوة والتأكيد لمعنى التوحيد انضمام "من" المؤكدة أو الاستغراقية له، وترتيب عناصر التركيب بحيث يخدم المعنى الذي أتت من أجله "من". ويمكن توضيح هذا الترتيب على النحو الآتي:

ما + من + إله
↓

مؤكدّة للنفي ← من ← مستغرقة لجنس

الآلهة في الوجود

يلحظ من مجيء "من" بعد "ما" النافية اكسب "ما" قوة في التأكيد، ومجيء الصفة نكرة دالة على العموم بعدها جعل "من" تستغرق كل الآلهة في الوجود وعلى هذا فـ "من" لها وظيفتان في التركيب:
الأول: تأكيد النفي.

الثاني: استغراق الجنس.

وهذا يعني أن إضافة "من" لأسلوب الحصر بـ "ما وإلا" هو السبب الرئيس في تأدية القوة والتأكيد لمعنى التوحيد.
ثانياً: مجيء "الصفة" إله، في الجمل الثلاث نكرة دالة على العموم حتى تمهد لـ "من" استغراق الجنس.

ثالثاً: مجيء المقصور عليه "موصوفاً" اسم ذات، وذلك لتحقيق معنى الوحدانية لله سبحانه وتعالى. فأيات التوحيد كلها الواردة في القرآن

الكريم هي من باب قصر الصفة على الموصوف. إذ يتعذر تحقق التوحيد في قصر الموصوف على الصفة.

ولبيان قوة التأكيد للحكم الذي يؤديه أسلوب الحصر بـ "ما وإلا" ضمن هذا النمط. نأتي إلى تحليله ضمن السياقات التي ورد فيها على النحو الآتي:

السياق الأول: قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ. وَقَالَ الْمَسِيحُ: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ. إِنَّهُ مَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ. لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة، ٧٢، ٧٣).

السياق الثاني: قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ. وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران، ٦٢).

السياق الثالث: قال تعالى: ﴿قُلْ: إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (ص، ٦٥).

وسأخذ الباحث السياق الأول كمحور للمقارنة بينه وبين السياقين الثاني والثالث. والسياق الأول يتناول قضية تعدد الآلهة عند النصاري، ويبين أن أصل هذه الشركة إنما أتت من اعتبار سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام إلها. بما كان يجريه الله سبحانه وتعالى على يديه من خوارق للعادات فقالوا (أي النصاري): "قد علمنا خروج هذه الأمور عن مقدور البشر، فينبغي أن يكون المقتدر عليها موصوفا بالآلهية"^(١) ثم إنهم بعد ذلك اعتبروه ابن الله تعالى: ﴿... وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾.

(١) الجامع لأحكام القرآن، ج ٥، ص (٣٨٤).

لذا تناول هذا السياق أصل الشركة المتمثلة بقولهم: إن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام إله. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ثم أتى في السياق نفسه إلى ما انبثق عن ذلك الأصل من شركة وتعدد في الآلهة ليستقر في ثلاثة آلهة عند النصارى وهو معتقدتهم الرسمي. وفيه قولان^(١) عندهم:

الأول: يقولون: إن الآلهة مشتركة بين الله سبحانه وتعالى، وسيدنا عيسى وأمه السيدة مريم عليهما السلام.

والثاني: إن الله جوهر واحد ثلاثة أقانيم^(٢): إقنوم الأب، وإقنوم الابن، وإقنوم روح القدس وهذه الثلاثة إله واحد.

قال تعالى في الرد عليهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ، وَمَا مِنْ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة، ٧٣).

ولقد صور الله سبحانه وتعالى لنا مشهداً مهولاً للشرك. فقال جل من قائل: ﴿وَقَالُوا: اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا، أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا، وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (مريم، ٨٨-٩٢).

توضح هذه الآيات الكريمة أن الشرك بالله سبحانه وتعالى سبب كاف لخراب الكون وفساده، وفي المقابل فإن التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى لهو السبب الرئيس لصلاح الكون وعمارته.

(١) انظر جامع البيان عن تأويل أي القرآن ج ٦، ص (٤٢٢-٤٢٣)، والتفسير الكبير، ج ١٢، ص (٢٦٤)، والجامع لأحكام القرآن، ج ٦، ص (١٨٥)، والبحر المحيط ج ٣، ص (٥٤٤)، وتفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص (٨٤) وتفسير أبي السعود، ج ٣، ص (٦٦).

(٢) أقانيم جمع إقنوم: "وهو الجوهر، والشخص، والأصل. ويستعمل عند المسيحيين العرب للدلالة على الثالوث الأقدس، انظر المعجم الوسيط، ج (١)، ص (٢٢).

وهنا لو قابلنا مقدمة الآية الأولى بمقدمة الآية الثانية في السياق

الأول على النحو الآتي:

- ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ...﴾.

- و ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ

وَاحِدٌ﴾.

نجد في الآية الثانية أنها متبوعة بجملة الحصر ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ للرد على إشراك الذين كفروا. بينما لا نجد مثل جملة الحصر تلك في الآية الأولى للرد على إشراك الذين كفروا. والسبب في ذلك أن تلك المقولة كانت في عهد سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام، وقد تولى هو بالرد عليها، وإعلان حقيقة نفسه أمام الناس إذ قال مخاطباً لهم: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ. إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ. وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (المائدة، ٧٢). يقول أبو السعود^(١) في تفسير قول سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام هذا: "إنني عبد مريبوب مثلكم فاعبدوا خالقي وخالقكم ...".

والذين قالوا تلك الفرية كذبوا المسيح عليه الصلاة والسلام، فأنكروا ما جاء به، وكفروا به وأشركوا بالله مع أنه حذرهم من الشرك. إلا أنهم لم يرتدعوا، ولم ينزجروا بل أصروا على كفرهم وشركهم بالرغم من أن الله عز وجل جعل أعظم أنواع الوعيد والتهديد لمن يشرك به.

أما جملة الحصر في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾

ففيها إثبات ونفي، إثبات الألوهية لآله واحد، ونفي الألوهية عن الشريكين وهما الاثنان الآخران. وعلى ذلك فقد تم حصر صفة الألوهية في موصوف واحد بالوحدانية حصراً إضافياً بإفراد واحد من الثلاثة ونفي الشريكين وهما

(١) تفسير أبي السعود، ج ٣، ص ٦٦.

الاثنان الآخران ويلحظ هنا أن النفي قد توجه إلى شيء معين في معتقد المخاطب.

والمفسرين في معنى جملة الحصر في قوله تعالى: **وَمَا مِنْ إِلَه**

إِلَّا إِلَه وَاحِدٌ جملة من الأقوال جديرة بالذكر:

الزمخشري: إذ يقول^(١): "والمعنى: وما إله قط في الوجود إلا إله موصوف بالوحدانية، لا ثاني له، وهو الله وحده لا شريك له".

ويقول أبو حيان الأندلسي^(٢): "ومعناه لا يكون إله في الوجود إلا متصفا بالوحدانية، وأكد ذلك بزيادة "من" الاستغراقية، وحصر الهيئة في صفة الوحدانية".

ويقول أبو السعود^(٣): "أي والحال أنه ليس في الوجود ذات واجب مستحق للعبادة من حيث إنه مبدأ جميع المخلوقات إلا إله موصوف بالوحدانية متعال عن قبول الشراكة، ومن مزية للاستغراق.

وهنا نأتي إلى المقارنة بين جملة الحصر "وَمَا مِنْ إِلَه إِلَّا إِلَه وَاحِدٌ" في السياق الأول وبين جملة الحصر "وَمَا مِنْ إِلَه إِلَّا اللَّهُ" في السياق الثاني، وجملة الحصر في السياق الثالث "وَمَا مِنْ إِلَه إِلَّا اللَّهُ" بزيادة الواحد القهار وهنا نتساءل هل يمكن تبادل المواقع بين جملتي الحصر "وَمَا مِنْ إِلَه إِلَّا إِلَه وَاحِدٌ" و "وَمَا مِنْ إِلَه إِلَّا اللَّهُ" بحيث تحل إحداها محل الأخرى سيما وإن كلا الجملتين جاءت للرد على الشراكة وإثبات الوحدانية؟

للإجابة عن ذلك نرى عند ربط جملة الحصر "وَمَا مِنْ إِلَه إِلَّا اللَّهُ"

بسياقها القرآني في سورة (آل عمران) أنها أتت للرد على مطلق الشرك دون تحديده بثلاثة كما في السياق الأول، أو لعلها أتت لنقض وجود إلهين اثنين معاً. وذلك لأن النصارى يشركون سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام

(١) الكشاف، ج ١، ص (٦٥٠).

(٢) البحر المحيط، ج ٣، ص (٥٤٤).

(٣) تفسير أبو السعود، ج ٣، ص (٦٦).

في الألوهية مع الله وقد سبق جملة الحصر الحديث عن نقض ألوهيته بطريقة علمية بسيطة بعيدة عن عقد النصارى بقوله تعالى: ﴿لَنْ يَكُن مِثْلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خُلِقَ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران، ٥٩).

أما السياق الثالث في سورة (ص) فنجد أن جملة الحصر ﴿لَوْ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أتت للرد على مطلق الشرك دون تحديده بثلاثة أيضا أو لعلها أتت للرد على معتقد العرب في الجاهلية لتعدد الآلهة، وكثرتها عندهم كما يتضح ذلك في مقدمة سورة "ص" في قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ (ص، ٤٠).

يلحظ من جملة الحصر ﴿لَوْ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ في كلا الموضعين أنها أتت للرد على مطلق الشرك سواء كان اثنييا أو الهة كثيرة. أما في جملة الحصر ﴿لَوْ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ فنجد أن الأمر مختلف تماما. فجملة الحصر لم تأت للرد على إلهين اثنين أو الهة كثيرة، وإنما أتت للرد على معتقد النصارى المحدد بثلاثة الهة.

ثم إن هناك فرقا واضحا بين جملتي الحصر من حيث المحصور فيه. فالمحصور فيه في جملة الحصر هنا "إله واحد" بينما المحصور فيه في جملة الحصر تلك لفظ الجلالة "الله" وهنا لو استبدلنا المحصور فيه لفظ الجلالة "الله" بـ "إله واحد" في جملة الحصر بحيث تصبح الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ...﴾

لذهب المقصود من جملة الحصر هذه هنا؛ وذلك لأن المخاطب لا ينكر هنا إطلاقا قصر الألوهية على الله سبحانه وتعالى. إذ إن النصارى مع إشراكهم بالله سبحانه وتعالى يقولون: إن الله واحد. وهذه كبرى عقدهم. فهم يقولون: "إن الذين يشهدون في السماء ثلاثة: الأب، والكلمة، والروح القدس،

وهؤلاء الثلاثة هم واحد^(١). وضمن هذا السياق لو قلنا للنصارى: "وما من إله إلا الله" في سياق تلك الآية: "لقد كفر الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة ... لقلوا لنا: هذا صحيح، ولا يتعارض مع عقيدتنا، لأن الله الواحد ما هو إلا ثالث ثلاثة. كما يدعون ظانين أنهم بريئون من الشرك. لذا أتت الآية لتكفرهم بقوله تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة ...﴾. ولما كان الأمر كذلك أراد الله سبحانه وتعالى بأسلوب الحصر أن يفرد واحدا من الثلاثة المثلثين، وهم كما يقولون: ثلاثة في واحد. والثلاثة هم: الله سبحانه وتعالى أو كما يسمونه الأب، وسيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام ويسمونه الابن، والسيدة مريم عليها السلام أو ما يسمى بالروح القدس.

فتم إفراد واحد من الثلاثة بقوله تعالى: ﴿إله واحد﴾ لتصبح جملة الحصر ﴿لوما من إله إلا إله واحد﴾ ردا على معتقد النصارى بالثلاثة -فأثبت الله سبحانه وتعالى إلهها واحدا متصفا بالوحدانية ونفى الشريكين وهما الاثنان الآخران ولم يقل بلفظ الجلالة "الله" هنا فدل عليه بقوله ﴿إله واحد﴾ بأسلوب الحصر، ولما انتفى الاثنان الآخران بقي هو وحده سبحانه وتعالى. وهذا يظهر بوضوح دقة أسلوب الحصر في التعبير. كما أن هناك معنى آخر يمكن أن يلحظ من جملة الحصر في قوله تعالى: ﴿لوما من إله إلا إله واحد﴾ وذلك بالنظر إلى المحصور فيه -أيضا- الذي أتى بلفظ ﴿إله واحد﴾ ولم يأت بلفظ الجلالة "الله" فللمحصور فيه "إله واحد" نكرة موصوفة، وهذا المعنى ضمن جملة الحصر له دلالة كبيرة. فهو يدل على معنى أو مبدأ عام في الوجود مطرد. إذ إن مبدأ وجود ثلاثة آلهة مرفوض عقليا ومنطقيا. إذ يستحيل أن يكون هناك ثلاثة شركاء متفقون ...! والنصارى لما أدركوا ذلك هربوا من هذا المأزق.

(١) المسيحية، د. أحمد شلبي، ص (١٤٠) نقلا عن رسالة يوحنا الأولى، ص (٧٠٥).

فقالوا: هم ثلاثة في واحد ...! فزادوا الطين بلة .. فكيف يمكن أن يكون الثلاثة واحدا؟ وبتعبير رياضي كيف يمكن أن يكون $1+1+1 = 1$ ، أو $1=3$ ؟

وفي هذا الصدد يقول ابن كثير رحمه الله^(١): "والنصارى من جهلهم ليس لهم ضابط، ولا لكفرهم حد بل أقو الهم وضلالهم منتشر .. ثم يقول: "ولو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا عن أحد عشر قولا". مما يدل على صعوبة معتقدتهم وعدم سهولته وبساطته. وتعارضه مع عقل الإنسان وفطرته. ولما كان الاعتقاد مسألة اختيارية فالعقل و الفطرة لا يختاران إلا إلها واحدا.

وهنا يطرح التساؤل الآتي: ما الفرق بين آيتي التوحيد الآتيتين:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (آل عمران، ٦٢)

و ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (الصفات، ٣٢).

لنأخذ آيات التوحيد المسبوقة بـ "لا" النافية. ففي القرآن الكريم

وردت "لا" النافية (٣٧) مرة ضمن الأنماط الآتية في قوله تعالى:

- ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (الصفات، ٣٢).

- ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ (النمل، ٢).

- ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ (الأنبياء، ٨٧).

- ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ (البقرة، ١٦٣).

- ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ...﴾ (يونس، ٩٠).

أما آيات التوحيد كلها المسبوقة بـ "لا" النافية فإنها تفيد تحقيق

قصر الألوهية على الله سبحانه وتعالى ونفيها عن غيره. فالمقصود

الألوهية والمقصود عليه الذات الإلهية. فالألوهية مقصورة على الله سبحانه

وتعالى قصرا حقيقيا تحقيقيا.

(١) تفسير القرآن العظيم، ص(٦٠٤).

ففي قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ نفي وإثبات. نفي جنس الألوهية في الوجود مطلقا وإثباتها لله سبحانه وتعالى. فلا إله يستحق التأليه غير الله سبحانه وتعالى، والألوهية ثابتة له سبحانه وتعالى مختصة به فلا تتجاوز به إلى غيره.

ويلحظ من آيات التوحيد كلها المسبوقية بـ "لا" النافية أن المقصور عليه أو المحصور فيه كان موصوفا (اسم ذات) ولم يكن صفة. ولو كان صفة لاختل معنى أسلوب الحصر في تحقيقه معنى التوحيد في الآيات الكريمة وهذا يعني أن طبيعة المقصور عليه أو المحصور فيه تحدد بدقة المعنى المراد من أسلوب الحصر.

وكون آيات التوحيد المسبوقية بـ "لا" النافية مقصورة على الذات الإلهية قصرا حقيقيا تحقيقا. فهذا يعني أن المخاطب ليس منكرا لهذه الحقيقة ولا منزلا منزلة المنكر. فالمخاطب ليس في حال ينبغي الرد عليها. والمتكلم -أيضا- لم يقل ذلك للمخاطب، ولم يقل ذلك لنفسه لأنه يشعر أن آيات التوحيد تعبير عما في نفسه أو عن إحساسه العميق بهذا المعنى. فهذا محال قطعا. فمثلا في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يوحىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.

يقول الدكتور محمد أبو موسى^(١): "فليس المخاطب عليه السلام منكرا ولا منزلة المنكر، وهذا واضح، .. كما أن المتكلم ليس عميق الإحساس بالفكرة قوي الشعور بها؛ لأنه سبحانه جل عن ذلك، وإنما النفي والاستثناء هنا لمحض التوكيد وإفراغ الحقيقة في قالب متين موثق، لتقريرها وتوكيدها في النفوس بهذه اللهجة الحاسمة". فالهدف من قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ التأكيد المطلق بأقصى أساليب التأكيد وأقصى أساليب التوكيد أسلوب الحصر. والتأكيد المطلق بأسلوب الحصر ما هو إلا تقرير لكبرى

(١) دلالات التراكيب، د محمد أبو موسى، ص (١٠٥).

حقائق الكون بأسلوب متين موثق. وهذا يعني أننا لسنا بحاجة إلى مخاطب نرد عليه لأن هذه الحقيقة الكبرى مما لا ينبغي أن يناقش فيها أحد لأنها مسألة بديهية. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

والتأكيد المطلق لقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ يعني التقديس للذات الإلهية، والتنزيه، والتسبيح، والأيمان، والعلو والسمو، وصلاح الكون وعمارته، وتطهيره.

أما الشرك فيعني السقوط، وخراب الكون وفساده. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيمُ فِي مَكَانٍ سَمِيْقٍ﴾ (الحج، ٣١). وهذا يعني أن الأصل التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى. والتوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى يجعل صاحبه يعيش على الدوام في مكان عل. فإذا أشرك بالله سبحانه وتعالى سقط من السماء! "فأهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية. بأن صور حاله بصورة من خر من السماء فاخترطته الطير، فنفرد مزعا في حواصلها، أو عصفت به الريح في بعض المطاوح البعيدة" (١).

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا: أَتُخَذُ اللَّهُ وَلِداً. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَخَطَّوْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً..﴾ (مريم، ٨٨-٩٠). توضح هذه الآية الكريمة أن الشرك بالله سبحانه وتعالى سبب كاف لخراب الكون وفساده، وفي المقابل فإن التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى لهو السبب الرئيس لصلاح الكون وعمارته وارتفاعه وتطهيره.

أما آيات التوحيد المسبوقة بـ "ما" النافية في قوله تعالى:

﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ (آل عمران، ٦٢).

(١) الكشاف، ج ٣، ص (١٥٢).

و ﴿لَوْ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ (المائدة، ٧٣)

و ﴿لَوْ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (ص، ٦٥).

فقد جاءت للرد على المخاطب الذي يرفض حقيقة التوحيد،
ويشرك بالله سبحانه وتعالى ما ليس به علم.

فالفرق بين آيات التوحيد المسبوقه بـ "لا" و المسبوقه بـ "ما"
النافية: أن آيات التوحيد المسبوقه بـ "لا" النافية لم تأت للرد على مخاطب
معين. أما آيات التوحيد المسبوقه بـ "ما" فقد جاءت للرد على مخاطب
معين.

وهنا لو قابلنا قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ بقوله تعالى: ﴿لَوْ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾
من إله إلا الله نجد أن "لا" النافية تقابل "ما" النافية و "من" الاستغراقية
المؤكدّة للنفي مجتمعتين. وهذا يعني أن "لا" النافية أقوى من "ما" النافية
بدليل اجتماعها مع "من" الاستغراقية المؤكدّة في مقابلتها. غير أن "ما" مع
"من" الاستغراقية المؤكدّة فيها معنى إضافي غير التأكيد لمعنى التوحيد كـ
"لا" النافية. وهذا المعنى - كما أشرنا سابقاً - هو الرد على المخاطب الذي
يعتقد الشركه.

وهنا لو حاولنا نزع "من" الاستغراقية المؤكدّة من جمل الحصر
في الآيات الكريمة بحيث تصبح على النحو الآتي:

﴿لَوْ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾

و ﴿لَوْ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾

و ﴿لَوْ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

لوجدنا أن "ما" النافية قد حلت محل "لا" النافية المستغرقة للجنس
بدخولها على نكرة مباشرة. مما يعني أن "ما" النافية تساوي "لا" النافية
للجنس في الوظيفة فهل هي كذلك؟

ينص ابن هشام^(١) في المغني على أن: "ما" النافية يندر تركيبها مع النكرة تشبيها لها بـ "لا".

وهذا يعني أن دخول "ما" النافية على نكرة مباشرة فيه ضعف لندرته، ولأن "ما" النافية مفتقرة إلى استغراق الجنس وحدها دون قرينه كـ "من" الاستغراقية. بينما "لا" النافية للجنس فهي مختصة بالدخول على النكرة وحدها مباشرة وليست مختصة بالدخول على المعرفة.

وعلى هذا فتركيب ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أقوى من تركيب "ما إليه إلا الله". وما ذكر "بأن" "ما" النافية تدخل على المعرفة والنكرة جميعا. كقولك: ما زيد منطلقا، وما أحد أفضل منك فذلك عندما تكون "ما" النافية مشبهة بليس^(٢).

ولو تتبعنا في القرآن الكريم الآيات التي دخلت "ما" النافية عليها ضمن أسلوب الحصر نجد أنها مسبوقة دائما بـ "من" الاستغراقية المؤكدة في قوله تعالى:

﴿لَوْ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾
(الأنعام، ٣٨)

﴿لَوْ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرُّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا﴾
كل في كتاب مبین ﴿ (هود، ٦)

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخُذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾
(هود، ٥٦)

﴿لَوْ مَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (النمل، ٧٥).

وهنا يطرح التساؤل الآتي: لما كان أسلوب الحصر بـ "إن وإلا، أكد من أسلوب الحصر بـ "ما وإلا" لم لم تسأ آيات التوحيد بأسلوب

(١) مغني اللبيب، ص (٣٩٩).

(٢) شرح المفصل، ج (١)، ص (١٠٨).

الحصر على سبيل المثال: ﴿وَإِنْ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ بإضافة "من" الاستغراقية المؤكدة ؟

للإجابة عن ذلك نبحث عن "إن" النافية مقترنة بـ "من" الاستغراقية المؤكدة ضمن أسلوب الحصر في القرآن الكريم ثم نقوم بتحليلها. فقد وردت "إن" النافية مقترنة بـ "من" الاستغراقية ضمن أسلوب الحصر في القرآن الكريم في خمسة مواضع في قوله تعالى:

- ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ (الحجر، ٢١)
- ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا بِسَبِّحٍ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء، ٤٤)
- ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (الإسراء، ٥٨)
- ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ (مريم، ٧١)
- ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر، ٢٤).

يلحظ من هذه الآيات أن القصر من باب قصر "الموصوف على الصفة". فالمقصود (الموصوف) في الآية الأولى: "كل شيء"، والآية الثانية "كل شيء" أيضا، والآية الثالثة: "كل قرية"، والآية الرابعة: ضمير المخاطب الجمعي بمعنى: "كلكم"، والآية الخامسة: "كل أمة". بينما المقصود عليه (الصفة) في الآية الأولى: وجود الخزان، وفي الآية الثانية: التسبيح بحمده، والآية الثالثة: إهلاكها أو عذابها، والآية الرابعة: ورود الصراط، والآية الخامسة: وجود النذارة.

نستنتج من ذلك أن "إن" النافية متى اقترنت بـ "من" الاستغراقية المؤكدة ضمن أسلوب الحصر كان الحصر من باب قصر الموصوف على الصفة". وقصر الموصوف على الصفة لا يؤدي معنى التوحيد، فيما لو أتى بأسلوب الحصر بـ (ان والـ). ولما كانت "إن" النافية المقترنة بـ "من" الاستغراقية تدخل على "الموصوف" دون الصفة. فقولنا: ﴿وَإِنْ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا

الله " غير مستقيم من حيث المعنى لدخول "إن" النافية و "من" الاستغرافية على "صفة".

وهذا يؤكد ما قررناه سابقا من أن جملة الحصر **﴿لوما من إله إلا إله واحد﴾** (المائدة، ٧٢) تؤدي القوة والتأكيد للحكم. بحيث لا تؤديه أي من الأساليب الأخرى . مما يجعل هذا الأسلوب فريدا في موقعه ،ودقيقا ودليل ذلك التعقيب على جملة الحصر مباشرة بقوله تعالى: **﴿... وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾** (المائدة، ٧٣).

المبحث الثاني

المبحث الثاني: ويقوم على الكشف عن دقة موقعية أسلوب الحصر بأداة الحصر "إنما" بالنظر إلى الأساليب الأخرى من خلال تحليل نماذج مختارة من القرآن الكريم. والأمثلة المعدة للدراسة هي النماذج الآتية:

النموذج الأول: آيات التوحيد التي وردت في القرآن الكريم بأداة الحصر "إنما" و"إنما" التي جاءت على الأنماط الآتية:

﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْإِلَهِ وَاحِدٌ﴾ (النساء، ١٧١)

﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ الْوَاحِدُ﴾ (النحل، ٥١)

﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ وَاحِدٌ﴾ (الكهف، ١١٠) و (فصلت، ٦)

﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ وَاحِدٌ﴾ (طه، ٩٨)

النموذج الثاني: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (البقرة، ١١)

النموذج الثالث: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (هود، ١٢)

يقوم الباحث بدراسة هذه النماذج من خلال السياق القرآني، وأسباب نزول هذه الآيات، ومن حيث المخاطب والمتكلم، ومن حيث المقصور والمقصور عليه، ومن حيث محاولة المقارنة بينها وبين أساليب الحصر الأخرى.

الأنموذج الأول

لنقرأ آيات التوحيد التي وردت في القرآن الكريم بأداة الحصر

"إنما" أو "أما". قال تعالى: ﴿لَا تَقُولُوا: ثَلَاثَةٌ خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا

اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ (النساء، ١٧١)

﴿قُلْ: إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام، ١٩)

﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرَ أُولُو

الْأَلْبَابِ﴾ (إبراهيم، ٥٢)

﴿وَقَالَ اللَّهُ: لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ (النحل، ٥١)

﴿قُلْ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَوْمِ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾

(الكهف، ١١٠) و (فصلت، ٦)

﴿قُلْ: أَنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَوْمِ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

(الأنبياء، ١٠٨)

﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْكَوْمِ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (طه، ٩٨).

ويمكن القول إن آيات التوحيد التي وردت بأداة الحصر "إنما" و

"أما" قد جاءت على الأنماط التالية:

﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾

﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾

﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْكَوْمِ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾

﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْكَوْمِ اللَّهُ﴾

وهنا لو قابلنا هذه الآيات بآيات التوحيد التي وردت بأداة الحصر

"إلا" المسبوقة بـ "لا" النافية التي جاءت في القرآن الكريم على الأنماط

التالية:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (الصفات، ٣٢)

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ (النحل، ٢)

﴿إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ (الأنبياء، ٨٧)

﴿إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ (البقرة، ١٦٣)

﴿إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ..﴾ (يونس، ٩٠).

وكذلك لو قابلنا تلك الآيات بآيات التوحيد التي وردت بأداة الحصر "إلا" المسبوقة بـ "ما" النافية التي جاءت في القرآن الكريم على النمطين الآتيين:

﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ (آل عمران، ٦٢)

﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (المائدة، ٧٣)

يلحظ من هذه المقابلات أن هناك فرقا بين أساليب الحصر السابقة يتمثل في أن آيات التوحيد بأسلوب الحصر "إنما" كانت من بابين:

الأول: قصر الموصوف على الصفة: وقد جاءت في سبعة مواضع تمثلها الأنماط الآتية:

﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾

﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾

أي أن "الموصوف" جاء "اسم ذات هو لفظ الجلالة "الله" أو الضمير الدال عليه، والصفة جاءت نكرة موصوفة "إله واحد".

الثاني: قصر الصفة على الموصوف: وقد جاءت في موضع واحد على نمط واحد على النحو الآتي:

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ﴾

أما آيات التوحيد التي وردت بأسلوب الحصر "إلا" سواء كانت بـ
"لا وإلا" أو بـ "ما وإلا" فقد كانت من باب واحد وهو قصر "الصفة على
الموصوف".

وهذا يعني أن "المقصود عليه" في كلا الأسلوبين؛ أسلوب الحصر
بـ "إنما" و "أنما"، وأسلوب الحصر بـ "إلا" قد اختلف بينهما وتغير، وهذا
التغيير له أهمية كبرى في تحديد المعنى ودقته.

ففي قوله تعالى:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾

﴿لَوْ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾

﴿لَوْ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾

انحصر مجيء "المقصود عليه" في جمل الحصر هذه
بـ "الموصوف" لفظ الجلالة "الله" أو الإله الواحد، ولو تغير موقع "المقصود
عليه" في جمل الحصر هذه لاختل معنى التوحيد. وهذا يعني أن أسلوب
الحصر بـ "إلا" مختص اختصاصا تاما بقصر "الصفة على الموصوف"
وذلك لتأدية معنى التوحيد.

أما أسلوب الحصر بـ "إنما" و "أنما" فقد تنوع في تأدية معنى
التوحيد إذ جاء -كما ذكرنا سابقا- من بابين:

الأول: قصر الموصوف على الصفة وقد جاء في سبع مواضع.

الثاني: قصر الصفة على الموصوف وقد جاء في موضع واحد.

وكون المواضع الذي أتى فيها أسلوب الحصر بـ "إنما" و "أنما"
اختص اختصاصا شبه تام بقصر "الموصوف على الصفة" أي على العكس
تماما من أسلوب الحصر بـ "إلا". وهذا يعني أن "المقصود عليه" في
أسلوب الحصر بـ "إنما" و "أنما" جاء صفة ومجيء هذه الصفة في المواضع

السبعة "إله واحد" له دلالة كبيرة وهي أن صفة "الوحدانية" لله سبحانه وتعالى هي كبرى حقائق هذا الكون وعليها يقوم صلاحه وعمارته.

وفي صفة الوحدانية في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْوَاحِدُ﴾ يقول سيد قطب: "تشهد بهذا وحده الناموس. ووحدة الخلق. ووحدة الطريقة: كن .. فيكون .. ويشهد بذلك العقل البشري ذاته. فالقضية في حدود إدراكه...".

وهذا يعني أن صفة الوحدانية قضية لا يجهل حقيقتها المخاطب ولا ينكرها. ولكنها بالرغم من ذلك جاءت موثقة مؤكدة بأسلوب الحصر "إنما" و"أما" وذلك لتنبية المخاطب إلى أن حقيقة الوحدانية تتطابق مع الكون. فـ "إله واحد" لا اثنان ولا ثلاثة حقيقة علمية بديهية. ومكان هذه الحقيقة هذا الكون الرحيب فالكون يقف وراءه "إله واحد" لا اثنان ولا ثلاثة. وإن أية التفاتة إلى الكون تثبت هذه الحقيقة البسيطة وتتركها القلوب والعقول بلا عناء. أما الشراكة على الكون بين الهين اثنين أو ثلاثة فهو أمر مرفوض عقلا وفطرة. إذ يستحيل أن يكون هناك ثلاثة آله متفقون...!

فأسلوب الحصر المؤكد للوحدانية هنا يختلف عن الأسلوبين السابقين. فأسلوب الحصر بـ ﴿إِلَهَ إِلَّا إِلَهُ﴾ لم يكن ردا على مخاطب منكر أو منزل منزلة المنكر وإنما كان -كما قلنا- لمطلق التأكيد لأن هذه الحقيقة مستقرة ثابتة.

أما أسلوب الحصر بـ "وما من إله إلا الله" و"ما من إله إلا إله واحد" فقد أتى ردا عنيفا بلهجة حاسمة على المخاطب. وقد تم ذلك في - كما ذكرنا سابقا - بقصر الصفة على الموصوف.

أما أسلوب الحصر بـ "إنما" و"أما" فقد جاء ردا علميا هادئا وهذا الهدوء يتناسب مع العرض العلمي الموضوعي في تقرير الوحدانية بـ "إله واحد" للمخاطب ضمن السياقات التي ورد فيها

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ج ٢ ص ٦١٢

ما أتى من باب قصر "الصفة على الموصوف" في أسلوب الحصر بـ "إنما" فقد أتى في موضع واحد في القرآن الكريم. وذلك في قوله تعالى على لسان سيدنا موسى عليه السلام: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (طه، ٩٨).

هذه الآية الكريمة أتت خاتمة للسياق القرآني الطويل في سورة طه الذي يتحدث عن خبر سيدنا موسى عليه السلام مع بني إسرائيل. وبني إسرائيل تاريخهم أسود قاتم كما يخبرنا القرآن الكريم عنهم فهم: سفاكو الدماء .. وقتلة الأنبياء .. وأكلة الربا .. ليس لهم عهد ولا ميثاق .. منافقون .. نفوسهم مطوية على حقد دفين .. قلوبهم غلف .. قاسية كالحجارة أو أشد قسوة .. لا تعرف الرحمة .. غلاظ الرقبة ..! داء عصي ..! ورم سرطان أسود ..! لا يؤمنون إلا بالمحسوس المادي. وبناء على هذا الطبع وهذه الصبغة فتاريخهم حافل بالكفر والتكذيب والمكر والخديعة، والخبث والغش، والكيد والدس ..

أما سيدنا موسى عليه السلام رسولهم فهو من أولي العزم. وأهم ملامح شخصيته أنه "قوي أمين" وهذه الشخصية القوية معدة إعدادا كاملا ومدربة تدريباً قويا يتضح ذلك في قوله تعالى ﴿وَلَتَنْصُرُنَا عَلَىٰ بَعْضِهَا﴾ (طه،) لمواجهة الظلم المتمثل بشخصيتين اثنتين:

الأولى: شخصية فرعون الذي نصب نفسه إلها يعبد. وسحق الإنسانية سحقاً. وأذلها إذلالاً. وما بناء الأهرامات التي هي أعجوبة الأعاجيب إلا شاهد على ذلك! فمن جرؤ على مواجهة فرعون؟ ومن يخلص الإنسانية منه؟ إنه الرسول القوي الأمين موسى عليه السلام الذي استطاع بفضل الله أن يقضي على فرعون وجنوده قضاء مبرماً ويريح الإنسانية من شره.

الثانية: الشخصية اليهودية المتمثلة بـ "بني إسرائيل" الذين كانوا يهابون سيدنا موسى عليه السلام لقوته بينما نجد سيدنا هارون عليه السلام قد استضعفه بنو إسرائيل وعبدوا العجل عندما غاب عنهم سيدنا

موسى عليه السلام أربعين ليلة ولم يستطع سيدنا هارون عليه السلام ردهم عن ضلالتهم أو أن يفعل شيئا يردهم به عن ضلالتهم كما فعل سيدنا موسى عليه السلام. وهذا يعني أن سيدنا موسى عليه السلام كان أقوى وأشد من أخيه هارون عليه السلام في حراسة العقيدة وحمائتها.

والحديث عن بني إسرائيل وسيدنا موسى عليه السلام بشكل عام يمثل مقدمة مهمة للتعرف إلى موقف كل منهما.

وهنا ننتقل إلى خصوصية هذا السياق فالآية الكريمة أتت مبدوءة بجملة الحصر ﴿لَمَّا إلهكم الله﴾ ردا على بني إسرائيل الذين أضلهم السامري مستغلا غياب سيدنا موسى عليه السلام فعبدوا العجل، واتخذوه إلههم كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجْلاً جِسداً لَهُ خُوار، فقالوا: هذا إلهكم وإله موسى فنسي﴾ (طه، ٨٨).

وبعد أن أتم سيدنا موسى عليه السلام أربعين ليلة رجع إلى قومه وقد علم بضلالتهم. رجع القوي الأمين غضبان أسفا فالتقى الألواح بعنسف، وشد رأس أخيه بعنف أيضا، وهدد السامري بعذاب عاجل وأجل ثم أتى إلى العجل وحرقه ونسفه نسفا. وهنا نقرأ الآية التي حملت هذا المعنى ﴿.. وانظر إلى الهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليوم نسفا﴾ (طه، ٩٧).

يلحظ من هذه الآية أن سيدنا موسى عليه السلام نسب "العجل" إلى السامري بقوله له "إلهك" أي إلهك أنت وحدك. ثم قوله عليه السلام "لنحرقنه" يرى الباحث أن التشديد في الفعل يفيد المبالغة في الحرق ليتناسب ذلك مع غضبه عليه السلام كقوله تعالى على لسان قوم سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿.. قالوا: حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾ (الأنبياء، ٦٨)، وقوله: ﴿لننسفنه في اليوم نسفا﴾ أي لنذرينه في هواء البحر

ونلقينه فيه بعدما يصبح رمادا حتى يذوب في البحر ويذوب ويتلاشى من نفوس بني إسرائيل.

وبعد أن قام سيدنا موسى عليه السلام بهذا الفعل أمام بني إسرائيل رد عليهم بقوله: **«إِنَّمَا إِلَهُ الْكَوْكَبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسَمَّ كُلُّ شَيْءٍ عَلَمًا»** (طه، ٩٨).

هذه الآية الكريمة تذكرنا بموقف سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عندما دخل الكعبة الشريفة يوم فتح مكة وأخرج منها الأصنام وعددها (٣٦٠) صنما. فجعل يحطمها وهو يقول: **«لَوْ قُلَّ جَاءَ الْمَقُّ وَزَهَّقَ الْبَاطِلُ إِنْ الْبَاطِلُ كَانَ زَهُوقًا»** (الإسراء، ٨١).

ووجه الشبه بين الموقفين أن حرق العجل ونسفه وتحطيم الأصنام -آلهة العرب- يحتاج إلى إرادة قوية فولاذية لم تتوافر في سيدنا هارون عليه السلام -كما رأينا- وإنما توافرت في سيدنا موسى عليه السلام وفي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يتضح ذلك في قوله تعالى عنه صلى الله عليه وسلم: "علمه شديد القوى".

وهنا نتساءل لم قام الرسل عليهم الصلاة والسلام بحرق الآلهة وتحطيمها؟ السبب في ذلك: أن عامة الناس ورثوا هذه العبادة وراثية وتلقنوها تلقينا. أو كاليهود غلاظ رقبة! أصحاب عقول بليدة لا تؤمن إلا بالمحسوس المادي.. فهولاء كيف يمكن تصحيح العقيدة لهم بوجود هذا الموروث المضلل؟ أو هذا الإله المادي؟ لذلك فقبل كل شيء يجب إخراج العقيدة الفاسدة من قلوب الناس. ولما كانت العقيدة تتمثل بشيء مادي محسوس كالعجل والأصنام كان أول فعل يقوم به الرسل الكرام هو حرق الآلهة وتحطيم الأصنام. وذلك لأن حرق الآلهة وتحطيمها على أرض الواقع هو تماما حرقها وتحطيمها في قلوب الناس. لماذا؟ لأن الآلهة شيء مادي ومحسوس؛ فإذا تدمرت هذه المادة على الواقع لم يعد ما يذكر بها

فيحصل مكانها في القلوب فراغ فكري مباشرة. وفي هذه الحالة تكون القلوب مهياة لاستقبال العقيدة الجديدة.

وسيدنا موسى عليه السلام بعد أن حرق "العجل" الإله المادي، ونسفه وفتته وأذاب رماده في البحر حرقه أيضا في قلوب بني إسرائيل. وبعد ذلك جاء الرد الحازم الحاسم عليهم على لسانه بقوله تعالى: "إنما إلهكم الله" ثم حصر صفة الألوهية على المقصور عليه لفظ الجلالة "الله" بحيث لا تتجاوز به إلى العجل إله السامري المادي الذي أضل به بني إسرائيل فعبدوه.

لننظر إلى المقصور المتمثل في صفة الألوهية "إلهكم" نجد هنا أن نسبة "إله" إلى ضمير المخاطب "كم" فيه دلالة لها أهميتها في أن هذه النسبة تعني إنه إلههم وهو معلوم علما يقينيا لدى المخاطب بني إسرائيل ولا يرتابون فيه للحظة واحدة. إلا أنهم كعادتهم حمقى وسفهاء يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير... فهم يريدون عجلا بدلا من إلههم الذي لا إله إلا هو .. إن هذه البدلية شيء عجيب غريب... وبالرغم من أنها ليست غريبة على بني إسرائيل إلا أنها مثيرة للاشمئزاز .. وحقا أنهم غلاظ رقبة .. فكيف يستبدل هؤلاء الثرى بالثرى؟ إنهم عطلوا قدرتهم على التقييم بين ما ينفعهم وما يضرهم..

ويمكن تمثيل موقفهم بالطالب الذي استبدل أصدقاء السوء بالكتاب فأضاع جل وقته معهم فتقول له: إنما صديقك الكتاب.

أو كالتالب الذي يتخذ من أصدقاء السوء مرشدا له دون أبيه فتقوله له: إنما مرشدك أبوك.

يلحظ هنا أن المخاطب يعلم علم اليقين أن صديقه الحقيقي ما هو إلا الكتاب، وأن مرشده الحقيقي ما هو إلا أبوه، ولا يشك في ذلك للحظة واحدة. وهنا نتساءل: إذا كان المخاطب يعلم ذلك علم اليقين فلم قلنا له: إنما صديقك الكتاب، وإنما مرشدك أبوك؟ ما الهدف من ذلك؟ الجواب عن ذلك يتضح في أهداف ثلاثة هي:

الأول: التوبيخ والتقريع الشديديان للمخاطب والاستنكار والتعجب منه؛ لأنه عطل قدرته على التقييم والنقد بين ما ينفعه وما يضره، وذلك باختياره ما يضره ولا ينفعه فقولنا للمخاطب: إنما صديقك الكتاب. فيه توبيخ وتقريع شديديان له؛ لأنه يعرف الصداقة الحقيقية ثم يحيد عنها إلى شيء تافه.

الثاني: التعظيم للمقصود عليه المتمثل في "الكتاب" و "الأب" إذ إن هناك مفارقة بعيدة جدا بين "الكتاب" وبين أن يكون صديقه رفيق سوء. وبين أن يكون مرشده أبوه وبين أن يكون مرشده رفيق السوء.

الثالث: رفع قدر المخاطب وإعلاء شأنه. فهناك فرق كبير بين أن يكون صديقه الكتاب. وبين أن يكون مرشده أباه وبين أن يكون مرشده رفيق السوء. وبناء على ذلك فجملة الحصر ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ﴾ التي أتت على لسان سيدنا موسى عليه السلام ردا على بني إسرائيل تحمل ثلاثة معان:

الأول: التوبيخ والتقريع الشديديان والاستنكار والتعجب من فعلتهم. وهذا يتناسب ويتساق مع غضبه عليه السلام فجملة الحصر هنا أتت تقريرا بعد تقريع. التقريع الأول كان "فعلا" تمثل بحرق العجل ونسفه نسفا، والثاني كان "قولا" تمثل بجملة الحصر.

الثاني: التعظيم للمقصود عليه لفظ الجلالة "الله" سبحانه وتعالى. فأين .. أين من يدعون من دونه سبحانه وتعالى ؟..

الثالث: رفع قدر بني إسرائيل وإعلاء شأنهم. فهناك فرق كبير جدا بين أن يكون إلههم الله سبحانه وتعالى وبين أن يكون إلههم عجلا...

لنقرأ الآية مرة ثانية قال تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا

هُوَ وَسَمِ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

نأتي هنا إلى جملة الحصر الثانية المصدرة بالاسم الموصول

﴿.. الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ..﴾ يلحظ هنا أن الاسم الموصول "الذي" قد توسط

جملتي الحصر وربط بينهما. إلا أن له دلالة كبيرة يمكن توضيحها بقول الشاعر^(١):

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم
يلحظ هنا أن المشار إليه باسم الإشارة "هذا" قد اكتسب التعظيم من خلال الاسم الموصول "الذي" إذ إن التعبير به أعطى أهمية كبيرة لجملته الصلة المتمثلة بـ "تعرف البطحاء وطأته" فالاسم الموصول مهد لكلام كبير بعده ولصفة كبيرة أيضا للموصوف.

وهنا لو نزعنا الاسم الموصول من هذا البيت بحيث يصبح: "هذا تعرف البطحاء وطأته" لاختل البيت اختلالا كبيرا، ولما أدى المعنى المراد في نفس الشاعر. وهذا يعني أن البيت يرتكن إلى الاسم الموصول في أداء معناه.

وبناء على ذلك فالاسم الموصول "الذي" توسط جملتي الحصر في الآية الكريمة قد جاء لتعظيم الذات الإلهية المتمثلة بلفظ الجلالة "الله" "المقصود عليه" في جملة الحصر الأولى، وذلك من خلال بيان أهمية الصلة المتمثلة بجملة الحصر الحقيقي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. والذي أكسب الاسم الموصول معنى التعظيم هو جملة الحصر ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. وهذا يعني أن جملة الحصر هذه أنت لتؤكد التعظيم الوارد في جملة الحصر الأولى. ولتجعل المفارقة والمقارنة مع ما يدعيه بنو إسرائيل بعيدة جدا.

وهنا نتساءل لم اختار سيدنا موسى عليه السلام تأكيد جملة

الحصر الأولى بجملة الحصر ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؟

لعل الإجابة عن ذلك تتمثل في قول سيدنا موسى عليه السلام نفسه فيما رواه الحاكم^(٢) في مستدركه عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (على لسان سيدنا موسى عليه

(١) ديوان الفرزدق، ج ٢، ١٧٨.

(٢) المستدرک، ج ٢، ص ٥٢٨.

الصلاة والسلام) : "يا رب، علمني شيئا أذكرك به، وأدعوك به قال قل: لا إله إلا الله، قال: يا رب كل عبادك يقول هذا. قال: قل: لا إله إلا الله، قال: إنما أريد شيئا تخصني به، قال يا موسى، لو أن السموات السبع والأرضين السبع في كفه، ولا إله إلا الله في كفة مالت بهم لا إله إلا الله". وبناء على هذا التعليم الإلهي فسيدينا موسى عليه السلام عندما يريد أن يعظم الله سبحانه وتعالى فلن يجد معنى غير "لا إله إلا الله، يعبر به عن تعظيمه له سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿...وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، يقول الطاهر بن عاشور^(١): "وانتصب علما على أنه تمييز نسبة السعة إلى الله تعالى، فيؤول المعنى: وسع علمه كل شيء بحيث لا يضيق علمه عن شيء، أي لا يقصر عن الاطلاع على أخفى الأشياء، كما أفاده لفظ (كل) المفيد للعموم".

ويرى الباحث أن مجيء قوله تعالى: ﴿...وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ بعد جملة الحصر ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يفيد التعظيم. وهذا يتناسب مع الآية الكريمة. ويمكن تمثيل ذلك على النحو الآتي:

إنما إلهكم الله	الذي	لا إله إلا هو	وسع كل شيء
↓	↓	↓	↓
تفيد التعظيم	يفيد التعظيم	تفيد التعظيم	تفيد التعظيم

والذي جعل الباحث يقول: أن قوله تعالى: ﴿...وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ يفيد التعظيم قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا. رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (غافر، ٧).

(١) التحرير، والتوير، ج ١٦، ص (٣٠١).

ووجه الاستدلال في هذه الآية الكريمة "أن الملائكة عليهم السلام لما عزموا على الدعاء و الاستغفار للمؤمنين بدؤوا بالثناء فقالوا: **«لربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما»**^(١). ويقول الفخر السرازي^(٢): "... إن الملائكة قدموا ذكر الرحمة على العلم، وذلك لأن مطلوبهم إيصال الرحمة". وعلى هذا فالآية الكريمة بمجملها على لسان سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام تفيد التعظيم والثناء والتسبيح.

الأنموذج الثاني

قال تعالى: **«لَوْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا: إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ»** (البقرة، ١١)، (١٢).

جاءت هذه الآية الكريمة حكاية عن اليهود الموسومين بالنفاق. ولتكشف لنا بجلاء ووضوح تامين الاستراتيجية الإعلامية لليهود المبينة على تضخيم الذات ونفخها إلى أقصى ما يمكن أن يتصور. تحقيقا للهيمنة والسيطرة على الرأي العام وتضليله. ويكشف مثل هذه المسألة ويفضحها أسلوب الحصر. وبيان ذلك الآتي:

يقول القرطبي^(٣): "كانت الأرض قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم فيها الفساد، ويفعل فيها المعاصي، فلما بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم ارتفع الفساد وصلحت الأرض. فإذا عملوا بالمعاصي فقد أفسدوا الأرض بعد إصلاحها. كما قال تعالى في آية أخرى **«لَوْ لَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا»** (الأعراف، ٥٦)".

(١) انظر التفسير الكبير، ج (٢٧)، ص (٣٦).

(٢) التفسير الكبير، ج (٢٧)، ص (٣٧).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج ١، ص (١٩٦).

فالأرض كانت صالحة بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم مرتفعاً عنها الفساد، وفي صلاح الأرض، في بياضها الناصع، وفي طهرها، وعفافها يبرز اليهود بقعة دموية سوداء داكنة قادمة من عمق التاريخ. شوهت الأرض. ومزقت ثوب طهرها وعفتها وجمالها وبهائها. وهم اليهود شأنهم الفساد في الأرض. لا يروق لهم صلاحها وبنائها وتعميرها وتطهيرها.

ففي حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أفسدوا في الأرض. فارتكبوا المعاصي.. وبدأ فسادهم واضحاً بينا جلياً لا ينكر..

فاذا قيل لهم: .. لا تفسدوا في الأرض .. لوضوح فسادهم. إذا وجه لهم أمر بالكف عن ارتكاب المعاصي وإفساد الأرض.. فما المتوقع من رد اليهود؟ هل سيترفون بأنهم مفسدون في الأرض؟ هل سيترفون بجرائمهم التي يمارسونها جهاراً نهاراً على الملا؟ أم سيترفون عنها؟ هيهات .. إن اليهود لم يكتفوا بنفي الفساد عن أنفسهم بل

تجاوزوه إلى أبعد ما يمكن أن يلصق بهم مثل هذه التهمة.. فماذا قالوا؟
" .. إنما نحن مصلحون .. بأسلوب الحصر يقول أبو السعود في جملة الحصر هذه: "أي مقصرون على الإصلاح المحض بحيث لا ينبغي أن يرتاب فيه".

فأسلوب القصر أيضاً لم يؤكد أنهم "مصلحون" وحسب، بل جعل الإصلاح أمراً ملتصقاً بهم يعرفون به ويعرف بهم. فهذا مما لا ينبغي أن يرتاب فيه.

واضح أن أسلوب القصر الذي جاء على لسان اليهود ساعدهم في ادعائهم في تأكيد إثبات الإصلاح لهم ونفي تهمة الفساد عنهم. وواضح أيضاً أنه لا يمكن لأي أسلوب من أساليب التأكيد الإحلال مكان أسلوب القصر خدمة لليهود في رد التهمة عنهم.

وواضح أيضا أن استعمال أسلوب الحصر بـ "إلا" لا يمكن أن يخدم اليهود فيما أرادوا له من معنى. فلو قالوا: "إن نحن إلا مصلحون" أو "ما نحن إلا مصلحون" لا يخدم اليهود مثل هذين التركيبين؛ لأن أداة "إلا" في كلا التركيبين لا تؤدي معنى "إنما".

فأداة الحصر "إلا" لا تلقاها إلا في النبرة العالية و النغمة الحاسمة والتعبير الشديد هدفها الرد على المخاطب الذي يعتقد فساد اليهود، فهي تريد قلب معتقد المخاطب المنكر بنفي الفساد بالإصلاح.

فالوعي لقوة أداة الحصر "إلا" في كلا التركيبين لا يلتفت إلا إلى الإنكار فلا يأتي في باله معنى آخر يمكن أن يحويه التركيب. لذا يتوقف عمل أداة الحصر "إلا" عند هذا المعنى مما لا يخدم اليهود.

أما "إنما" فكان موقعها دقيقا جديدا، وخدمت المعنى الذي يريد اليهود له خدمة هائلة. فهي لم تقلب معتقد المخاطب وحسب بل جعلت الحكم الجديد أمرا لا ينبغي لأحد أن يرتاب فيه.

والذي يبين قوة أسلوب الحصر في تأكيد ادعاء اليهود الجملة اللاحقة التي نقضت هذا الأسلوب وكشفت زيف هذا الادعاء بقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُمُ الْمَفْسُودُونَ﴾. ويتضح قوة هذه الجملة في نقض ادعاء

اليهود بالنظر إلى عناصر مكوناتها. فهي تتكون من المؤكدات الآتية:

- المؤكد الأول: ألا: أداة تنبيه تدل على تحقيق ما بعدها^(١).
- المؤكد الثاني: إن: حرف تأكيد، يؤكد ويقرر نسبة المسند للمسند إليه.
- المؤكد الثالث: ضمير الفصل "هم": الذي يفيد القصر أو الحصر. ويرى الرضي الاستربادي^(٢) أنه إذا وليه اسم معرف "بأل" فإنه يدل على القصر أو الحصر. وعلى ذلك فمعنى "هم المفسدون" أنهم مقصرون على الإفساد ومنفيون عن الإصلاح.

(١) مغني اللبيب ابن هشام، ص (٩٥).

(٢) شرح الكافية في النحو: ج ٢، ص (٢٤).

فهناك مؤكدان اثنان إضافة إلى أسلوب قصر "بضمير الفصل" لنقض ادعاء اليهود وكشف زيفه وإبطاله.

وبعد؛ فإذا كان القرآن الكريم استطاع أن ينقض ادعاء اليهود ويبطله ويكشف زيفه - فكيف بنا اليوم في ظل اختلال الموازين أن ننقض ادعاءاتهم؟ وادعاءاتهم متكررة ولديهم قدرة لا توصف على قلب الحقائق - فكما رأينا في الآية الكريمة- كانوا مفسدين فادعوا أنهم مصلحون، وأن صلاحهم مسألة لا يرتاب فيها. وهامهم يدعون أن لهم حقا تاريخيا في فلسطين، ولم يعثر لهم على أية أثر تاريخي ولو بحجم الذرة يؤكد أن لهم حقا كما يدعون. وهامهم أيضا يسمون جيشهم الغازي المتعطش للقتل وسفك الدماء والخراب والتدمير، الذي يتزعمه رؤساء عصابات - يسمونه جيش الدفاع .. ويسمون أيضا المطالبين بحقوقهم مخربين ...!

واليهود في ظل اختلال الموازين قادرون على توجيه الرأي العام العالمي بما يخدم مصالحهم وأطماعهم بحيث يبدون أمام العالم أكثر إقناعا من العرب.

واليهود ضخموا أنفسهم وذواتهم أكثر مما يجب بحيث أصبحوا في عالمنا العربي وكأنهم المتحكمون في العالم وأن ادعاءاتهم وبروتوكولاتهم لا محالة متحققة بشكل مطرد. وكأنها قدر غالب لا يرد وإرادة قاهرة لا تهزم. وما الكيان اليهودي في الحقيقة إلا دويلة كرتونية مصطنعة مرهونة بالإمبريالية العالمية ودول الاستكبار في هذا العالم...

الأنموذج الثالث

ومن الشواهد أيضا قوله تعالى: ﴿فَلْعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يَوْحَىٰ إِلَيْكَ، وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا: لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (هود، ١٢).

وفي نزول هذه الآية الكريمة يروي ابن عباس^(١) رضي الله عنهما: "أن رؤساء مكة قالوا: يا محمد اجعل لنا جبال مكة ذهباً إن كنت رسولاً. وقال آخرون: انتننا بالملائكة يشهدوا بنبوتك. فقال: لا أقدر على ذلك فنزلت فكانه صلى الله عليه وسلم لما عاين اجتراءهم على اقتراح مثل هذه العظائم غير قانعين بالبينات الباهرة التي كانت تضطرهم إلى القبول والاستهزاء وتسميتها سحراً.

مثل حاله صلى الله عليه وسلم يشبه بحال من يتوقع منه أن يضيق بتلاوة تلك الآيات الساطعة فحمل على الحذر منه (أي من ذلك الحال) بما في "لعل" من الإشفاق...".

فهذا هو الرسول صلى الله عليه وسلم الداعي أمام جبال صخرية من الكفر لا تلين أبداً. فما السبيل إلى دعوة هؤلاء؟ كيف يمكن إقناعهم؟ هل هناك إمكانية؟ هل من أمل؟ كيف يمكن أن يسلك الداعي بعدك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مثل هذه الحالة؟

يعرض الله سبحانه وتعالى هذا المشهد الحافل مشفقاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فيا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ستتعرض لرؤوس الكفر .. لرؤوس الأفاعي التي لا تحمل إلا السم الرعاف، وسيعترضونك وسيفغرون عليك أنيابهم الزرقاء.. وسيسلقونك بالأسنة حداد.. ويسألونك لا ليؤمنوا ويسلموا بل ليزيدوك هما وغمما ويأسا ليضطروك على ترك الدعوة بعدها .. فهل ستترك بعض ما أوحى إليك خوفاً من التكذيب والاستهزاء؟ هل ستظهر ما اتفق معهم وتخفي الآخر؟ هل سيضيق صدرك إذا طلبوا منك ما لا تنفقه عليهم كما يفعل الملوك ليتبعهم الناس وأنت منه فقير معدم؟ أم سيضيق صدرك إذا طلبوا منك مجيء ملك يصدقك ويثبت نبوتك ورسالتك؟

(١) تفسير أبي السعود، لبي السعود، ج (٤٠)، ص (١٩١).

أشفق الله سبحانه وتعالى على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم فقال عز من قائل: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ ((ليس عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك غير مبال بما صدر عنهم من الرد أو القبول))^(١) فأنت مقصور على الإنذار فلا تتجاوز به إلى ما يضيق به صدرك من رد وتكذيب واستهزاء. فأسلوب القصر يقول للرسول صلى الله عليه وسلم: لا تحزن ولا تيأس ولا تغتم ولا تكثر ولا تبال بما يصدر عنهم من رد أو قبول .. إنما أنت نذير. وواضح أن في أسلوب القصر هنا معالجة نفسية متقدمة لحال الرسول الإنسان صلى الله عليه وسلم بعد أن تعرض لأزمة نفسية حادة من خلال موقف مشرقي مكة معه.

وتوضيح ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم صاحب قلب كبير .. محب .. معذب .. مؤتمن على كل البشر. وبعد أن بعث نبيا ورسولا لم يعرف للنوم طعما .. ولا للراحة مذاقا .. ففي قلبه الكبير حلم أكبر .. أكبر من آفاق الدنيا .. حلم تعب في مراده الأجسام .. في قلبه هداية البشرية جمعاء.

فهو صاحب رسالة عامة لكل البشر، ويملك معها استعدادا هائلا لدعوة كل البشر ومخاطبتهم جميعا دون استثناء بما يتمتع به من فصاحة وأدلة صارخة على قوة حجته ووضوح رسالته. لذا فلم يدع الرسول صلى الله عليه وسلم أحدا إلى الإسلام ولم يقتنع به؛ فهذا هو الوليد بن المغيرة أحد سادات قريش اقتنع تماما وأيقن بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم إلا أنه الكبير والجحود منعه من الدخول في الإسلام.

وبعد؛ هاهو الرسول صلى الله عليه وسلم قادم ليدعو سادات قريش بما لديه من إمكانات هائلة للدعوة .. وهاهو يصطدم معهم، ويبدل كل إمكاناته في دعوتهم .. وبعد؛ فلقد أسر لهم وأعلن وجهر .. ولكن .. لم تفلح كل وسائله في دعوتهم..

(١) المصدر السابق نفسه، الصفحة نفسها.

لا شك أنها ضربة قوية لقلب المحب .. وأزمة نفسية حادة ..
وخيمة العقبي .. تجعل صاحب الدعوة يشك في نفسه وفي إمكاناته
وقدراته..

ويجيء العلاج النفسي الرباني بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾
لإعادة الروح من جديد في قلب الرسول صلى الله عليه وسلم. فهذه
المعالجة النفسية من شأنها إكساب الرسول صلى الله عليه وسلم عزيمة
أَمْضَى وإصراراً أشد على متابعة الدعوة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ أمر لا يجهله المخاطب
الرسول صلى الله عليه وسلم ولا ينكره فقد صرح به مراراً منه في قوله
تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الحج، ٤٩).
وبعدها يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي فالله
يحفظ أحوالك وأحوالهم فتوكل عليه في جميع أمورك فإنه فاعل بهم ما يليق
بحالهم" (١).

(١) تفسير أبي السعود، أبو السعود، ج(٤)، ص(١٩١).

نتائج البحث

عرض الباحث في الفصول السابقة لأسلوبي الحصر بـ "إلا" و "إنما" عند النحويين والبلاغيين في القرآن الكريم، وخلص الباحث إلى النتائج الآتية:
أولاً: العلاقة بين علم النحو وعلم المعاني علاقة تكاملية، إذ إن فهم علم المعاني يسبقه فهم علم النحو، أو أن فهم المعاني مرتبط بفهم التركيب أولاً. وعلى هذا الأساس يصبح العلمان كالجسد والروح إذ لا يمكن بحال فصل أحدهما عن الآخر فالنحو أو التركيب هو الجسد وعلم المعاني هو الروح الذي يحيي هذا الجسد.

ثانياً: لم يكن فقه التركيب أو فهم معنى التركيب حكراً على البلاغيين وحدهم، فالنحويون درسوه ووقفوا عليه. فسيبويه إمام النحويين درس مفهوم تركيب الحصر، والفراء درس المعاني التي يخرج إليها تركيب الحصر، ثم جاء من بعد ذلك شيخ البلاغة عبدالقاهر الجرجاني وأصل قواعده وكشف عن دقائقه مستنداً إلى أقوال النحويين.

ثالثاً: تحديد مصطلح أسلوب الحصر من أبرز نتائج هذا البحث الطريفة - إذ يتميز هذا الأسلوب بوفرة مصطلحاته. فتتزامن في كتب النحو والبلاغة ثلاثة ألفاظ تدور في هذا الأسلوب وهي:

الأول: الحصر.

الثاني: القصر.

الثالث: الاختصاص.

ولما كان مثل هذا التعدد الاصطلاحي يخلق مشكلة مزعجة لدى الباحثين فإن مقتضيات البحث تستلزم الأخذ بمصطلح واحد من تلك المصطلحات. وقد مال الباحث إلى الأخذ بمصطلح الحصر، وذلك لأن أسلوب الحصر من حيث الاصطلاح والمفهوم أصله نحوي. أي أسبق من مصطلح البلاغيين.

رابعاً:

تقسيم الحصر من الوجهة البلاغية كان مبالغاً فيه. فالبلاغيون لم يكتفوا بوضع أقسام وأطراف له بل جروا في تقسيمه باعتبارات تصل إلى حد التعقيد والإملاص. والتوسع في هذا التقسيم لم يضيف شيئاً جديداً ذا بال إلى البلاغة العربية بقدر ما كان جرياً وراء النزعة المنطقية في تحصيل المصطلحات الجديدة لهذا العلم.

خامساً:

توسيع دائرة أسلوب الحصر خصوصاً بأداة الحصر "إلا". فأمتلئة أسلوب الحصر المشهورة عند النحويين والبلاغيين هي أسلوب الحصر المسبوق بـ "ما" النافية، والباحث استطاع توسيع دائرة أسلوب بـ "إلا" بحيث تصبح أدوات النفي التي تسبقه اثنتي عشرة أداة.

سادساً:

إن ارتباط النفي بأداة الحصر "إلا" حقق الآتي:

- جعل "إلا" تفيد الحصر أو مطلق التخصيص.
- جعل جملة الحصر بـ "إلا" موثقة محكمة متينة موجزة فلي قوة جملتين.

- جعل أداة الحصر "إلا" لا تكون إلا في النبرة العالية والنعمة الحاسمة والتعبير الشديد، هدفها الرد على المخاطب المنكر.
- تنوع أدوات النفي التي تسبق أداة الحصر "إلا" جعل جملة الحصر مرنة متنوعة في أداء المعنى المراد له.

سابعاً:

بيان أدلة النحويين والبلاغيين والمفسرين على أن "إنما" و "أنما" أداتا حصر خلافاً للمذكرين.

ثامناً:

يأتي أسلوب الحصر بـ "إنما" للرد على المخاطب بنبرة هادئة وأسلوب مقنع.

تاسعاً:

بيان الفرق الدقيق بين أسلوب الحصر بـ "إن وإلا" و "ما وإلا" ضمن السياق القرآني. إذ إن أسلوب الحصر بـ "إن وإلا" أكد من أسلوب الحصر بـ "ما وإلا". فالسياق القرآني أظهر أن المخاطب بأسلوب الحصر بـ "إن وإلا" أشد إنكاراً من المخاطب بأسلوب

الحصر بـ "ما وإلا". وهذا الفرق الدقيق يسلمنا إلى النتيجة الكبرى

وهي أن أساليب الحصر لا تترادف في القرآن الكريم.

عاشراً: بيان الفرق الدقيق بين أساليب الحصر الدالة على التوحيد فيما يلي:

الأول: وما من إله إلا اله واحد.

الثاني: وما من إله إلا الله.

الثالث: لا إله إلا الله.

فالفرق بين الأسلوب الأول والثاني: أن الأسلوب الأول: قصر أفراد

أتى للرد على المخاطب، وهم النصارى الذين يعتقدون أن الله ثالث

ثلاثة بشركة محددة بثلاثة. فأسلوب الحصر الأول أفرد واحداً من

هؤلاء الثلاثة.

بينما الأسلوب الثاني كان قصر قلب أتى للرد على المخاطب السذي

يعتقد مطلق الشركة دون تحديدها. والمخاطب في الأسلوب الأول

حاله مختلفة عن المخاطب في الأسلوب الثاني. وعلى هذا فلا يمكن

استعمال أسلوب الحصر الأول للمخاطب الثاني أو العكس.

أما الأسلوب الثالث فلم يأت للرد على مخاطب معين، وإنما أتى

قصرأ حقيقياً تحقيقاً دالاً على مطلق التأكيد.

فالتركيب الثلاثة وإن كانت دالة على معنى التوحيد إلا أن كل

تركيب يحمل معنى مختلف عن الآخر.

أحد عشر: إضافة أساليب الحصر صفة إعجازية جديدة للقرآن الكريم تتمثل في

أن كل تركيب من تراكيب الحصر له خصيصة في الأداء أو في

الاستعمال يمتاز بها عن التركيب الآخر.

أسلوب الحصر في القرآن الكريم عند النحويين والبلاغيين

تهدف هذه الدراسة الى كشف أسرار أسلوب الحصر بـ (إلا) و (إنما) ودلالاتهما في القرآن الكريم. وقد انتظمت هذه الدراسة في هيكل تنظيمي قائم على مقدمة وتمهيد و ثلاثة فصول. حاولت المقدمة بحث العلاقة بين علم النحو و علم المعاني. وتناول التمهيد الحصر في الدراسات النحوية و البلاغية السابقة . وتناول الفصل الأول بالدراسة المباحث الآتية :

الأول :تحديد مصطلح الحصر.

الثاني :التعريف الاصطلاحي للحصر عند النحويين و البلاغيين .

الثالث :التعريف بأقسام الحصر من الوجهة البلاغية .

و تناول الفصل الثاني بحث أسلوب الحصر عند النحويين و البلاغيين.وجوهر البحث يتجسد في الفصل الثالث الذي تناول دلالات في أسلوب الحصر . و منهج الباحث في هذه الدراسة يقوم على الوصف المقترن بالتحليل. فقد قام الباحث بتحديد الظاهرة المدروسة أولا ، ومن ثم وصفها وتحليلها.

Restiction In the Qura'anic Style Between Grammarians and Rhetoricians

This study aims at unlocking the secrets of both styles of restriction – (Ella) and (Ennama) and discussing their minute in the Holy Qur'an. This aim requires the study of structure or connotation or style and analysis philology.

To achieve this aim, this research has studied both styles of restriction, in the Holy Qur'an, for grammarians and rhetoricians.

This research consists of an introduction, preface and three chapters:

The introduction tackles the relationship between grammar and syntax with the aim at consolidating their interrelation ships.

The preface studies restriction in the grammarian and rhetoric studies with at trying the development of restriction concept in both environments of grammarians and rhetoricians.

Chapter one tries to determine the term of restriction, its definition by grammarians and rhetoricians, identification of the parts of restriction from rhetoric perspective and gives examples there on from the Holy Qur'an.

Chapter Two tries to discuss both style of restriction for grammarians and rhetoricians in term of theory and practice with examples from the Holy Qur'an.

Chapter three, which is the crust of our research, tries to discuss minute details of restriction style and quotes examples from the Holy Qur'an.

The methodology adopted in this research relies on description coupled with analysis. The researcher determines, describes and analysis the phenomenon.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الاتقان في علوم القرآن الكريم، السيوطي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- أثر النحاة في البحث البلاغي، د. عبدالقادر حسين، القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٧٥م.
- أساس البلاغة، الزمخشري، ط٣، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٥.
- أساليب بلاغية: الفصاحة، البلاغة، المعاني، د. أحمد مطلوب، ط(١)، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٠.
- أساليب التأكيد في اللغة العربية، إلياس ديب، ط(١)، بيروت، دار الفكر اللبناني، ١٩٨٤.
- أساليب النفي في القرآن، د. أحمد ماهر، الإسكندرية، دار الناشر الجامعي، ١٩٨٠.
- أسباب النزول، الواحدي، تعليق وتخريج د. مصطفى البغا، دار ابن كثير - دمشق، بيروت، ط٣، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧.
- الاستغناء في أحكام الاستثناء، شهاب الدين القرافي، تح طه محسن، الجمهورية العراقية، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، أحياء التراث الإسلامي، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- من أسرار اللغة، د. إبراهيم أنيس، ط(٣)، ١٩٦٦، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- أسلوب النفي والاستفهام في العربية، خليل عمايرة، جامعة اليرموك.

- الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، محمد الجرجاني، تح. د. عبدالقادر حسين، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة.
- الأصول في النحو، ابن السراج، تح. د. عبدالحسين القتلي.
- الإعجاز البياني للقرآن، ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية، د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، ط ٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤م.
- إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس، تح. د. زهير زاهد، مطبعة العاني، بغداد- إحياء التراث الإسلامي.
- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط ٥، ١٩٨٠، بيروت-لبنان.
- الاقتراح في علم أصول النحو، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، ط (٢)، ١٣٥٩هـ، جمعية دار المعارف العثمانية بحيدر آباد.
- الألفاظ الكتابية، عبد الرحمن الهمداني دار الكتاب العربي، ط ١، بيروت، ١٩٨٦م.
- الإنصاف في مسائل الخلاف، كمال الدين أبو البركات عبدالرحمن الأنباري، ومعه كتاب الانتصاف من الإنصاف، محي الدين عبدالحميد، ط ٤، المكتبة التجارية الكبرى، بمصر، ١٩٦١م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، دت.
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ابن هشام، تح محمد محيي الدين عبدالحميد دار الفكر، بيروت-لبنان. دت.
- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، شرح د. محمد عبدالمنعم خفاجي، ط ٢، الناشر مكتبة الكليات الأزهرية، الأزهر، القاهرة. دت.
- بدائع القصر في النظم العربي، د. إبراهيم داود، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م، مطبعة الأمانة، مصر.
- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، تح عادل عبد الموجود، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٨.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، السيوطي، تح محمد إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت. دت.

- البلاغة العالية علم المعاني، عبدالمتعال الصعدي، قدم له وراجعته، د. عبدالقادر حسين، مكتبة الأدباء ومطبعتها بالجماميز، ط(٢)، ١٤١١هـ-١٩٩١.
- البلاغة فنونها وأفنانها، علم المعاني، د. فضل حسن عباس، ط(٢)، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩، دار الفرقان، عمان - الأردن.
- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، المكتبة العلمية، ط٣، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- التحرير والتنوير، ابن عاشور، الدار التونسية، ١٩٨٤م.
- التركيب الاستثنائي في القرآن الكريم دراسة نحوية بلاغية، ربيعة الكعبي، ط١، ١٩٩٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان.
- التطبيق النحوي، د. عبده الراجي، ١٤٠٥هـ-١٩٩٥م، دار النهضة العربية بيروت-لبنان.
- التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم، د. عودة ابو عودة، مكتبة المنار، ط١، الزرقاء-الأردن، ١٩٨٥.
- التطور النحوي للغة العربية، برجستراسر، القاهرة، المركز العربي للبحث والنشر، ١٩٨١.
- تفسير أبي السعود: المسمى "إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم"، لأبي السعود محمد بن محمد الصمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان.
- التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، للإمام محمد الرازي فخر الدين، دار الفكر.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ط٢، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- جامع البيان عن تأويل أي القرآن، الطبري، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، دار الفكر، بيروت-لبنان.
- جامع الدروس العربية، الشيخ مصطفى الغلاييني، راجعه د. عبدالمنعم خفاجة، ط١٨، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت.

- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، دار الفكر، بيروت-لبنان.
- الجنى الداني في حروف المعاني، المرادي، تح طه محسن، ١٣٩٦هـ-١٩٧٦، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل.
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، السيد أحمد الهاشمي، ط١٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان.
- حاشية السيد علي المطول، سيد شريف.
- حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ومن شرح الشواهد للعيني، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- الخصائص، لابن جني، تح محمد علي النجار، ط(٢)، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان.
- دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق عضيمة، المملكة العربية السعودية، وزارة التعليم العالي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، صحح أصله الإمام محمد عبده والشيخ التركي الشنقيطي، علق على حواشيه محمد رشيد رضا، مكتبة القاهرة، ١٣٨١هـ-١٩٦١.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تح محمد تنجي، دار الكتاب العربي - بيروت، ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- دلالات التراكيب، دراسة بلاغية، د. محمد أبو موسى، ط١، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، مكتبة وهبة، القاهرة.
- دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم، عبدالوهاب أبو صفية، ط(١)، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.
- دور الكلمة، ستيفن اولمان، ترجمة د. كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٦٢م.
- ديوان عبيد الله ابن قيس الرقيات، تح د. محمد نجم، دار صادر، بيروت.
- ديوان، الفرزدق دار صادر، بيروت، ١٣٨٠هـ-١٩٦٠م.

- ديوان المتنبي، بشرح أبي البقاء العكبري، دار المعرفة، بيروت-لبنان.
- السراج المنير، الخطيب الشربيني، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- شرح الأنموذج، جمال الدين محمد بن عبدالغني، تح الدكتور حسني عبدالجليل، مكتبة الآداب، القاهرة، دت.
- شرح التصريح على التوضيح، خالد الأزهرى، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- شروح التلخيص، المفتاح، لابن يعقوب المغربي، وعروس الأفراح للسبكي والإيضاح للقزويني، وحاشية الدسوقي على شرح التفتازاني، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، دت.
- شرح ديوان لبيد بن ربيعة، تح د. أحسان عباس، الكويت، ١٩٦٢م.
- شرح الرضي على الكافية، الرضي الأسترابادي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان.
- شرح الرضي على الكافية، الرضي الأسترابادي، تصحيح وتعليق يوسف عمر، منشورات جامعة قار يونس، وجامعة بنغازي، ١٩٦٠م.
- شرح ابن عقيل، ابن عقيل، تح محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت، طبعة جديدة، ١٤١٩هـ-١٩٩٨.
- شرح المفصل، ابن يعيش، عالم الكتب، بيروت، دت.
- شعر الأخطل رواية اليزيدي عن السمرى عن ابن الأعرابي، ط٢، دار المشرق، المطبعة الكاثوليكية، بيروت - لبنان، دت.
- شعر ابن ميادة، تح د. حنا حداد، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- الصاحبى فى فقه الفقه وسنن العرب فى كلامها، أحمد بن فارس، تح مصطفى الشويمى، مؤسسة أ. بدران للطباعة، بيروت-لبنان ١٩٦٣م-١٣٨٢هـ.
- صحيح مسلم بشرح النووي، تح عصام الصبّاظي، ط(١)، دار أبي حيان للنشر والتوزيع، طبع بالقاهرة (١٤١٥هـ-١٩٩٥م).

- الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، ترجمة عبدالصبور شاهين، ط(٢)، مكتبة دار العروبة، ١٩٥٨.
- علم المعاني، د. درويش الجندي، ط٢، ١٣٨٠هـ - ١٩٦٢م، مكتبة نهضة مصر بالقاهرة.
- علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع، أحمد مصطفى المراغي، ط(٢)، ١٩٨٤، دار القلم، بيروت-لبنان.
- عمدة القارئ، شرح صحيح البخاري، العلامة البدر العيني.
- فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ط(٤)، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، بيروت، لبنان.
- في شرف العربية، د. إبراهيم السامرائي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، كتاب الأمة، ط(١)، قطر ١٤١٥هـ.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، ط(٧)، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان. دت.
- في اللهجات العربية، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٦، القاهرة، دت.
- في النحو العربي قواعد وتطبيق على المنهج العلمي الحديث، مهدي المخزومي، ط(١)، ١٣٨١هـ - ١٩٩٦م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
- في النحو العربي نقد وتوجيه، مهدي المخزومي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
- القاموس المحيط، الفيروز آبادي، تح، مكتبة تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط(٢)، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، بيروت-لبنان.
- القواعد الأساسية، السيد أحمد الهاشمي، دار الكتب العلمية، ١٣٥٤هـ، بيروت، لبنان.
- الكتاب، سيبويه، تح عبد السلام هارون، ط(٣)، ١٣٠٨هـ - ١٩٨٨، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة.

- كتاب الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تح د. أحمد الحمصي
ط ١، لبنان، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- كتاب في اصول اللغة، مجمع اللغة العربية، مجموعة من القرارات من الدورات
٢٩-٣٢، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م.
- الكشف، الزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥.
- كشف اصطلاحات الفنون، التهانوي، منشورات شركة خياط، بيروت، لبنان.
- لسان العرب، جمال الدين بن منظور، بيروت، دار صادر.
- مختصر صحيح البخاري، الزبيدي، تح إبراهيم بركة، دار النفائس، ط ٣،
١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م، بيروت.
- المدارس النحوية، د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط ٢، القاهرة، ١٩٧٢.
- المزهري في علوم العربية و انواعها، السيوطي، تح أحمد جاد المولى وآخرون
دار الفكر، بيروت، دت.
- المسائل البغداديات، أبو علي الفارسي، تح صلاح السنكاوي، إحياء التراث
الإسلامي، الجمهورية العراقية.
- المسائل الحلبيات، أبو علي الفارسي، تح د. حسن هنداي، دار القلم، دمشق،
ودار المنارة، بيروت، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، دار المعرفة، بيروت - لبنان.
- المسيحية، أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، ط ٦، ١٩٧٨.
- معاني الحروف، الرماني، تح عبدالقادر إسماعيل شلبي، دت.
- المعاني في ضوء أساليب القرآن، د. عبدالفتاح لاشين، ط (٤)، ١٩٨٣، توزيع
المكتبة الأموية.
- معاني القرآن، الأخفش الأوسط، تح فائز فارس، ط ٢، ١٤٠١هـ -
١٩٨١م.
- معاني القرآن، الفراء، تح د. عبدالفتاح الشلبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب،
١٩٧٢.

- معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي، وزارة التعليم العالي، جامعة بغداد، بيت الحكمة، ١٩٨٦-١٩٨٧م.
- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تح د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٣.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان.
- المعجم الوافي في النحو العربي، د. علي الحمد، منشورات دائر الثقافة والفنون، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، عمان - الأردن.
- معنى "لا إله إلا الله" الزركشي، تح علي محمد الدين، ط٣، دار الإعتصام، القاهرة، طبع بالتعاون مع دار البشائر الإسلامية، بيروت - لبنان، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- المعجم الوسيط، د. إبراهيم أنيس ورفاقه، معجم اللغة العربية، ط(٢)، القاهرة، ١٩٧٢م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعراب، ابن هشام الأنصاري، تح د. مازن المبارك وآخرون، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٧م.
- مفاتيح العلوم، السكاكي، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه تميم زرزور، ط(١)، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان.
- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تح محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت-لبنان.
- المفصل في علم اللغة، الزمخشري، قدم له وراجعاه وعلق عليه الدكتور محمد السعيد، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- مقاييس اللغة، ابن فارس، تح عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
- المقتضب، المبرد، تح محمد عبد الخالق عضية، القاهرة، ١٣٨٦هـ-، لجنة إحياء التراث الإسلامي.
- النحو الوافي، عباس حسن، ط٣، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦.

- نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز، فخر الدين الرازي، تح د. بكري شيخ أمين، ط(١)، دار العلم للملايين، ١٩٨٥.
- همع الهوامع، السيوطي، تح د. عبدالعال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.

الرسائل الجامعية :

- المصطلحات العسكرية في القرآن الكريم (دراسة لغوية دلالية)، خالد خميس فراج، إشراف د. سلمان القضاة، جامعة اليرموك - الأردن، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

الدوريات:

- الترادف : علي الجارم ، مجلة مجمع اللغة العربية ، ج ٨ ، القاهرة ، ١٩٣٤م.
- الترادف في اللغة العربية ، عودة أبو عودة ، المجلة الثقافية ، الجامعة الأردنية ، ع ١٢-١٣ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.
- جمع لغة العربية ، أحمد أمين ، مجلة مجمع اللغة العربية ، ج ٣٥ ، القاهرة ، ١٩٥٥م.
- ظاهرة الترادف بين القدماء و المحدثين ، أحمد مختار عمر ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، جامعة الكويت ، ع ٦ ، المجلد ٢ ، ربيع ١٩٨٢م.
- القصر في سورة البقرة ، الشاذلي الهشيري ، حوليات الجامعة التونسية ، العدد ٢٦ ، جامعة تونس ، كلية الآداب ، ١٩٨٧م.